ثلاث خمائل

تأليف:

جولدي أحمد المابو

إصدارات **دار الموج الأخضر للنشر المُيّسر** بالشراكة

مع **دار طوقان للنشر الرقمي**

2020

حقوق الملكية الفكرية

الطبعة :الأولى

المؤلف: جولدي أحمد المابو

الناشر: دار الموج الاخضر للنشر المْيَسر (الجزائر)

طوقان للنشر الرقمي (فلسطين)

© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

التوزيع : TheBookExhibition.com

ISBN : 978-1-716-53423-2

EBIN: 6-1-1-201004

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف، ولا يجوز تبادل هذا الكتاب جزئياً أو كلياً بطريقة غير شرعية؛ سواء من خلال إتاحته للتحميل على مواقع الويب أو تبادله عبر رسائل البريد الإلكتروني، كما لا يجوز نسخ جزء من النص بدون إذن مسبق منه.

الاهداء

لنعشْ كلَّ حياتنا كما بطلات روايتنا على أنَّ:

اليومَ الأجملِ لم يأتِ بعد

ولتكنْ كلُّ حياتِنا أيامًا جميلة...

إلى كلِّ قارئةٍ لروايتي...

إن كنتِ متزوجةً فقد سبقَ ووقعتِ في المصيدة إذًا

فستكونُ هذه الروايةُ كذبةً جميلةً سبقَ وحلمتِ بها

أو ربما.. أقول ربما تكملةٌ لحلمٍ تحقق...

أمَّا بالنسبة للصبايا والمقبلات على الزواج

دعنَني أخبركُنَّ حقيقةَ هذه الرواية فهي من قبيل:

جولدي أحمد المابو

أعلِّلُ النفسَ بالآمال أرقبها

ما أصعب العيش لولا فسحة الأمل

أو من قبيل..

دعْنِنِي أخدعك وأنخدع معك...

فلا تقلْنَ غدًا والدموع تسيلُ عندما تَخضْنَ التجربة

"ليسَ هذا ما توقعتُه"

نظلُّ دهرًا من حياتِنا ننتظرُ ذلكَ اليومَ الأجملَ..

من الطفولةِ .. للشبابِ.. للكهولةِ ... فالمشيبِ...

دائمًا هناك أحلامٌ مؤجلةٌ للمرحلةِ اللاحقةِ، علَّها تحملُ لنا اليومَ الأجملَ...

وقد يمضي العمر ولم يأتِ ذلكَ اليومُ الأجملُ...

لكن لمَ ننتظرُ ذلك اليوم...

لمَ لا نَجعَلُ كلَّ يومٍ في حياتِنا القصيرةِ يومَنا الأجمل؟!

ونعيشُ يومًا بيوم...

- يا إلهي عريسك في غايةِ الوسامة..

قالتْها جوانا بفرحةٍ وهي تسترقُ النظرَ من بابِ حجرةِ سارة وقد تعالتْ زغاريدُ الفرحِ وأصواتُ الضحكات، فسألتْها حنين:

- ما شعورُك في هذه اللحظة؟!

فتحتْ سارةُ عينيها بعد أن انتهت حنينُ من تزيينها وأمسكتْ بيدِها تضعُها على صدرها قائلة:

- اسمعي دقَّاتَ قلبي؛ لتعرفي ما يراودني من توترٍ وخوفٍ..

ردَّت حنين: ربما هي دقَّات السعادة...

أغمضت عينيها للحظة ثمَّ عادت تفتحهما، وهي تنظرُ إلى جوانا نظرةً ذاتَ مغزى وتقول:

لا.. ليست السعادة، السعادةُ كانت شيئًا مختلفًا...

قالت جوانا لتغيِّرَ الموضوع: لم يسبقْ أن أخبرتنا أن لكِ قريبًا بهذهِ الوسامةِ والأناقة؟!

- لأنَّه لم يسبقْ لي أن فكَّرتُ به كعريسٍ إطلاقًا، هيَّا ساعداني في ارتداءِ الثوبِ ستكون أمي هنا بعد لحظات...

قالت حنين بعد أن انتهت وهي تنظرُ إليها: تبدين في غاية الروعة..

أردفت جوانا: مؤكدٌ أنّه سيقع في غرامك من أولِّ وهلة.

دخلت الأمُّ الغرفةَ قائلةً: ألم تنتهيْنَ بعد يا فتيات؟

أجابت حنين: لقد انتهينا تقريبًا، ما رأيك؟ أليست رائعةً؟؟

تأملتْها أمُّها للحظات قبل أن تقول: هناك بعضٌ من أحمرِ الشفاه على أسنانك، امسحيه.

واستدارتْ مغادرةً الغرفة فقالت جوانا مصدومة: يا إلهي أمُّك قاسيةٌ حقًّا...

هزَّت سارة كتِفَها في لامبالاة قائلة:

لو أطرتْ مظهري لما عرفتها أصلًا، هيَّا دعننا ننتهي من هذا الهراء..

دخلت مها - أختها من أمها- فهَتَفتْ:

يا إلهي ما أروعك سيفتتن أخي بك لامحالة، هل أنتِ مستعدةٌ؟

أحضرت جوانا زجاجةً عطرٍ خاصَّةٍ ورشَّت بضعَ قطراتٍ على ثوبِ وشعرِ سارة وقالت: الآن مستعدةٌ وجاهزةٌ تمامًا..

ضمَّتْهما سارة إليها وقالت: أنا ممتنةٌ لكما حقًا.

تنحنحتْ مها ثمَّ قالت:

سارة ثمة ما أريد إخبارك به قبل أن تخرجي إلى عريسك..

ارتسم الفضولُ على ملامحهن وقالت سارة: ماذا هناك؟

نقَّلت مها بصرها بين حنين وجوانا، فقالت حنين:لا تدعي وجودنا يقلقُك فنحن ذاهبتان، نعلم أنَّ هذه حفلةٌ عائليةٌ...

أسرعتْ مها تقول: آه.. ليس هذا ما قصدته..

أردفتِ جوانا: لقد جئنا فقط لتقديم الدعم المعنوي وطبَعت قبلةً على خدِّ سارة وأكملت: والتمنيات بحياةٍ سعيدةٍ..

قالت حنينُ وهي تحمل حقيبتها: إن بقي في الليل متسعٌ يمكنك الاتصال بنا..

قالت سارة برجاء: يمكنكما البقاء، لن أتأخر

قالت جوانا بمرحٍ: لا بأس، بعضُ الترقب والانتظار مفيدٌ أحيانًا، إلى اللقاء..

بعد أن خرجتا التفَّتْ سارةُ إلى أختها متسائلة: ماذا هناك؟!

بدا على مها الحرج وهي تقول: لقد حضرتْ زوجته عبير معه..

عقدتِ المفاجأة لسانها للحظات قبل أن تقول: وماذا في ذلك؟! إنَّه بيت عمها على كلِّ حالٍ..

خرجت الاثنتان وسارة تحاولُ أن تخفيَ توتُّرَها خلف ابتسامةٍ متراقصةٍ على شفاهها، وعندما اقتربتا من الصالون الكبير دخلت مها تنادي أخاها هشام الذي نظر إليها مبهورًا وابتسم قائلًا:

مساء الخير، ظننتُ أنَّك لن تظهري الليلة.

ابتسمت في حياءٍ وردت في خفوتٍ:

مساء النور..

همَّ هشام بقولِ شيءٍ ما فقاطعتْهُ مها:

وفِّرا الهمسات لما بعد؛ سأشغِّل الأسطوانة الآن وعليكما السير على أنغامها بكلِّ هدوءٍ..

أومأ الاثنان دلالةً على الموافقة ودخلا إلى الصالون الذي يعجُّ بالحاضرات من القريبات وبناتهن حتى وصلا إلى المكان المخصصِ لهما، فبدأ الغناءُ والرقص من حولِهما مما أتاحَ لسارةَ التجول ببصرها بين الحاضرات حتى وقعَ بصرُها على عبير وهي في أبهى حلَّةٍ والشررُ يتطايرُ من عينيها وهي تنظرُ إليها فتساءلت في داخلها:

أيُّ مخططٍ شريرٍ جاء بك؟ ثمَّ عادت تعاتبُ نفسَها: لا تبدئي بالأفكار الشريرة، لن يحدث شيء طالما النوايا الحسنةُ موجودةٌ.

وبعد أن هدأ الصخبُ والرقصُ قامت عبيرُ من مكانِها وجلست بجوار هشام من الجهة الأخرى بعد أن قامت إحدى أخواته مما جعل هشام يشعرُ بالتوتر والحرج ولا شعوريًا ترك يدَ سارة. وجاءت شفيقةُ شقيقةُ هشام الكبرى التي كانت معارِضة لهذه الزيجة حاملة في يدها علبتي مجوهرات من القطيفة الحمراء ووضعت إحداهما أمام سارة والأخرى في يد أخيها قائلة بأسلوبٍ مسرحيٍّ:

قدِّم هديتك التعويضية لزوجتك الأولى وإن كنتُ لا أرى أن ثمةَ ما يعوِّض ما حدث.

التَفَتَ هشام لجهة عبير وفتح العلبة وإذ بداخلها طقم من الألماس الحرِّ، بريقه يخطف الأبصار وقدَّمه لها وهو يقول:

تفضَّلي يا عزيزتي، أعرفُ أنَّ هذا الطقمَ قد راقَ لكِ عندما كنَّا في دبي فطلبته خصيصًا لك.

امتلأت عيناها بالدموع وقالت في تأثرٍ:

يا الله .. ما أروعه!!

قالت شفيقة في تبرمٍ: هذا أقلُّ ما يقدمه، كان اللّهُ في عونك..

تجمَّعتِ الحاضرات حول عبير يواسينها تاركات سارة خارج دائرة الاهتمام بل إن البعض يرمقنها بنظرات الاتهام، فأغمضتْ عينيها محاولة السيطرة على أعصابها. إنَّها فرحتها، يومُها المنتظر، يوم عقدِ قرانها فلمَ يحاولن تدمير فرحتها؟! إنَّ ما يحدث هنا متعمدٌ فالذئابُ لا تعوي عبثًا

استرعى انتباهها شفيقةُ تعاتب أخاها:

ولولا مواقفك النبيلة معنا لما وجدت واحدة منَّا هنا تحتفل معك بالمناسبة التي تظنُّها سعيدة!

سرت همهماتُ الموافقةِ بين الحاضرات فتأجج غضب سارة وأزاحت الطاولةَ الموضوعةَ أمامَها وتركت المكان وكما يبدو أن صاحبَ الشأن لم يشعر بذلك حتى، فهو مشغولٌ مع زوجته المكلومة، وصلت إلى غرفتِها وصفقتِ الباب خلفها وقالت في حرقةٍ:

كنت أعلم أنَّ هذا صعبُ المنالِ، سعادةٌ خالصةٌ لي دون شائبة أمرٌ يكادُ أن يكون مستحيلًا.

تمنت لو تبكي لتريحَ نفسَها من بعض ما يجيش في صدرِها من غضبٍ، لكن هيهات جلست على سريرها تتذكر، هنا في المكان نفسه كانت ترقدُ وبيدِها مجلةٌ تقلِّبُها دونما اهتمامٍ عندما دخلت أمُّها وقد بدا عليها الجدُّ كعادتها وقالت:

سارة لقد تقدَّم لكِ خاطبٌ..

سألتْ دون أن ترفع رأسها:

سمعتُ هذه العبارة كثيرًا، من هو هذه المرة؟!

هشام

من هشام هذا؟؟

هشام ابن زوجي

اتَّسعت عيناها في دهشةٍ وتركتِ المجلة وقالت: ماذا؟؟ هشام ابن عمي آدم أخو مها ومايا أخواتي؟؟!

نعم إنَّه هو بعينه.

استوت جالسةً وقالت:

أمِّي لا يمكن أن تكوني جادة..

بل جادةٌ جدًا.

مستحيل، لا يمكنني حتى التفكير في الأمر يا أمي..

وما الذي يمنع؟! إنه شابٌّ جيدٌ، ومتعلمٌ، ومن عائلةٍ محترمةٍ، ولديه وظيفةٌ مرموقةٌ...

أكملت سارة: ومتزوجٌ، ومثقلٌ بالأبناء والمسؤوليات، هذا عدا أنَّ الجميعَ يعرفون مدى حبِّه لزوجته عبير، لا شكرًا عندما أتزوج أريد زوجًا حقيقيًا، فكلانا يعلم لمَ يتزوج..

انظري من يتكلم؟! من تريد هذا ولا تريد هذا يجب أن تكونَ فتاةً في السابعة عشر أو بداية العشرينات، لا فتاة تجاوزت الثلاثين من عمرها...

عبست سارة قليلًا ثمَّ قالت: ولو، أفضِّل لقبَ عانسٍ على أن يطلقَني بعد شهر أو شهرين كما فعل سابقًا مع زينة...

تلك الزيجة كانت لها طروفٌ خاصَّة، أنا واثقةٌ أنِّك ستنجحين معه...

صعبٌ، صعبٌ جدًا، إننا من العائلة نفسها تقريبًا، وسنرى بعضنا كثيرًا مما سيتسبب في الكثير من المشاكل. تعلمين أنني لستُ ضدَ أن أكون زوجةً ثانية، لكن هذا لن ينجح.. أعرف عبير جدًّا إنها متملكة...

وأنت أنانية، فكّري ولو قليلًا بي وبعمك آدم إننا قلقون عليك...

لا تقولي إنَّ عمّي آدم من شجَّعه على هذه الخطوة...

بالطبع لم يفعلْ، لكنَّكِ تعلمين كم يحبُّك وهو قلقٌ عليكَ ويتمنى أن يراكِ مستقرةٌ في بيتِ زوجك قبل أن يموت..

العمر الطويل له إن شاء الله.

إن شاء الله، ولكن فكّري ماذا سيحدث لكِ حينَها؟؟ أين ستذهبين؟ لا أظنُّك تفكّرين في العودة إلى منزل إخوانك من أبيكِ بعد الضيم الذي ذقته هناك بعد وفاة والدك..

ضحكتْ سارة في تهكمٍ ثمَّ قالت:

أهذا هو كلُّ ما يشغل تفكيرك أين سأسكن؟! في حال قرروا بيع البيت الكبير يمكنني السكن معك حيث ستسكنين، أم

أنَّك تنوين التَّخلص مني؟؟ على العموم أنا كبيرةٌ بما فيه الكفاية لاستأجر شقةً وأعيش فيها وحدي..

هذا ليس موضوعنا الآن، ما قولك في هشام؟!

صدقًا يا أمي لا أستطيعُ حتى تقبَّل الفكرة، إنَّها ترعبني.

هبَّت الأمُّ من مكانِها وقالت في حدةٍ:

كلُّ هذا هراءٌ، أعرفُ جيدًا ما تفكِّرين به لكن تأكدي أن ذلك لن يحدث أبدًا، وإن حدث، إن حدث سأقف له بالمرصاد كوني متأكدةً..

تصنعتْ سارةُ الغباء وهي تقول:

عن أيِّ شيء تتحدثين؟؟ لا أظنُّ أنني أفقه شيء من تلميحاتك

لا تفقهين؟؟؟ حسنًا ستفقهين يومًا ما..

صفقتِ الأمُّ الباب خلفها فعادت سارة إلى رقدتها الأولى قائلة:

يا إلهي، من كان يتوقَّع؟! هشام المتعجرف؟! ترى ماذا ستكون ردةَ فعلِ طارق عندما يعلم؟؟

****

تعالت الطرقات على بابِها لتعيدَها إلى أرض الواقع قبل أن تدلف أختاها مها ومايا قالت الأخيرة وهي تحتضنها: لقد صَدَقتْ مها عندما امتدحتْ منظرك، تبدين في غايةِ الروعة.

ردَّت سارة: أنتِ أيضًا رائعةٌ، هواءُ الساحلِ الرطبُ ناسبَك تمامًا تبدين متألقةً، لكنَّني آسفة؛ لأنَّك تكبَّدتِ عناءَ السفر من أجلِ سهرةٍ لن تتم...

سألتْ مها:

ألن تعودي إلى الصالون؟

ردَّت دون أن ترفعَ راسها:

ولماذا؟؟ لأتلقى المزيد من الإهانات...

مايا:

تلك كانت هفوةً غيرِ مقصودة، مؤكدٌ أنَّ أخي هشام لم يقصد الإساءة، فقط كان يجاري التيار..

أكملت مها:

ثمَّ إنَّ أمي شنَّت حربًا شعواءَ على شفيقة فدعينا ندَّعي أنَّ شيئًا لم يحدث، ونكمل من أجلكما فقط وإثباتًا لحسن النوايا..

وعندما دخلتِ الصالون مرة أخرى هدأتِ الأصوات وحدَّقت بها العيون، بينما أمُّها وشفيقة تتحدثان بصوتٍ عالٍ وهشام يقف بجوار عبير يهمسُ لها ويمسحُ دموعها بمنديلٍ في يده فتقدَّمت وجلست مكانَها وهي تقول في سرِّها:

يا إلهي الوضع أسوأ من السابق.

انتبهت عبير لعودتها فزادت في النحيب والبكاء لدرجة بدا معها أنَّها على وشك الإصابة بانهيارٍ عصبيٍّ فالتفتَ هشام لأختِه مها صارخًا:

رجاءً دعيها تخرج، عبير تكاد أن تُجن...

هبَّت سارة من مكانها والغضب يشتعلُ في عينيها ورمقتْه بنظرةٍ ناريِّةٍ ثمَّ نظرت إلى عبير لترى في عينيها طيفَ ابتسامة نصرٍ وتشفٍّ ثمَّ غادرت الصالون إلى حجرتِها حيث خلعتْ ثوبِها

ومسحت مكياجَها وارتدت بيجامتَها وبينما هي تستعدُ للدخول إلى السرير تعالتِ الطرقات على بابها الموصد مجددًا فقالت دون أن تعرف من الطارق: لا أريد رؤية أحد، أريد أن أنام وأكملت في سرِّها: فالأشياء لا تبدو كئيبة جدًا في الصباح.

****

استيقظت سارة مع صوت المؤذن لصلاةِ الفجر فأدَّت صلاتها واتَّجهت إلى مكتبِ عمِّها آدم بعد أن أعدت إبريق الشاي وقالت بابتسامةٍ: صباح الخير..

رفع بصرُه إليها في دهشةٍ ثمَّ أعاده إلى المصحف الذي بين يديه وبعد لحظات أغلقه وخلع نظارته وردَّ: صباح النور يا بنيتي.. ظننتُ أنِّي لن أراكِ هذا الصباح...

قالت مبتسمةً وهي تصبُّ له الشاي:

ولماذا؟؟ تعرفُ أنَّ يومي لن يكون سعيدًا دون رؤيتك ودون جلستك الصباحية..

قلتُ ربما أخذكِ هشام بعدما انتهى الحفلُ لرؤية شروق الشمس وتناول الإفطار..

جددت كلماته الألم والإهانة فردَّت وهي تزيحُ خصلاتِ الشعر عن وجهها:

لا.. لم يفعل شيئًا من ذلك.

ضحك آدم قائلًا:

يا إلهي هشام غبيٌّ جدًا، ألا يعرف كيف يدلل عروسه الجميلة، لابد أنَّك كنتِ رائعةً البارحة. تمنيت أن أراكِ، لكن كما تعلمين لم أعد قادرًا على السهر...

ليتك كنتَ موجودًا كنت ستلاحظني على الأقل..

همَّ بقول شيء ما لكنَّها قاطعته بأدبٍ:

ماذا تريد أن نقرأ اليوم؟ اختر ما تشاء فأنا حرَّةٌ اليوم..

اختار العمُّ إحدى الكتب واستمرا في القراءة لساعتين قال العمُّ بعدها:

هذا يكفي يبدو عليك الإرهاق، ما كان يجب أن أتركِكِ تقرئين كلَّ هذا الوقت.

قامت من مكانها قائلة:

لا بأس، فالقراءة مهدئة للتوتر. سأبعثُ لك الفطور مع الخادمة فأمي ما تزال نائمة بالتأكيد..

وعندما وصلتْ إلى البابِ استوقَفها قائلًا:

- ما بك؟ منظرك ليس منظرَ عروسٍ أبدًا، أخشى أنَّك ما زلتِ تفكِّرين في الماضي؟؟

اطمئن يا عمِّي، عندما وافقتِ على هشام كنت قد نسيتُ الماضي تمامًا، كلُّ ما بي بعض الإرهاق من السهر الطويل، سأحاول أن أنام وأرتاح الآن.

حسنًا يا ابنتي.

خرجت من المكتبِ وعرجت على المطبخ ومن ثمَّ اتَّجهت إلى الهاتفِ لتتصلَ بجوانا فردَّ أخوها طارق قائلًا:

نعم .. من المتحدث؟؟

احتبَست أنفاسُها وتسارعت دقاتُ قلبِها قبل أن تتمالكَ نفسها وتقول:

صباح الخير

هذه المرَّة كان الصمت من جانبه فقالت:

هل يمكنني الحديث مع جوانا؟؟

استمرَّ الصمتُ للحظات حتى ظنَّت أنَّه ترك السماعة لكنَّها سمعته أخيرًا يقول:

سأناديها لك، مباركٌ سمعت أنه عُقد قرانك.

قبل أن تجيب وضعَ السماعة لتعودَ وترفعَها جوانا بعد لحظاتٍ قائلة في مرح:

أهلًا بالعروس

سألتها سارة مباشرة:

متى عاد أخوكِ؟ أعني لم يمضِ سوى أسبوع منذ أن سافر..

البارحة.. قال إنَّ تلك المدينة لم ترق له فعاد، دعينا من أخي، وأخبريني كيف كانت حفلتك وليلتك الأولى بعد الزواج ؟

أسوأ ليلة مرت عليَّ منذ وفاة أبي.

لا يمكن أن تكوني صادقةً، قولي إنكِ لستِ كذلك!!

لكنِّي كذلك، دعينا من هذا الهراء, كنتُ أنوي الذهابَ إلى العمل والاحتفال مع الفتيات بعقد قراني لكنَّني لا أستطيع التحدث مع أحد أو تحمَّل مزاحهن وأنا بهذا المزاج السوداوي فاطلبي لي إجازة عرضية..

أخبريني ماذا حدث؟؟

أنت قلتِ إنَّ بعض الانتظار مفيدٌ إذًا دعينا نجعله مفيدًا أكثر.

تعيسةٌ وتملكين روحًا مرحةً...

سنخرج عصرًا ونتحدث في الأمر..

جيِّد، اتَّصلي بحنين لنرى إن كان والدها سيسمح لها، إلى اللقاء..

اتَّصلت بحنين التي قالت إنَّها ستحاول، لكنَّها متأكدة أن كلتاهما ستأتيان فالفضولُ قاتلٌ. اتَّجهت إلى غرفتِها لتفجأ بعلبةِ القطيفةِ الحمراء إياها مع علبةٍ صغيرةٍ أخرى على منضدة الزينة فأشاحت بوجهها عنهما قائلة: أحتاج لرجل، وهذا يستلزم أكثر من خاتم وكلمة..

استلقت على السرير محدقةً في السقف وهي تسترجع صوت طارق وتقول في نفسها: يا إلهي ما زال صوته ساحرًا يتسلَّلُ إلى أعماق الروح فتطرب له. تذكرتِ التأثير الذي أحدثه فيها أول مرة بجاذبيته الطاغية رغم حداثة سنِّه. فعندما رحلَت عن منزلها المجاور لهم بعد وفاة والدها كان صبيًّا صغيرًا، فقط سبع سنوات، رغم ذلك بقيت على اتِّصال بصديقة الطفولة جوانا ولما استقرَّ بها المقام أخيرًا في بيت أمها ذهبت لزيارة جوانا ففتح لها طارق الباب ظلَّت للحظات تحدِّق به

فقال وهو يبتسم أروع ابتسامة رأتْها في حياتها:

هل من خدمة؟!

نفضت ذهولَها وقالت بتلعثم: هل جوانا موجودة؟؟

أفسح لها الطريق وهو يقول:

تفضلي إنَّها تنتظرك..

وعندما مرَّت بجانبِه تسللت إلى خياشيمها رائحته ممزوجة بعطر ما بعد الحلاقة فشعرت بدوارٍ لذيذ. جاءت جوانا ترحِّبُ بصديقتها في حُبُورٍ بالغٍ فسألتها:

من هذا الفاتن الذي فتح لي الباب

ارتَسمتِ الدهشةُ على وجهِ جوانا وقالت:

لا تقولي إنَّك لم تعرفيه إنَّه أخي طارق..

اتَّسعت عينا سارة وقالت:

يا إلهي، ذاك الفتى الصغير أصبحَ رجلًا بهذهِ السرعة، بل وفاتَنا أيضًا ليتني كنتُ أصغر منه كنت تزوجته مباشرة دونَ حتى طلب رأيه.

ضحكت جوانا قائلةً:

سأخبره..

إياكِ أنْ تفعلي.. فلن يفكِّر طارق في عجوزٍ مثلي..

لذا كانت دهشتُها عظيمة عندما اتَّصل بها بعد عدة أيام على هاتِفها النَّقال لكنَّها ادَّعت أنَّها لم تعرفه مع أنَّ قلبَها اهتزَّ مع أولِ كلمةٍ نطقَها، وبعد عدةِ مناوشاتٍ ومناوراتٍ ألقى الاثنان راية الحربِ ورفعا راية الحب والغرام هتفت وهي تتذكَّرُ بداية حبهما: آه، لا أستطيع أنْ أكرهه مهما حدث..

ظلَّت تتقلبُ في فراشِها حتى نامتْ لكنَّه كان نومًا كئيبًا أسودَ خاليًا من الأحلام. استيقظت ظهرًا على صوت أمها تناديها:

استيقظي يا سارة عمُّك آدم يريدك حالًا..

ردَّت وهي تعتدلُ جالسةً:

حسنًا يا أمي سأكون عنده خلال دقائق.

دخلت غرفةَ المعيشةِ فوجدتْه جالسًا هناك، عابسَ الوجهِ، مكفهرَ الملامحِ فقالت:

مساء الخير.

فلم يرد التحية بل قال: لمَ لمْ تخبريني هذا الصباح بما حدث البارحة؟!

خفضت بصرها قائلة: لا أحبُّ أنْ أكونَ ناقلة الأخبار السيئة..

لم تحبي؟! أم ظننتِ أني سأنحاز لابني وابنة أخي؟! يا سارة ألا تعلمين أنَّك مسؤولة مني؟؟ إنَّك ابنتي بقدر ما هو ابني؟؟

طأطأت رأسها وقالت:

بلى، أعلمُ هذا جيدًا يا عمِّي، لكنني كنتُ يائسةً، منهارةً من الداخل وأنا أرى تلك البداية السيئة، لا ألوم عبير فلا أحد يتوقع منها الرضوخ والاستسلام فهذه حياتِها ومن حقِّها أنْ تدافع عنها بكلِّ مكر النساء، لكنِّي ألومُ هشام الذي وضَعني في هذا الموقف، ألوم التوقيت، فقد بدأت المعركة مبكرًا وأخذتني على

حين غرة وسحقت كرامتي على الأرض أمام نظري وأنظار الجميع...

أجلسها جواره وهو يقول:

يا عزيزتي لا تقولي هذا، ستكون الأمور بخير، ماذا قررتِ؟؟

لا أعرف بعد.. كلُّ ما يشغل تفكيري الآن هو إبعاد أحداث الأمس عن مخيلتي..

حسنا سأخبركِ ما سيساعدك على التفكير، أيًّا كان قرارك فأنا معك، إنْ قررتِ المضي قدمًا فأنا معك، وإنْ قررتِ الانفصال فأنا معك أيضًا..

الانفصال؟؟ إنَّ أمي ستجنُّ و...

قاطعها:

اهتمِّي لأمرك وأنا سأهتمُّ لأمرِ أمَّك، لكنِّي أعرفُ أنْ ابنتي الحلوة لن تدع امرأة تهزمُها بسهولة..

آه، يا عمي لستُ شريرةً لهذه الدرجة..

لكنكِ تكرهين أن تكوني طيبةً لهذه الدرجة وتتركيه لها هكذا دون قتال..

الأمر معقدٌ هذه المرة، معقدٌ جدًا..

حسنًا، خذي وقتَك في التفكير وثقي أنني معك..

****

في المساءِ ذهبتا لزيارة حنين التي لم يسمح لها والدها بالخروج. أدخلتْهما إلى غرفتها..

فسألتها سارة: ما حدث؟ يبدو المنزل مشحونًا بالتوتر..

ردَّت حنين بمرحٍ مصطنع:

إنَّها بركات زواجك الميمون...

قالت سارة في ذهول: ماذا؟

أكملت حنين:

كالعادة ما أن تتزوج إحدى صديقاتي أو قريباتي حتى تقومَ القيامة في بيتنا وتُعاد ذات الأسطوانة المشروخة حول عدم زواجي وكأنَّ الأمر بيدي.

قالت جوانا مواسية وهي تحسُّ الألم في صوتِها:

اه، لا تحزني إنها مشيئة الله...

لا حزن اليوم .. نحن هنا للاحتفال بزواج سارة ولن يفسد هذا شيء .. انتظرا لحظة

خرجت من الغرفة فقالت سارة:

يا للمسكينة..

قالت جوانا مغيرةً الموضوع:

بالمناسبة ماهر يرسل تحياته وتهانيه الحارة..

ردت سارة متشككة:

ماهر؟ شكرا له، أواثقة أنَّك ستكونين سعيدة معه؟؟

همست جوانا بهيام:

مؤكد فماهر في غاية الطيبة..

عبست سارة قائلة:

وهذه هي المشكلة..

دخلت حنينُ حاملة قالب كعك كُتب عليه "سعيدة دائمًا يا سارة" ابتهجت سارةُ كثيرًا لهذه اللفتة من صديقتها وقالت بسعادة:

مؤكد لا قيمة للحياة من دون صداقتكما، أنا شاكرة لكما

قالت جوانا:

وأنا أيضًا سأكون شاكرة جدًّا لو أخبرتنا بما حدث..

شرعت سارة تروي لهما ما حدث بالتفضيل الممل بين شهقات التعجب وصيحات الاستنكار وهي تحسُّ أنها تفرِّغ كلَّ الألم الذي بداخلها وأنها الآن ترى الأمور بوضوح أكبر.

قالت حنين بتأثر: لابدَّ أنَّك قضيت الليلة باكية، لمَ لمْ تتصلي بنا؟

لأني كنت نائمة فمنذ وفاة أبي لم يعد ثمة ما يبكني، مرة واحدة بكيت بعده وما زلتُ نادمة على بكائي إلى الآن..

أشاحت جوانا ببصرها عنها في حين قالت حنين: ماذا قررتِ؟

سارعت جوانا تقول:

بالتأكيد الانفصال فلن تسمح له بامتهان كرامتها أكثر مما فعل..

نظرت حنين إليها متسائلة:

هل ستفعلين هذا؟ هل ستتنازلين بكلِّ بساطةٍ عن حقك في حياة زوجية؟

قالت سارة: آه، الزواج ليس كلَّ شيء..

ردَّت حنين: لا، بل هو كلُّ شيء في مجتمعٍ شرقيٍّ مثل مجتمعنا..

جوانا: ماذا لو طلقها؟ مطلقة أو عانس، لا أرى فرقًا

حنين: على الأقل حظيت بفرصتها، وربما يمنحها طفلًا أو اثنين مما يجعل للحياة معنى

جوانا: لكن هذا ليس عدلًا..

حنين: يا عزيزتي الحياةُ قلَّما تكون عادلة، المعادلة هنا تزوجي أو تخسرين كلَّ شيء .. كل حقوقك، لا متعة، لا مرح، لا صديقات، لا حياة اجتماعية، لا.. ولا .. ولا .. إلى ما لا نهاية..

جوانا: حمدًا لله أنني مخطوبةٌ إذًا.

حنين: اسمعي يا سارة هذه فرصةٌ يجبُ أن تحسني استغلالها..

سارة: حسنًا، كلُّ هذا لم أفكِّر به مازالت الأمور مشوَّشة، الآن فقط بدأتُ أرى الأمور بوضوحٍ وسآخذ كلامك بالاعتبار، لكنْ كلُّ ما أريده الآن أن نغلق الموضوع فما خرجت إلا لأنسى وغدًا يومٌ جديدٌ..

أمضت الثلاثُ صديقات وقتًا ممتعًا إلى أن حان وقت العودة إلى المنزل

****

فور أنْ وصلت سارة إلى المنزل بادرتها أمُّها:

أين كنتِ كلَّ هذا الوقت؟؟

نظرت إلى أمِّها مستغربة وقالت: ما سرُّ هذا الاهتمام المفاجئ؟؟

ردَّت الأمُّ دونما اهتمامٍ: اذهبي إلى مكتب عمك..

بمجردْ أن دخلتْ عرفتْ السرَّ فقد كان هشام هناك فقالت بابتسامةٍ عذبةٍ: مرحبًا عمي، سمعت أنَّك افتقدتني؟!!

ابتسمَ العمُّ عندما رأى روحَها المعنوية مرتفعة، قال هشام: أين كنتِ كلَّ هذا الوقت وهاتفك مغلق؟

فتحتْ حقيبةَ يدها والتقطْت هاتَفها قائلة: يبدو أنَّ البطارية نفدت، ثمَّ لماذا تسأل؟؟

دهش من جرأتها فقال: لا شيء فقط قلقنا عليك..

ابتسمتْ بسخريةٍ وقالت:

أظنني كبيرة بما يكفي كي لا تقلقوا عليَّ بهذه الصورة لمجرد أنِّي غبتُ لساعات، آه .. أم أنَّك ظننتَ أنِّي قد أفعل بنفسي شيئًا أحمقَ كالانتحار مثلًا مما فعلته بي البارحة؟؟

زفر هشام في ضيقٍ وقال:

هذه ليستْ تَصرفات عروس بعد يوم من عقد قرانها..

اشتعلتْ التسليةُ في روحِها فقالت مبتسمة: وهل إحضارك عبير البارحة كانَ تصرُّفَ عريسٍ في يومِ عقد قرانه؟ أمَّا أنَّها رغبات الزوجة العتيدة..

على الأقل عبير زوجة حقيقية، لم تقف تجادلني في أول أيام عرسها..

هتف الأب: هشام؟

نظرت إليه للحظة قبل أن تقول:

هذا لا ينفي أنَّها الآن مملةٌ، ولم تعد ترضي رغباتك وتحتويك بما يكفي لتبعدَ تفكيرك عن الأخريات...

قال مدافعًا: إنَّها أفضل زوجة.

إذا لماذا تزوجتني؟؟ أم أنَّ ما يقال عن أعين الرجال الفارغة صحيحٌ؟

ظلَّ ينظرُ إليها والشرر يتطايرُ من عينيه دون أن يحري جوابًا ففي الحالتين هو مدان

فاستدارت إلى عمِّها في لامبالاة تجاذبْه أطراف الحديث فسمعتْ هشامُ يقول:

لا أصدِّق أنَّني كنتُ بهذا الغباء فألقيتُ نفسي في هذه التهلكة!

استقامتْ تواجهُهُ ضاحكةً بسخريةٍ قائلةً:

المفترض أن أثور الآن وأطلب الطلاق لتعودَ سعيدًا إلى الزوجة الحبيبة أليس كذلك؟؟ لكن لا تحلم بذلك، صحيح أنَّ الأمر بدأ باختيارك، لكن النهاية ليست كذلك، لذا سنعرف معًا معنى تلك التهلكة...

فغر هشام فمه ذهولًا فتدخَّل الأب قائلًا:

اهدئي يا سارة فقد جاء هشام للاعتذار عمَّا حدث أمس

أظنُّه قال ما يكفي للدمار بل الاعتذار، عن إذنك يا عمي واستدارت مغادرة..

قال الأب:

لابأس يا بني تحتاج لوقتٍ فما حدث ليس بالأمر اليسير..

تنحنح هشام قائلًا في حرجٍ: أه، كنت أفكر....

قاطعه الأب: إياك أن تكمل، فأنا لن أسمح بهذا الهراء الذي تفكِّر به، هل تفهم؟؟

أبي، افهمني هذا الزواج خطأ منذ البداية فلماذا أستمر؟

ستستمر لأنّي لن أسمح لك بالتلاعب بهذه الفتاة مهما كانت المبررات، ستستمر؛ لأني حذرتك سابقًا لكنَّك كنت مصرًّا، فاشرب إذًا، الآن الخيار بيدها..

قال بغضب:

لكن هذا ليس عدلًا..

ردَّ الأب بجفاء:

لا يهمُّ، المهمُ أن تتحقق عدالتي الخاصة..

استدار هشام وخرج غَضِبًا

****

أعادت سارةُ تشغيلَ هاتِفَها النقال لتفاجأ بعددٍ هائلٍ من الاتصالات من قريباتها ومعارفها متأكدة أنَّ بعضهن اتَّصل شفقةً بها والبعض شماتةً وثلة حبًّا وصدقًا. اتَّصلت بجوانا داعية الله ألا يجيب طارق ولحسن الحظ أجابت هي فقالت سارة مباشرة:

لقد ضربت بكلام حنين عرض الحائط ما أن رأيته حتى تصادمنا، يا له من مستفزٍّ.

جوانا: اهدئي وأخبريني ما الذي حدث؟

روت سارة ما حدث وختمتْ حديثهَا قائلة:

يبدو أنني سأسلك الطريقَ الأقصرَ وأنفصلُ ولكن بعد أن أذلَّه قليلًا..

النذل، كيف استطاع أنْ يكون بهذه الوقاحة؟ صحيح أنَّ كلام حنين منطقيٌّ وجميلٌ لكن على أرض الواقع فالمسألة.....

لحظة سارة

سمعت سارة حوارًا بين جوانا وأحدهم دون أن تدرك فحواه فعلى ما يبدو أنَّ جوانا تضع يدها على سماعة الهاتف وبعد لحظات قالت جوانا:

سارة يريد طارق التحدث إليك

وقبل أن تجيب أخذ طارق السماعة قائلًا:

مساء الخير

لم تستطع أن تجيب فأكمل:

لم أقصد التنصت، أردت الاتِّصال بأحد الأصدقاء فسمعت حديثكما مصادفة. ما هذه الروح الانهزامية يا سارة؟ أين ذهبت روحك القتالية؟ لم أعهدك هكذا أبدًا....

كان جرحها منه ما يزال نديا فأحسَّت وكأنه يضغط على الجرح بقوة وعناد فصرخت لا شعوريًا:

-وما دخلك أنت؟؟ بأيِّ حقٍّ تتدخل في حياتي؟؟؟ وتسأل عن روحي القتالية؟؟ روحي التي أحرقتها بيديك ونثرت رمادها في وجهي، تأتي الآن لتسأل عنها حقيقة أنت أحقر مما تصورت..

ابتلع الإهانة في صمتٍ وقال بعد لحظات:

أعرف أنَّه لا يحقُّ لي الخوض في هذا الحديث لكنِّي أريد لك الأفضل يا حب...

صرخت فيه: طارق حبًّا في الله لا تنكأ الجرح، لا تكن أنت والزمن ضدي فهذا أكثر من احتمالي..

حسنًا، أنا حقًّا آسف، لكنِّي أسالك بحقِّ الحبِّ الذي كان بيننا أن تسمعينني فقط..

ضحكتْ في سخرية مريرة وهي تقول:

وهل شفعَ لي هذا الحب حين أذللتني ليشفعَ لك الآن، إنْ كنتُ سأستمع لكلام فمؤكد ليس لكلامك...

أرجوك يا سارة لا تجعلي ما حدث بيننا يدمر فرصتك في الحياة، أنا أتحدث معك لأنَّ حبِّي لك خالٍ من الأنانية لذا أريد لك السعادة من كلِّ قلبي...

وأيُّ سعادةٍ لي مع شخصٍ يبدو نادمًا على ارتباطه بي أصلًا؟!

فليكن هو نادمٌ الآن للارتباط بك، دعيه يندم ألفَ مرَّةٍ عندما يفكِّر في الانفصال عنك

لن يندم فلديه زوجته الحبيبة..

أنتَ أيضًا كوني زوجته الحبيبة، علِّميه معنى الحبِّ من جديد، علِّميه كيف ينسى العالم ولا يفكر إلا بك، أعرف أنَّك تستطيعين، علميه كمَا علمتني، كنتِ ساحرةً يا سارة

سلبتني عقلي، زلزلتِ كياني...

هزتْها لهجتُه الحارّة فتصاعد الألم في صدرِها وهي تتذكرُ ما حدث فقالت في غضبٍ:

وأنت ماذا فعلت؟ زلزلت الأرض تحت قدمي، أنت ذبحتني من الوريد إلى الوريد.. أنت.....

أمسكت نفسها عن الإكمال وإذلال نفسَها له أكثر مما حدث..

فقال بصوتٍ متحشرجٍ:

هذا تفكيرٌ سلبيٌّ يا سارة اتركي الماضي وركِّزي على الأمور الإيجابية، ركِّزي على حياتك الجديدة. وثقي أنني وجوانا وحنين معك وسنساندك...

ذهلت كيف غيَّر الموضوع وكأنَّها تتكلم عن شخص آخر فقالت بغلٍّ:

إن كنتُ سأسلك هذا الطريق فسأسلكه فقط لأنَّه يبعدني عنك وعن التفكير بك، وحتى هذا كثيرٌ على حقيرٍ مثلك ووضعت السماعة.

بقي طارق ممسكًا بالسماعةِ ينظرُ إليها والعبرات تلمع في مقلتيه نظرت إليه أخته وقالت بتحسّرٍ:

"بيدك لا بيد عمرو"، لن تشفي منها أبدًا

****

بعد أنْ أعلنت سارة رفضَها التام لموضوع ارتباطِها بهشام وتجاوزت غضب أمها واستيائها الأمر الذي اعتادت عليه، تفاجأت باتِّصال هشام على هاتفها النَّقال في إحدى الأمسيات فسألتْه: ماذا تريد؟

أريد التحدث معك فقط..

فيما سنتحدث؟؟ لقد أوضحتُ رأيي فماذا بعد؟

هذا بالضبط ما سنتحدث عنه، لماذا ترفضين؟ هل فكرة الارتباط بي بشعة إلى هذا الحدِّ

ليس الأمر كذلك، هل لي أن أسالك سؤالًا؟

بكلِّ سرورٍ، إن كان سيوصلنا إلى نقطة اتِّفاق..

لماذا أنا بالذات؟

ولماذا ليس أنت؟

أعني لستُ ذاتَ جمالٍ أخَّاذٍ، أو جسدٍ مثيرٍ، أو غنجٍ ودلالٍ، إنسانة عادية بل وأميل إلى الجديِّة..

هذا بالضبط ما أبحثُ عنه إنسانة عاديّة، فعبير تملك كلَّ تلك المزايا ومع ذلك لم تمنحني السعادة التي أنْشدُها...

أحسَّت في كلامه طعنًا لأنوثتها لكنها تجاهلت ذلك وقالت:

وكيف سأمنحك أنا سعادتك المنشودة؟!

بالصداقة الهادئة اللطيفة، بالاحتواء الحنون، بالمشاركة الحقيقية، بالاهتمام بصغائر الأمور لكلينا سيكون مختلفًا مليئًا بالعواطف، لا أقصدُ العواطف الحميمة، إنَّما العواطف الصادقة المتبادلة بين صديقين...

تساءلت سارة في سرَّها:

ولمَ أجرب هذا ولدي ما هو أفضل؟

وقالت له: هذا عنك ماذا عني أنا؟!

ستكون حقوقك محفوظة، بيت الزوجية وكامل الحقوق الزوجية، وسيكون لك أطفالٌ، أليس هذا ما تريده كلُّ أنثى؟

ربما، ولكن ليس هذا ما أريده أنا، أريدُ حياةً قائمةً على الحبِّ مليئةً بتلك العواطف الحميمة، لقد انتظرتُ طويلًا لأتزوجَ فكيف أتزوج دون مستوى الحلم؟

من يدري ربما تتحول تلك الصداقة إلى حبٍّ، لكن صدِّقيني يا سارة الأساس الذي أعرضه عليك أقوى بكثير من الهراء الذي يملأ رأسك..

هراء؟ حسنًا أنا أفضِّل هرائي على عقلانيتك..

هذا يخالفُ ما سمعته عنك وعن رجاحة عقلك، اسمعي عرضي ما زال قائمًا تزوجيني ولن تندمي...

ما الذي يجعلُك متأكدًا أنِّي لن أندم؟

إننا نملكُ ميزةَ مشتركة، لا شيء يوقفنا إذا صمَّمنا على شيءٍ ما، إذا تزوَّجنا سيبذل كلانا قصارى جهده لإنجاح هذه الزيجة...

هشام تصبح على خير..

ضحك وقال: تصبحين على خير ولكن للحديث بقيَّة..

وضعتِ الهاتف من يدِها ليعاودَ الزنين مجددًا. خَطَرَ لها أنَّ هشام يريدُ المحاولةَ مرة أخرى فهمَّتْ بتجاهلِه، لكنْ في اللحظةِ الأخيرِ لمحتْ اسمَ جوانا على شاشةِ الهاتفِ فردَّت بسرعةٍ لتقول جوانا:

أهلًا سارة، ما رأيك في الخروج معنا للعشاء؟

ردَّت سارة:

لستُ بمزاجٍ مناسبٍ للخروج إلى أيِّ مكان...

قالت جوانا بخبثٍ:

وماذا لو عملتِ أنَّ الدعوة ليست مني؟

ردت:

أخبريني عن اسم المطعم وسأكون هناك بعد نصف ساعة على الأكثر..

وبالفعل بعد نصف ساعة كانت في المطعم لتجدَ جوانا جالسةً مع خطيبها دون أثرٍ لشخصٍ آخرٍ فسألت مباشرة:

أين هو؟ أين طارق؟

ضحك ماهر وقال:

على الأقل ألقي التحيَّة...

ردَّت سارة:

مساء الخير، أقسم أنْ أقتلك لو كان الأمر مقلبًا من مقالبك السخيفة..

قبل أن تجيب جوانا حطَّت يدَ طارق وهو يقول: لن تحتاجي إلى قتله هأنذا يا حلوتي.

تضرج وجهُها بحمرةِ الخجل فأحاطَ كتفَها بذراعه وقال موجِّهًا حديثه لماهر وجوانا:

سنبحث لنا عن طاولة أخرى؛ لنمنحكما بعض الحرية..

ردَّ ماهرٌ: لنا أمْ لكما؟

جلسا على طاولةٍ قريبةٍ فقال طارق بعد أنْ طلب القهوة:

اشتقتُ إليك...

ابتسمتْ قائلة:

ليس بمقدار اشتياقي لك...

ظلَّ ينظرُ إليها دون أن ينبس ببنت شفة فقالت:

ما سر هذه النظرات؟

اتَّسعت ابتسامتُه وقال:

أحبُّ أن أنظر إليكِ، وأنْ أتأملَ التَّفاصيل الدقيقة في وجهك، أحبُّ أن تنطبع صورتك في قلبي وعقلي إلى الأبد.

أحسَّت بالسعادة تسري في شراييِنها فقالت تداري خجلها:

ما مناسبة الدعوة؟

مدَّ يديه واحتضنَ يديها وقال بحنوٍ:

فقط اشتقتُ إليك.

قطع النادلُ حديثهما قائلًا:

هل أنتما مستعدان للطلب؟

وبينما كان طارقُ يملي النادل طلبهما رنَّ هاتفها النَّقال فأخرجتْه من الحقيبة ووضعتْه على الطاولة دون أن تجيبَ وبعد أن انتهي سألها ببساطة:

من المتصل؟

ردت: إنَّه هشام يحاول إقناعي بالزواج، وسردتْ له ما دار في ما دار في محادثتها مع هشام فصمت طارق فترة حتى ظننت أنَّه غضب لأنها تحدثت مع هشام، لكنه فجأة استرخى في جلسته وارتسمتْ ابتسامةٌ على شفته وسألها:

قولي لِمَ ترفضين الارتباط به؟

فغرت فمها دهشة من سؤاله قبل أن تغلقه وتقول وهي تنظر إليه بطرفِ عينها وبابتسامةٍ حلوة:

هل أنا بحاجة للإجابة على هذا السؤال؟ ألا تنبئك غرائزك بشيء ما؟

قال وقد زالت ابتسامته: بلى، لكني أريد أن أعرف حقًّا

أحسَّت من نبرته بشيءٍ مختلفٍ فقالت:

لا يمكن أنْ تكون جادًّا في سؤالك يا طارق؟

بدت عليه علامات التفكير الجاد للحظات قبل أنْ يقول بتهكُّمٍ غير مألوف: آه، يا سارة لا يمكن أن تكون لديك بعض الأفكار الغبية حول علاقتنا كالارتباط مثلًا؟؟

ذهلت لكنَّها قالت وقد ضاقت عيناها:

أفكار غبية؟ إذًا إلى أين تسير بنا هذه العلاقة؟ ظننتُ أنَّ ارتباطنا مسألةُ وقتٍ فقط؟؟

ضاقت عيناه بشدة وهو يقول:

مسألة وقت؟ سارة ألم تلاحظي الاختلاف العرقي بيننا؟ هذا لن ينجح أبدًا مهما حاولنا؟ ثمَّ ألم تلاحظي أنك تكبرينني بخمسِ سنوات على الأقل؟ ظننت أنَّ لكِ من العقل ما يكفي لتدركي هذه الأمور يا سارة، أم أنكِ لم تعتادي استخدام ذلك الجزء الذي يعلو مؤخرتك بثلاثة أقدام؟

شعرت بالعارِ والذلِّ يغمرانها وقد شلَّت الصدمة لسانَها وأقعدتها عن الحركة. أرادت أنْ تقول شيئًا، أن تحفظَ كرامتها المتبقية وتغادر، لكن استحال عليها وبقيت تحدق فيه كالبلهاء حتى وصل النادلُ ووضع الأطباق أمامهما، هنا تحررت أطرافها فقامت من مكانِها لكنَّ طارق أمسك يدها قائلًا:

إلى أين؟

نظرت إليه وودت لو تصفعه، لو تصرخ في وجهه لكن كلَّ ما استطاعت فعله هو سحب يدها والإسراع إلى الخارج. وفي الخارج وقفت تبحثُ عن سيارة أجرة تقلها إلى المنزل فسمعت صوت طارق من خلفها يقول:

اسمعي يا سارة آسف لما قلتُه لم أقصد أنْ آذي مشاعرك...

ضغطت على أسنانها وقالت بغلٍّ:

لم يحدث شيء فقط أعدتني إلى حجمي الطبيعي

أمسك بيدها واحتضنها بقوة وقال:

حقًّا لم أقصد، كان مجردَ كلامٍ..

مجرد كلام؟! كانت كلماتك من القوة بحيث لا يمكن أن....

وضع يده على فمها ليمنعَها من الإكمال ثمَّ قال: كنت أمزح، أردتُ أن أرى ردةَ فعلك

اتَّسعت عيناها في دهشةٍ مرددة: ماذا ؟؟ كنت تمزح؟؟؟ أنت أكثر الرجال الذين عرفتهم فظاظة، لن أسامحك على هذه المزحة أبدًا..

آسف حبيبتي، هيَّا عودي إلى الداخل..

لستُ في حالةٍ تسمح لي بذلك، أرجوك خذني إلى المنزل ..

حسنًا، سآتي بالسيارة

حاولت إقناع نفسها طوال الأيام التالية أنَّ طارقًا كان يمزح لكن جزءًا ما في داخلها ظلَّ يرفض تصديق ذلك رغم أنَّ الأمور عادت بينهما إلى طبيعتها..

****

في إحدى الأمسيات ذهبت إلى منزلِ جوانا لمشاهدةِ فيلمٍ بدعوة منها وكان المنزلُ خاليًا من سواهما، سألتها جوانا:

ماذا حدث بينكما ذلك اليوم في المطعم؟

ردَّت: لا شيء، فقط سحابةٌ ومرَّت بسلام، هل قال لك شيئًا؟

بالطبع لم يقل شيئًا، فأنتِ الوحيدةُ القادرةُ على إخراج ما في نفسه، لكنَّني لاحظتُ أنَّه أصبح مختلفًا منذُ ذلك اليوم..

من جديد بدأت الهواجس تساورها فقالت محاولةً طردها:

أريد أن أدخل حجرته

هتفت جوانا بذعر: ماذا؟؟

لم كلُّ هذه الدهشة ؟؟ إنها ليست المرة الأولى ثمَّ إنَّه لا أحد في المنزل...

ماذا تريدين بغرفة فارغة؟ إنَّك مجنونة

أريد أن أشمَّ رائحته، أتحسس ملابسه، أرتبُ مكتبته على طريقتي..

قالت جوانا محاولة ثنيها عن عزمِها:

غرفتُه مرتبةٌ كما يجب، اجلسي ودعينا نكملُ الفيلم

شيء ما في لهجة جوانا أشعلَ عناد سارة فاستدارت خارجة من الغرفة وهي تقول:

لستُ بحاجة إلى مرافقتك..

نهضت جوانا بسرعة وقبل أن تلحقَ بها كانت قد وصلت إلى حجرتِه ويدها على يدِ الباب فصرخت جوانا:

بالله عليك لا تفتحي...

ولكن سبق السيف العدل، تجمَّدت مكانها طارق وفتاة قربه على الأريكة في وضعٍ حميمٍ، استقام طارق واقفًا وقد بدا عليه الهلع لكنَّه استعاد تماسكه بسرعة قبل أن يصرخَ في أخته:

جوانا، أيَّتُها الغبية..

أغمضت عينيها بقوة وهي تحسُّ وخز العبرات خلف جفونها، ربما كانت واهمة، ربما اختلط الأمر عليها، فتحتْ عينيها لكن

الحقيقةَ ماثلةٌ أمامها طارق والفتاة هنا لا مجال للبس. تقدَّمت نحوه متماسكة قدر المستطاع لكنَّه أشاح بوجهه عنها واتَّجه إلى النافذة متوترًا أمسكت بذراعه لكنَّه أبى مواجهتها فسألته:

من هذه يا طارق؟

سحب ذراعه من يدِها وهو يقول في حدةٍ: حبيبتي الجديدة...

وقع قوله عليها كالصاعقة ففغرت فاها مذهولة قبل أن تقول بانفعال:

أنت تكذب، لا يمكن أن تكون صادقًا، أنت تحبَّني، قلْ إنَّها نزوةٌ وسأصدِّقك وسأغفر لك..

سار مبتعدًا عنها، أدركتْ أنَّها تبكي عندما أحسَّت بطعمِ الدموع في فمِها لكنَّها لم تبالِ بل اتَّجهت إليه وهي تمسك بيده صارخة:

طارق كلِّمني، لا يمكن أن تدمِّر حبنا هكذا..

انتزع يده من يدِها بقسوةٍ وقال بغلٍّ: أتكلم؟ ماذا أقول؟ أنتِ لا تسمعين إلا ما تريدين، تعرفين أننا غيرُ متناسبين، تعرفين أنَّ

لا مستقبل يجمعنا لكنَّك بقيت متشبثةً بي كغصن شوكٍ مغروس في قطن، ذلك اليوم في المطعم أخبرتك الحقيقة فصممت أذنيك عن سماعها، فقلتُ إنها مزحةٌ حتى لا أجرحك..

قالت والعبرات تسيلُ على خدِّها:

والآن، بفعلتك هذه ألن تجرح مشاعري؟ بالطبع لا فقط تحطَّم قلبي وتهتَّك وانهار، من بين كلِّ الناس الذين ظننتُ أن بإمكانهم إلحاق الأذى بي كنت أنت دونهم...

قال باستهتارٍ: بل أنا أحدهم، آن لك أن تفهمي...

ما الذي تحاول قوله بفعلتك هذه؟؟ إنَّك لم تعد تحبني، إنَّك تريدني خارج حياتك؟!! تعرف أنني لن أستمع لهذا الهراء، لن أجعل نزوة عابرة تدمر حبنا.

رمى السيجار من يده وسحقها بقدمِه بغلٍّ وقال بغضب:

نعم، لا أحبُّك، ولا أريدك في حياتي هل هذا صعبُ الفهم؟؟ أمسك بالفتاة ووضعها أمامها وأكمل: انظري، هذه من أحب،

وعندما أتزوج سأتزوج فتاة سمراء مثلي، فتاة أصغر مني، لا واحدة تصلح أن تكون مربيةً لي...

من الواضح أنَّ عقل سارة تعطل فقالت وهي تزيح الفتاة من أمامها وتقول بهلعٍ:

حسنًا، لن نتزوج ولكن لا تنبذني من حياتك، طارق لا أستطيع مجرد التصور أنْ أحيا من دون حبك، أتوسل إليك..

تشبثت ببدلته وأكملت:

بحقِّ الله أيعقل أنْ تنسف كلَّ ما بيننا في لحظة..

أمسك بيديها محاولًا إبعادها وهو يقول: اتركيني، ابتعدي عني..

أحسَّت في صوته ضعفًا فقالت بإصرار: ليس قبل أن تعود طارق الذي أعرفه وأعرف أنه يحبُّني

وضع يديه على كتفيها ودفعها بقوة ألقتها أرضًا وأولاها ظهره وهو يراها تبكي بحرقةٍ بالغة وقال باحتقارٍ بالغٍ:

أبدًا لم أظن أنَّك معدومةُ الكرامة وبلا كبرياء إلى هذا الحدِّ، كيف ستحترمين ذاتك وأنت تذلِّين نفسك هكذا لرجلٍ لا يريدك ولا يحترمك.

من بين كلِّ ما قاله كان هذا الأكثر إيلامًا، ظلَّت جالسةً مكانها تنظر إلى ظهره والعبرات لا تتوقف حتى أحسَّت بيدٍ تربت على كتفها فالتفتت لتجد جوانا تمدُّ لها يد المساعدة لتقف لكنَّها تجاهلتها ووقفت قائلة بين دموعها وشهقاتها:

إن كان حبي لك غلطة لتمرِّغ كرامتي ووجهي في التراب لأجله فقد ارتكبت غلطة عمري ونلت ما أستحقُّ، لكني لن أسامحك أبدًا على نبذك لي بهذه الحقارة، وسأدعو الله ليل نهار أن يوقع في طريقك فتاةً مجردةً من الأخلاق وتحبُّها حتى الإذلال لتذلك وتحرق قلبك كما أحرقت قلبي، بل وتذر الرماد أمام عينيك..

قهقه بسخرية وقال:

حسنًا، أعدك متى حصل هذا أن آتيك بحفنة من الرماد للذكرى..

نظرت سارة إلى الفتاة التي لم تنبس ببنت شفة وسط هذا الصراع وقالت لها:

هنيئًا لكِ هذا النذل

وخرجت من الغرفة وكأن شياطين الأرض تطاردها وتبعتها جوانا..

تنهدت الفتاة وقالت بألمٍ حقيقيٍّ:

يا إلهي أعرف رجالًا مستعدين لتقديم أذرعهم اليمنى مقابل نصف هذا الحب، وأنت تنبذه هكذا بكلِّ بساطة...

اتَّجهت فور وصولها إلى غرفتها لتلقي فوقها الأغطية السميكة فقد كانت تحسُّ ببرودة فظيعة ورغم ذلك ظلت ترتجفُ وصورةُ طارق وهو يدفعها والاحتقار على وجهه عالقة في ذهنها, كلما حاولت إبعاد صورة توالت الصور أمامها وازدادت دموعها غزارة. ومع انبلاج الفجر كان البكاء قد هدَّ منها القوى لكنها تحاملت على نفسها ونهضت من سريرها بأطرافٍ مرتجفةٍ وبعد صلاة الفجر ارتدت كنزة سميكة ونزلت إلى مكتب عمِّها

آدم فوجدته جالسًا على السجادة يقرأ القرآن فجلست خلفه فلما انتهى استدار إليها مبتسمًا وقال:

صباح الخير يا بنيتي بكَّرتِ اليوم في النزول....

سكت وهو ينظر إلى وجهها المتورم وجفونها المنتفخة وأكمل: ما بكِ؟ هل أنت مريضة؟

ردت بسرعة قبل أن تخونها شجاعتها: لا، لستُ كذلك، عمّي هل ما زال هشام راغبًا في الزواج بي..

نظر العمُّ إليها مستغربًا وقال: لقد تحدَّث إليَّ قبل يومين أو ثلاثة، لماذا تسألين؟

رفعتْ وجهها محاولةً منعَ دموعها من التساقط وقالت بتماسكٍ: كنتُ أريد أن أقول: أنا موافقة إن كان ما يزال راغبًا...

بهتَ العمُّ من تغير موقفها المفاجئ، وظلَّ ينظرُ إليها للحظات ثمَّ قال بابتسامةٍ مطمئنة:

تعالي يا عزيزتي وأخبري صديقك العجوز ما الذي حصل؟

جلست بجواره وقالت وهي تتحاشى النظر إليه مباشرة:

لا شيء فقط غيَّرتُ رأيي، هذا كلُّ شيء..

نظر إلى عينيها وقال: لمَ هذه الدموع إذًا؟ وماذا حلَّ بفتاكِ طارق؟؟

بمجرد أنْ سمعتْ اسمه عاد جسدها يرتجف مثل ورقة في مهبِّ الريح وأخذت تمسح دموعها المتساقطة بظاهر كفِّها دون أن تحري جوابا. مسد على رأسها بحنان وقال مشجِّعًا: أتظنين أني لا أعلم؟ من سيعلم أنَّ لم يعلم الأب أن فتاتَه عاشقةٌ حتى النخاع، هيا أخبريني فأنت بأمانٍ معي..

حطَّم اهتمامُه دفاعاتَها فسردت له ما حدث وملامحه تتغير بين الدهشة والغضب. ثمَّ قال:

هذا غريبٌ، لطالما كان شابًّا مهذبًا، ذا خلق.

تنهدت بألمٍ وقالت:

ولذلك أكاد أجنُّ ما الذي تغيَّر، أين أخطأتُ؟

قال مواسيًا: لم يكن الأمر لينجح بينكما، فتقارب الطباع بينكما كبير وكما تعلمين أنَّ الزواج يحتاج إلى شخصيتين مكملتين لبعضهما لا شخصيتين متقاربتين...

لكننا كنَّا ناجحين معًا لأكثر من عامين...

العلاقة شيء والزواج شيء آخر، ألهذا غيرتِ رأيك بشأن هشام؟؟

هشام شابٌّ ممتاز، وما كان يقف بيننا هو..... ، مجرد وهمٍ والآن زال...

حسنًا اذهبي إلى سريرك، وسنتحدث لاحقًا..

ارتَسم الفزع على وجهها وقالت بسرعة: كلَّا، لن أرتاح، ولن أنام قبل أنْ تتصل بهشام وتبلغه قراري، أرجوك يا عمِّي..

- هل أنتِ خائفة أن تغيري رأيك مرة أخرى؟

- بل خائفةٌ من أن تسيطر عليَّ الأحلام من جديدٍ فأستيقظُ نادمةً على قراري لأعودَ وأندم بعد سنوات على ندمي هذا..

هل أنتِ واثقةٌ من قرارك يا بنتي؟؟

تمام الثقة ولن أغير رأيي مهما حصل، الليلة الماضية عبرت الخط الفاصل بين ما هو حقيقي وما هو خيال, أرجوك يا عمي ساعدني لأخرج من هذه المحنة سالمة العقل

حسنًا، سأتَّصل به الآن.

رفع سماعة الهاتف وتحدث مع ابنه بعض الوقت قبل أن يعيد السماعة ويقول: مبارك سيكون عقد القران يوم الجمعة..

قالت بدهشة: أي بعد أربعة أيام، أليس الوقت مبكرًا؟؟

ربَّت على خدِّها قائلًا: كلَّا، يا إلهي إنَّك ساخنةٌ جدًا..

ضغط على جرسِ الخدمِ بإلحاح وعندما جاءت الخادمة قال لها:

خذي سارة إلى غرفتها واستدعي الطبيب..

أحدَثَ إعلان زواجهما ثورة عارمة في الأسرة بين مؤيدٍ ومعارضٍ ومن التزم الحياد، لذا سرَّتْ كثيرًا لقرار التعجيل

الذي اتَّخذه هشام الأمر الذي لن يسمح لشيء بتغيير مجرى الأحداث وهذا ما حدث ووضع الجميع أمام الأمر الواقع...

وقبل يوم من عقد القران جاءت حنين وجوانا في البداية شعرتْ بالانزعاج من وجود جوانا لكنَّها عادتْ وفكَّرتْ ما ذنبُ جوانا إن كان أخوها نذلًا وحقيرًا إلى هذا الحدِّ. قاطع أفكارها صوتُ حنين وهي تقول:

عندما أخبرتُ جوانا أن عقد قرانك غدًا لم تصدق...

نظرت سارة إلى جوانا لأولِّ مرة منذ وصولهما قائلة:

هل ظننتِ أني سأبكي على الأطلال أمدًا طويلًا؟

ردَّت جوانا: لا، ولكنِّي لم أصدِّق أنَّ حبكما انتهى..

نهرتْها حنين: لا داعي لنبشِ الماضي..

جوانا: بلى، هناك داعٍ طارق لم ولن يحبُّ سواك، كان الأمر خدعة لدفعك للزواج من هشام..

مرَّت لحظات من الصمت قبل أن تقول سارة: أتظنين أنِّي لم أفكر في ذلك؟ لكن بأيِّ حقٍّ يلغي رأيًا ويتخذ قرار زواجي من هشام نيابة عني؟ على العموم لم يعد الكلام شيئًا إن كلامك أشبه بإلقاء طوق النجاة للغريق بعد وصوله إلى الشاطئ..

قالت جوانا: أنا الغبية ليتني ما أطعته...

قالت سارة: أنتِ صديقةُ الطفولة وستظلين هكذا إلى الأبد وجود طارق أو عدمه لن يغير هذه الحقيقية، إيَّاكما أنْ تتأخرا غدًا.

****

اتَّجهت سارة إلى مكتب عمِّها كعادتها كلَّ صباح وعندما دخلتْ ورآها مبتسمةً قال مازحًا:

أراكِ مبتهجة؟؟ يبدو أنَّ معركة الأمس قد رفعت من معنوياتك.

اتَّسعت ابتسامتها قائلة: معركة؟ كانت مجرد مناوشة بسيطة، ما زالت تنتظره معارك دامية..

يلوح لي أنَّك قررتِ الاستمرار فهل أنا محقٌّ؟

أومأت برأسها إيجابًا وقالت: أرجو أن تنقلَ له الخبر..

أمَعَن العمُّ النظرَ في وجهِها قبل أن يقولَ:

أمتأكدة أنَّكِ تفعلين هذا من أجلك؟ لا من أجلنا أنا وأمك؟

آه، يا عمِّي إن أمِّي لم تكلمني بتاتًا, إنَّها أحلامي ويجب أن أكونَ مخلصةً لأحلامي وأكافح من أجلها، حلم الزواج والأسرة، فالحياةُ مرَّةٌ واحدة لا توجد إعادة، ولا توجد بروفا ولا حتى فرصة ثانية، مرة واحدة فقط..

ربَّت على يدِها بلطفٍ قائلًا:

حسنًا يا صغيرتي، أتمنى لك التوفيق والسعادة، من كلِّ قلبي..

حسنًا، لقد ضاع ما يكفي من الوقت دعنا نبدأ بالقراءة..

****

في الطريقِ إلى العملِ قال زايد والد حنين لابنته: لقد تحدث معي حامد البارحة..

سألته بتوجس: وماذا يريد هذا الرجل هذه المرة؟؟؟

قال الأب بجدية: يريدك أنت بالطبع..

تعلم جيدًا أنني لا أريده..

ولماذا لا تريدينه؟؟

آه، أبي إنَّه إنسان أمِّيٌّ، متخلفٌ، ولسنا من ذات المستوى الفكري أو الاجتماعي

وأين هو ذلك الذي من مستواك؟ ها لن أحتمل هذا الهراء إلى الأبد، كلُّ صديقاتك وقريباتك تزوجن عداك، فهل تريدين البقاء عانسة في بيتي؟

أبي أنا في التاسعة والعشرين فقط..

في التاسعة والعشرين؟ هل تظنين أنَّك ما زلتِ صغيرة؟ أمك عندما كانت في مثل عمرك كانت قد أنجبتك وتطلَّقت وتزوجت مرة أخرى وأنجبت ثلاثة أبناء آخرين...

ربما لأنني ثمرةُ هذا الطلاق تحاول أنت وزوجتك التخلص مني و...

قبل أن تكملَ عبارتَها ارتطمَ ظاهر كفُّ أبيها بوجهها بقوة فشهقت ألمًا وقال الأب في غضب:

اخرجي يا فتاة قبل أن أرتكب فيكِ جريمة.

غادرتِ السيارة صافقةً الباب خلفها ودخلت إلى مقرِّ عملها وطلبت من عاملة المقهى أن تحضرَ لها بعض الثلج لتضعه على موضع اللطمة التي سرعان ما تورمت. دخلت سارة فلاحظت الاحمرار على وجهها فسألت:

ما الذي أصابك؟

لا شيء، درسٌ بسيطٌ كي أتعلَّم ضبط لساني..

إذًا هو أبوك مرة أخرى..

ربَّتت على كتفِها مواسية وقبل أن تسأل عن السبب دخلت جوانا في عاصفة من المرح قائلة:

لن تصدقوا ما حدث

سألت حنين: ماذا ؟

زفافي سيكون بعد أسبوعين

قالت سارة:

مبارك يا عروستنا، مع أني كنت أتمنى أن أسبقك، فأنتِ الصغرى بيننا..

لستُ صغيرةً، إنني في السابعة والعشرين

وأنا في الحادية والثلاثين..

قاطعتهما حنين وهي تنظر إلى سارة:

انتظرا، هذا يعني أنك قررتِ الاستمرار؟

ابتسمت سارة وقالت: ولن يردعني شيء عن ذلك..

ثمَّ وجهت اهتمامها لجوانا قائلة: أليس بعد أسبوعين موعدًا مبكرًا بعض الشيء؟؟

لو عاد الأمر لماهر لكان زفافنا غدًا..

قبَّلتها حنين وقالت: تهانيَّ لك..

ردَّت جوانا: العقبى لك

قالت سارة: الأفضل أن تسرعي إلى مكتبك فقد رأيت المديرة تتجه إلى هناك..

صرخت جوانا: يا ويلي، ستكون نهايتي

أسرعت إلى مكتبها وانصرفت سارة وحنين إلى عملهما وفي نهاية ساعات العمل سألت سارة حنين وهما في طريقهما إلى الخارج: آسفة، لم أسالك عن سببِ ما حدث صباحًا، فقد فجَّرت جوانا قنبلة زواجها، فهل لي أن أسال؟؟

ذلك الحقير حامد عاد وفاتح أبي في موضوعي مجددًا..

آه، ألا يملُّ هذا الرجل؟ كم سنة وهو يطاردك 4 أو5 سنوات..

خمس سنوات، ماذا يريد مني ولديه زوجة وأطفال، ولماذا أنا بالذات؟!

اسمعي يا حنين لا أقصد الإهانة، ربما سمع والدك يتحدث عن رغبته في تزويجك أو ربما أعطاه والدك بارقة أمل..

بل أظنُّها مسألةَ كبرياء أجوف، من أنا حتى أرفضه؟ آه، لقد تأخرت لابدَّ أنَّ مازن ينتظرني منذ زمن..

وأنا أيضًا السائق ينتظرني، ضعي الكثير من الثلج فلا نريد أن تكون في وجهك كدمات في زواج جوانا..

ضحكت قائلة: زواجها بعد أسبوعين وليس يومين، إلى اللقاء..

في طريقها إلى المنزل فكَّرت سارة لأول مرة كيف سيكون وقع الأمر على هشام؟ هل سيسرُّه الأمر؟ أم سيحزنه؟ ليتها ترى وجهَ عبير حين تعلم أنَّ كلَّ التمثيلية السخيفة التي أخرجتها يوم عقد القران لم تجدي شيئًا في إحباطها وتقويض عزيمتها. وعندما ترجَّلت من السيارة وجدت سيارة هشام في باحة الفيلا فتوجَّس قلبها خيفةً فليس من عادتِه الحضور في هذا الوقت أسرعت تدخل القصر فتناهى إلى سمعِها صوتُ هشام وعمها آدم يتجادلان. اقتربت أكثر من حجرةِ المكتب فسمعت هشام يقول:

أبي، أنا ابنك وعبير ابنة أخيك فكيف تنحاز لتلك العانسة اللعينة التي تأويها في بيتك ضدنا؟

عضَّت سارة نواجذها من الغيظ قائلة: أيُّها اللعين أهذا رأيك بي؟؟

ثمَّ سمعت عمَّها يقول:

وماذا عن ظلمِ تلك الفتاة المسكينة التي لا ذنب لها سوى أنَّها وثقت بك ولن أسمح لك بخذلانها..

ازداد صوت هشام حدة وهو يقول: أبي إنَّك تدمِّر حياتي وحياة ابنة أخيك..

ماذا عن تدمير حياة تلك المسكينة وتدمير سمعتها؟ ثمَّ لمَ لمْ تفكِّر في ذلك قبل الآن؟؟

عبير ستطلب الطلاق

يا غبي إنَّها تلوي ذراعك فقط، ثمَّ أين كانت عبير وأنت تخطب سارة وتلحُّ وتصرُّ وتفعل المستحيل لتقبل سارة بك أتذكر حينها نصحتك فلم تنتصح، وحذرتك فلم تلقِ بالًا لتحذيري

أتذكر حينها أقسمت لك أنني أنا من سيقف لك إن حاولت إيذائها أو التلاعب بها ... وهأنذا أبرُّ بقسمي..

قال هشام: آسف يا أبي لن أستطيع أن أطيعك فيما تريد.

سمعت خطوات هشام فهمَّت بالمغادرة لكنَّها عادت فسمعت صوت عمِّها يهدِّر بغضبٍ: هشام

توقفت الخطوات فتابع الأب:

إن خرجتَ فبل أن آذن لك فإن عليك غضبي ولعنتي إلى يوم الدين..

تجمَّد هشام في مكانه وقال بذهول:

لعنتك وغضبك من أجل تلك الفتاة، يبدو أنها أثَّرت عليك بحنانها وطبيتها الزائفة، ألا يكفي ما تأخذه من مالٍ لتستولي على قلبك ومشاعرك بهذه الصورة؟!

ضرب الأبُ سطح المكتب قائلًا:

إنها لم تأخذ شيئًا من مالي بعد، لكن إن خرجت من هذه الحجرة من غير إذني فإنَّها ستأخذ الكثير فأولُّ شخص سيدخل الحجرة بعدك هو عمر المحامي لأجرِّدك من كلِّ حقوقك وأمنحها بطيب خاطرٍ لسارة..

تهالك هشام فوق أقرب معقد وقد اتَّسعت عيناه ذعرًا ودام الصمتُ للحظات، أعاد فيها هشام تقييم الموقف من جديدٍ قبل أنْ يرفع رأسه وينظر إلى أبيه في خنوعٍ قائلًا:

وما المطلوب مني الآن؟

ابتسم الأب قبل أنْ يقول في حزمٍ:

ابدأ في تجهيز شقة في عمارة الضاحية الجنوبية فالزفاف بعد شهر.

ردَّ هشام: حاضر، هل من أوامر أخرى؟

لا شيء سوى الأفضل ل "سارة"، أفضل معاملة، أفضل الكلمات، أَلَا فأنت ما زلت تحت الاختبار، يمكنك الخروج الآن.

أسرعت سارة تتوارى في إحدى الغرف وبعد لحظات دخلت على عمِّها وألقت عليه التحية وصعدت إلى حجرتها لتغيِّر ملابس العمل فلحقت بها أمها وقالت:

أخبرني عمُك أنك قررتِ الاستمرار في زواجك من هشام، لمَ لمْ تخبريني؟؟

قالت دون أن تستدير:

كنت سأخبرك فقد اتخذت قراري هذ الصباح فقط، ثمَّ إنك لم تسأليني عن شيءٍ أو حتى تواسيني..

على العموم لم أكن لأسمح لك بتدمير حياتك وتحويل نفسك إلى مطلقة بهذه السرعة..

استدارت إليها وهي تزرر بجامتها وقالت بسخرية:

تحتفظين بالقوة لي والطيبة لبقية العالم.. أتعشم أن يكون قراري صائبًا وإلا لن أتوانى عن التراجع..

فيكِ من العناد بحيث يمكنك أنْ تدمِّري حياتك فقط لأنِّي تدخَّلتْ..

أمسكت الفرشاة وأخذت تمشِّط شعرَها البني قبل أن تقول:

أدمِّرها بإرادتي ولا يبنيها الآخرون بإرادتهم..

زفرت الأمُّ في ضيقٍ وقالت:

لا يمكن أنْ تفعلي ذلك بعد أن تشاجر عمك آدم مع هشام من أجلك..

لم تشأ أن تعرف والدتها أنَّها سمعت الشجار فقالت بدهشة مصطنعة:

من أجلي أنا؟ هذا يملأني غرورًا..

بلغ ضيق الأم منتهاه فقالت بحدة:

أكثر مما فيك من الغرور!

وصفقت الباب خلفَها بشدة

****

دخل هشام منزله وهو لا يكاد يبصر الطريقَ من الغضب فبادرتْه عبير قائلة:

ماذا فعلتَ؟ هل تخلصتَ منها؟

نظر إلى مظهرها الكئيب بعيونها المنتفخة، وشعرها المنكوش وهمَّ بالرد عندما انتبه إلى عيون أبنائه: مي ويزن ومايا، المحدِّقة به فسكَت واتَّجه إلى البراد يبحثُ عن شيء يروي ظمأه فتبعته عبير مكملة:

بالطبع لم تفعل شيئًا، ما همُّك؟؟ فأنت سعيد بزواجك الجديد، دعنا نذهب أنا وأبناؤك إلى الجحيم.

التفتَ إليها والشرر يتطاير من عينيه وأمسك بذراعها يجرُّها للغرفةِ الأخرى وأغلق الباب خلفه ودفع بها إلى أحدِ الأرائك قائلًا بحدةٍ: هنا قولي ما شئتِ، فلن أسمح لكَ بتشويه صورتي أمام أبنائي، هل تفهمين؟

هدأتْ قَليلًا ثمَّ قالتْ:

هل تحدثتَ مع عمي؟

زفر في ضيقٍ وقال:

تحدثت معه ووضعني بين خيارين إمَّا إتمام الزواج بسارة أو الحرمان من الميراث..

آه، لا يمكن أن يكونَ جادًّا..

بل هو جادٌّ وجادٌّ جدًّا إذا أردتِ الحقيقية

دع الأموال تذهبْ إلى الجحيم..

يا للروعة، ونترك هذه الفيلا الصغيرة ونبحث عن شقةٍ متواضعة ونبدأ من الصفر براتب لا يتجاوز 3000 هل أنتِ مجنونة؟؟ فكّري من أين سندفع أقساط مدرسة مي ويزن؟ وهل ستتخلين عن السائق والخادمة والطبَّاخ؟؟

أشاحت بوجهها قائلة: لا يهمُّ سنتخلى عن كلِّ الرفاهيات..

بل يهم، ثورة الغيرة الآن تصور لك الأمورَ سهلةً لكنني أعرفك جيدًا، وأعرف أنك أولُ من سيتذمر مستقبلًا، والذي لا تعلمينه أنَّ كلَّ ما سأحْرَم منه سيؤول إلى سارة

صرخت عبير: اللعنة، مستحيل...

وبدأت تنتحب وهي تقول: أنت السببُ، أنت من دمَّر حياتنا، أرأيتَ نتيجةَ أنانيتك؟

ماذا كان ينقصك لتقدِم على هذه الخطوة الحمقاء؟

ينقصني زوجة تهتمُّ لأمري، تفكِّر بي، تحتويني، لا زوجة مشغولة على الدوام بحياتها الاجتماعية وعلاقاتها وأطفالها تاركةً لي مساحة ضيقة بين الرفوف..

علا نحيبها فتحركتْ مكامن العاطفة في نفسه واقترب منها يضمُّها إليه قائلًا بحنانٍ:

ليكن ما حدث درسًا لكلينا، وأعدك لن يطول الأمر سأجعلها هي من يطلب الطلاق بأسرع ما يمكن..

****

استيقظت سارة عصرًا فاتَّصلت ب حنين لترى كيف سارت أمورها مع والدها وبعد التحية سألت سارة :

هل تحدَّث والدك معك مرة أخرى؟

حنين:

لحسن الحظِّ لم يكن هنا عند عودتي، وعندما استيقظتُ كان قد خرج إلى متجره لكنَّ زوجته ألمحت إلى شيءٍ ما عن حامد فوددتُ تحطيم فمها..

ضحكت سارة قائلة:

يا لكِ من شريرة...

لا تعرفين كم أكره هذا الرجل، سأكون محطَّ سخرية لكلِّ عائلتي لو ارتبطتُ به يا سارة، إنه غير لائق البتّة..

لا تكوني سلبيةً هكذا، لن يحدث شيء، بالمناسبة متى نبدأ جولاتنا في الأسواق من أجل جوانا؟؟

الأفضل أن نبكِّر فجوانا دقيقة في اختياراتها في العادة فكيف بثوب الزفاف ومتعلقاته؟

إذًا ستتورم أقدامنا قبل .....

سكتت عندما تعالت طرقاتٌ على بابِ حجرتها وقالت:

ادخل

أطلَّت الخادمة برأسها قائلة:

السيد الكبير يريدك في المكتب

ردَّت:

سأوافيه في الحال

ثمَّ عادت إلى حنين قائلة:

استدعاء من السلطة العليا، إلى اللقاء اتِّصلي بجوانا وسجلا قائمة بالمشتريات..

وضعت السماعة وأسرعت بالنزول إلى عمِّها الذي ابتسم فور أن رآها وقال:

أهلًا بنيتي، لقد كان هشام هنا ظهرًا وكان سعيدًا بقرارك..

حقًّا؟

ما زال القرار بيدك؟ هل أنتِ واثقة أنَّك لا تريدين التراجع؟

قالت في سرِّها:

ربما ندم لتهديد ابنه الوحيد.

وسألتْه: لمَ تقول هذا؟ هل رفض هشام الأمر؟؟

لا يا بنيتي، كلُّ ما في الأمر أنَّ الزواج يحتاج إلى كفاحٍ دائمٍ حتى يظلَّ ناجحًا وبما أنكما بدأتما بدايةً سيئةً فستكون الأمور أصعب ونظرًا للطروف أنتِ من يقع على كاهله مسؤولية إنجاح هذا الزواج، فهل لديكِ الرغبة والقوة لذلك؟

بالتأكيد يا عمي وإلا لمَ وافقت، وفي حال فشلت فلن ألوم نفسي فقد منحتني الحياة فرصة وأنا بذلت قصارى جهدي ولم ينجح الأمر فتلك مشيئة الله التي لا أعترض عليها

على بركة الله، سيكون الزفاف بعد شهر..

تنحنحت بحرجٍ قبل أن تقول:

لا أريد حفلًا كبيرًا، فقط سهرة بسيطة تقتصر على العائلة وبعض الصديقات..

- لماذا؟؟ إنَّها فرحتك الأولى

لا أشعر بها كذلك، أحسُّ أنَّها معركة للفوز ببعض أحلامي، كما أنني أريد استخدام مهري في بدء مشروع صغير..

-ما حاجتك إلى المال؟ ولدينا الكثير..

أعرف نيتك الطيبة تجاهي ولكن لا أحبُّ أن أبدو أمام نفسي أو أمام الناس طفيلية متسلقة مع أني أعرف أن هذا ما يقال عني، أليس كذلك؟

حسنًا أيتها العنيدة، متى احتجتِ إلى المساعدة فأنا موجود...

شكرته وقامت من مكانها مغادرة فسألها وهو ينظر إلى يدها اليمنى:

لا أرى خاتم الخطوبة في إصبعك..

موجودٌ في علبته في الدولاب..

ولماذا ليس في إصبعك، أليس جميلًا؟

لم أراه بعد لأحكم..

لا يمكن أن تكوني صادقة، ولماذا؟

لأنَّ هشام لم يتكرم بفتحِه ووضعِه في إصبعي، لذا أقسمتُ ألا أضعه حتى يكون هشام لي زوجًا قلبًا وقالبًا..

سيكون يا عزيزتي، سيكون...

****

في الليلةِ السابقةِ لزفافِ جوانا اجتماعُ الثلاثي في منزل العروس الذي يعجُّ بالضيوفِ القادمين من خارج البلدة. في غرفة جوانا قالت حنين:

ألا تشعرين بالتوتر الذي يسبقُ العرس عادة كما يقال؟

ابتسمتْ جوانا في سعادة وقالت: أبدًا، قلبي مفعَّمٌ بالسعادةِ والحبورِ وفي داخلي شوق وتطلّع إلى حياةٍ سعيدةٍ، أنا وماهر..

قاطعتْها سارة: بالله عليكَ لا تبدئي بالحديث عن ماهر فلن تنتهي إلى الصبح، ثمَّ ينبغي أن تنامي مبكرًا هذه الليلة حتى تكوني متألقةً مشرقةً غدًا..

هذا ما سأفعله، وأنتما؟

سنثرثر قليلًا ثمَّ ننام..

دامت هذه الثرثرة لساعات حتى دخلتْ أم جوانا الغرفة قائلة:

ألم تنمنَ بعد يا فتيات؟ لقد تجاوز الوقت منتصف الليل..

رقدت الفتاتان وقالت حنين: إنَّه التَّرقب يا خالتي..

اتَّجهت الأم إلى سرير ابنتها ووقفت للحظات تتأملها بشغفٍ قبل أن تنحني وتقبِّلها قائلةً بحنان دافق:

سأفتقدك يا صغيرتي

تحرَّكت جوانا فانحسر الغطاء عنها قليلًا فأعادته الأمُّ عليها وقبَّلتها مرة أخرى قبل أن تخرج من الغرفة والدموع تتألق في عينيها. كانت الفتاتان تراقبان المشهدَ فقالت حنين:

هل تعلمين يا سارة أكثر ما يروقني في جوانا؟؟

ماذا؟؟

الحبُّ الذي يشعُّ في منزلهما أمها أمٌّ حنونة ورائعة وكذلك أبوها، أسرة نموذجية، إني أحسدكما ليتَ أمي إلى جواري مثلكما..

صمتت سارة للحظات قبل أن تقول:

لا تنخدعي بالمظاهر، فربَّما كان البعد أفضل، من يدري؟

استوت حنين جالسة وهي تقول:

كيف تقولين هذا؟

أنتِ أمك بعيدة لكن متى ذهبتِ إليها وجدتِ لديها الحضن الدافئ والصدر الحنون الذي تريحين عليه رأسك وتفرغين فيه همومك، أمَّا أنا فلا يمكن حتى أنْ أحلم في هذا، العبرة في القرب بالأرواح لا بالأجساد..

قد تكون أمُّك قاسية بعض الشيء، لكنَّها أمك

قاسية؟! يا لها من كلمة ملطفة..

جلست هي الأخرى بدورها وبان الألم في عينيها وهي تكملُ:

هل جرَّبتِ أن تُطردي من منزلك وتُحرمي من أبسط بوادر الحنان لا لشيء فقط لأنَّ الاهتمام بك يؤذي مشاعر طفلةً أخرى؟؟ هل جربت الجلدَ بالسياط حتى يدمي جلدك، لا لعظمِ الذنب الذي ارتكبته، بل لإرضاء الآخرين؟؟ هل اختبرتِ الشعور بأن يردد على مسامعك وأمام الآخرين أنَّك بلا شرف، وأنَّك لن تنجحي أبدًا، أنَّك الابنة الضالة، أنَّك الأسوأ، أنَّك الأقبح، أنَّك البذرة الفاسدة؟

هل قالت لك أمُّك يومًا أنَّها لم تشعر قط أنك ابنتها؟ كلُّ هذا لأنك فتاة مراهقة صغيرة غضة المشاعر، والأسوأ من هذا كلِّه العيش على حافة البركان مع أقرب إنسان لك في الوجود وفي أي لحظة تُلقي إحداكن الأخرى إلى فوهة البركان، ما رأيك الآن هل القربُ هو الأفضل دائمًا؟

آه يا عزيزتي، هذا من زمن الطفولة والمراهقة، وما زالت كلماتك تقطر مرارة إلى الآن

كل سنة تزداد من عمري تزداد معها تلك المرارة..

لكن يجب أن تنسي وتغفري..

أغفر نعم، ولكن لا أنسى. يجب أن يظلَّ طعم المرارة في حلقي دائمًا كي لا أعيد بناء ذات الطفولة البائسة لأبنائي وعندما أراهم سعداء ربما حينها أستطيع النسيان..

قالت حنين ملاطفة: في أروع اللحظات تبرز مدامعنا..

ردت سارة بحسرة : ربما لأننا اعتدنا على المآسي حتى لم نعدْ نستسيغ الأفراح..

لكن ألا تعتقدين أنَّ وجود والدتك يمنع الآخرين من استباحة حياتك؟

ربما فعلى الأقل إن لم يخشوا جرأتي, يمنعُهم حيائهم من أمي..

والدي ليس قاسيًا، فهو لا يجلد، ولا يطرد ولم ينحاز يومًا إلى زوجته، إنَّما يشعرني على الدوام أنني عبءٌ ثقيلٌ على كاهلِه،

في بعضِ الأحيان أشعر أنَّه يحبُّني، إنه يكره ذكرى أمي وتعلُّقي بها...

يا للسخرية، بالضبط مثل أمي تكره فيَّ صورة أبي وحبِّي الكبير له رغم موته، بالله يا حنين توقَّفي عن نبش القبور ودعينا ننام فغدًا يومًا طويلًا..

معك حق، تصبحين على خير

تلاقي الخير

****

بدت جوانا باهرة الحسنَ في ثوبِها الأبيض الذي يتلألأ بالجواهر اللامعة الصغيرة والطرحة التي تزيِّن شعرها، مطرزةً بذات الجواهر بجوار ماهر الذي كان في غاية الوسامة والأناقة والجاذبية. حضرتْ صديقات وقريبات جوانا وكذلك قريبات ماهر اللاتي بان عليهن الحسد والغيرة وهنَّ يتطلعن إلى جوانا ورحن ينتقدن مظهرها ويعلِّقن على فارق العمر بينهما قد كانت جوانا تكبره بعامين, ويتساءلن في غيرة واضحة:

ماذا أحبَّ فيها؟ ما الذي تملكه ولا يملكنه؟؟

لكنَّ ماهر بدا في هذه اللحظة في غاية السعادة، ولا يمكن أن يكون في الكون من يفوقه سعادةً وحبورًا, وعندما أخرج الخاتم الماسي من علبته انطلقت الشهقات من أفواههن وهنَّ يلحظن بريقة قالت جوانا مبهورة:

ما أروعه يا ماهر إنَّه مميزٌ...

ردَّ في سعادةٍ:

- لا بدَّ من شيءٍ مميزٍ لهذه المناسبة المميزة، لا أصدِّق أنَّك أصبحتِ زوجتي أخيرًا

ضحكت بدلالٍ وقالت على الرجل أن يتعب قليلًا لينال ما يريد..

للحق، لقد أتعبتني جدًّا، لكنَّ الأمر كان يستحقُّ يا عمري الجميل، أحبك

كانت حفلة الزفاف رائعة، وعندما حان وقت مغادرة العروس همست حنين للعروس: انتبهي من قنبلة السعادة التي تسير بجانبك فقد تنفجر في أيِّ لحظة..

ابتسمت جوانا في حين قالت سارة:

أنا متأكدة أنَّه مستعدٌّ أن يرقد وتسيري فوقه مقابل نظرة رضا منكِ كيف فعلتِ ذلك به؟

ضحكت جوانا وقالت:

ليس إلى هذا الحدِّ..

قالت حنين:

أرجو أن لا تنسيكَ السعادة موعد زفاف سارة..

بالتأكيد لن أنسى سأعودُ قبلها بيومين..

سارة: بيومين!! ومن سيرافقُني لشراء جهازي؟

قاطعتْهن الأمُّ:

هيَّا يا فتيات، دعوا العروس تذهب قبل أن يقتلنا زوجها..

ما أن سمعت جوانا صوت أمَّها حتى اغرورقت عيناها بالعبرات وارتمتْ في حضنِها واحتضنتها أمها بحنان قائلة:

يا صغيرتي الحلوة لطالما انتظرتُ هذا اليوم، تبدين في غاية الجمال وزوجك محبٌّ طيّبُ القلب..

ورفعت الأمُّ وجه جوانا وأخذت تمسحَ دموعها بأطراف أناملها وهي تقول:

لا أحد يبكي في مثلِ هذا اليوم يا صغيرتي، هيَّا اذهبي..

وما إنْ غادرتْ جوانا حتى أجهشت الأمُّ بالبكاء وعندما حاولت الصديقتان مواساتها وتطيب خاطرها، انخرطْنا معها في البكاء...

لم يبقَ على زواج سارة سوى يومين وقد أنْهَت هي وحنين التجهيزات كافَّة وأخيرًا اشتريتا ثوب الزفاف، كان ثوبًا بسيطًا هادئًا وفي الوقت نفسه أنيقًا بديع التصميم. وعندما عادا إلى المنزل وجدا مها التي جاءت لزيارة والدتها. قالت حنين لمها:

ينبغي ألا يفوتك رؤية ثوب زفاف أختك...

ردَّت مها: وكيف يبدو؟

قالت حنين بحماسة: لا يمكن إلا مشاهدته، هيَّا بنا إلى الأعلى وأيضا لتشاهدي بقية الجهاز وأنتِ أيضًا يا خالتي..

قام الجميع وما أن رأت مها الثوب حتى شهقت إعجابًا وقالت مبهورة:

رائع.. من أين حصلت عليه؟؟

ردت سارة في فخر: من مصممٍ خاص، ما أن رأيته حتى أدركت أنني لن ألبس غيره..

قالت مها وهي تتأملُ الثوب: لابدَّ أنه كلَّف ثروة..

ردَّت حنين: انتظري حتى تري بقيةَ الجهاز لتعلمي أيَّ ثروة أنفقنا، الأثواب، والعبايات، والأطقم المنزلية، وقمصان النوم، والإكسسوارات..

أكملت سارة وهي ترى ابتسامةَ أختها تختفي:

ولا تنسي المكياج والعطور..

فتحت حنين الحقائب تستعرض المشتريات فقالت مها: متى أمكنكما شراء كلَّ هذا؟

فقالت سارة: الفضلُ لله ثمَّ لحنين التي تفرعت لي تمامًا..

قالت مها:

أنا آسفة لأني لم أكن معك فكما تعلمين الحمل يبقيني في حالة خمولٍ وتعبٍ دائمين

قالت الأم التي نطقت لأولِّ مرة منذ دخول الحجرة:

لا تتأسفي، فقد حصلت على جهاز حتى أنتِ لم تحصلي عليه..

ابتسمتْ سارة لأختِها قائلة:

بطريقة ما لم أتوقَّع منك هذا، أعني أنني أعرف زوج وأطفال وحمل كان الله .....

صمتت فجأة وكأنها تستوعب ما قيل ثمَّ قالت بحدة:

ماذا تعنين بعبارة "حتى أنت لم تحصلي عليه" ألأنها الفضلى ينبغي أن تحصل على كلِّ شيء؟؟ وأنا لا يهمُّ إن حصلت على شيء جيد أو لم أحصل على شيء على الإطلاق، حسنًا، يسرني أنَّه قد خاب أملك فقد حصلت على أفضل جهاز دون الحاجة إلى أحدكم.

احتقنَ وجهُ الأم غضبًا وألقت ما في يدها وخرجت فقالت مها:

آه، كيف تفعلين هذا؟ لقد حطمتِ قلبها..

ابتسمت سارة في سخرية وقالت:

ينبغي أن يكونَ لها قلبٌ أولًا ليتحطم ثمَّ أنَّ أمي ليست هنا فلا داعي لتمثيل دور البريئة الطيبة فكلانا يعرف ما في القلب..

إنك تظلمينني يا سارة..

من الجيد أن أظلمك مرة مقابل كلَّ سنوات الضيم التي عشتها وأعيشها بسببك..

فتحت مها فاها دهشة قبل أن تلملم شتات نفسها وتخرج، قالت حنين بعدها:

يا إلهي، هل الأمور دائمًا هكذا؟ أظنُّ أنك تبالغين في ردة فعلك..

هل تظنين أنَّ الوضع يروق لي؟ دعينا من هذا، ماذا قررتِ بشأنِ المشروع؟ هل ستشاركينني أم لا؟

ما زلتُ مترددة، إن شاركتك يجب أن أترك الوظيفة..

أعلمُ أنَّ الأمر يبدو صعبًا، صحيح أن أستلم شيك نهاية الشهر هو الأكثر أمانًا، لكن إن لم نغامر لن نصبح أغنياء..

أستغرب كيف تتحدثين عن المشروع وقد أنفقت معظم مدخراتك على شراء الجهاز؟

صحيح أنفقت الكثير لأنِّي أريد أنْ أكون مثالَ الأنوثة الكاملة أمامه وهذا أهمُّ أسلحتي ثمَّ هنا المهر الذي لم أقبضه بعد وهو يساوي ضعف ما أنفقت..

حسنًا، لنؤجل البتة في هذا الموضوع حتى تعودا من شهر العسل، هل اتفقتما إلى أين ستذهبان؟

هل تصدقينني إن قلت لك إنه منذ تقرر موعد الزفاف لم يتحدث معي سوى مرَّة واحدة يسألني إنْ كنت أريد أرضية الشقة سيرميك أم موكيت؟؟ يصرُّ على تجاهلي، سنرى إلى متى سيستمر هذا التجاهل؟

أنا متأكدة لن يطول معك..

لن تصدِّقي منْ اتَّصل بي البارحة..

مؤكد جوانا، فقد عادت البارحة

سمعتُ ذلك، لكن ليس هي بل كان أخاها طارق...

وماذا يريد هذا؟

ابتسمتْ وهي تقول: يريدُ أن يتأكد أني لن أتخاذل أو أتراجع..

وما الذي يحاول قوله بدفعك إلى رجل آخر؟

يحاول القول إنَّه يحبُّني أكثر من روحه ويشجِّعني بكلمات كلِّها حماسة, لكني أعلم أن نياط قلبه تحترق، هل رأيتِ أنبل من هذا الإنسان؟!

أنتما مجانين بحقٍّ لا أفهمكما ولا أريد حتى أن أفهمكما، اه يجب أن أغادر وإلا سيقتلني أبي، أنتِ نامي فستأتي المدلكة وخبيرة التجميل التاسعة صباحًا..

عودي أنت وجوانا إلى هنا بعد العمل لنتناول الغداء معًا..

سأحاول، إلى اللقاء...

****

كانت الفرحةُ عظيمةً باجتماعِ الثلاثي بعد عودة جوانا، وبعد العناق والقبلات سألت سارة:

ها، أخبرينا كيف هو الزواج؟

ردَّت بسعادةٍ غامرة:

آه، يا سارة شيئًا في غاية الروعة، تمنيت ألا ينتهي الأسبوعان، كان جميلًا بشكلٍ لا يصدِّق..

سألت حنين:

وأين ذهبتما في تلك المدينة؟

لم نترك مكانًا لم نذهب إليه: المطاعم، الملاهي، الشواطئ، الحدائق، الأسواق، المقاهي لقد سبق وزرت هذه المدينةَ من قبل ولكن أن تذهب إليها مع حبيبك هو شيء آخر تمامًا

سارة: وما الاختلاف؟

جوانا: ستتناثر ذكرياتكما الرومانسية في كلِّ أرجاء المدينة، كلُّ مكان ينطبع في ذاكرتك بموقف طريف، كلمة حانية، قبلة خاطفة، الآن فقط أدركتُ السحر في منظر شروق الشمس وغروبها، ومنظر السماء ليلًا وهي مرصَّعة بالنجوم، كل شيء كان ساحرًا مع ماهر..

سارة: يبدو أنَّ الزواج ناسبَ صحتك جدًا فوجهُك مشرقٌ، وعيناك برَّاقتان، وجسمك امتلأ قليلًا فبدا أكثر إغراءً..

حنين: أتمنى أنْ يناسبكَ الزواج أنت أيضًا وتعودين بذات الرومانسية..

جوانا: أنا متأكدة من ذلك، والآن أين الغداء إنِّي أتضور جوعًا؟

****

في المساء ذهبت سارة إلى حجرة أمها وطبعت قبلة على رأسها وقالت:

آسفة يا أمي قفدت أعصابي، تعرفين كم يثيرني هذا الموضوع، آسفة مرة أخرى..

قالت الأم: ماذا كان سيحدث لك لو لم تدخليها في حديثك؟!

حتى في هذه اللحظة كلُّ ما تفكر فيه مشاعر مها لا مشاعرها الشخصية، أجابت سارة ببرود:

نفس ما كان سيحدث لك لو لم تظهر لي ولو لمرة أنَّها الفضلى لديك..

حاولت تمالك نفسها والبعد عن هذا الموضوع فقالت:

على كلِّ حالٍ هذه آخر ليلة لي في البيت إن كنت لاحظت ذلك وغدًا سأغادر ولا أحبُّ أن أغادر ونحن مختلفتان مع أنِّي أعلم كم تسعدك مغادرتي...

قالت الأمُّ دون أن تنظر إليها:

ما يسعدني حقًّا أنْ تعرفي مصلحتك وتحافظي على زواجك

لقد دام خلافنا أمدًا طويلًا، حتى لم تعودي لتجدي النوايا الحسنة، إنَّك متكبرةٌ بغيضةٌ حتى في اعتذارك...

ابتسمت سارة في مرارةٍ وقالت:

أعرف أننا لن نتفق أبدًا، فقط دعينا نضع جانب ثلاثين عامًا من الخلاف هذه الليلة، فهل سأكون أكثر من متفائلة، إن ظننت أنَّه بإمكاننا قضاء الليلة الأخيرة كأم وابنة أم لا...

مثل والدك تمامًا تريدين أن تسير الدنيا على هواك...

قالت مستجدية:

دعينا من والدي وتكبُّري، كلُّ ما أريده في هذه الليلة أنْ أسمعكِ تقولين إنَّك تحبُّينني وأنك تتمنين لي حياة سعيدة..

ردَّت الأمُّ دون أن ترفع رأسها: تعرفين أنِّي كذلك..

إذًا قوليها، دعيني أسمعها ولو لمرة في عمري، دعيني أسمعها ولو أني أستجديها، فبضع كلمات حانية لن تُضيع هيبتك كأمٍّ...

ظلَّت الأمُّ صامتةً متشاغلةً بالإبرة والصوف الذي بين يديها...

قامت سارة من مكانها وهي تقول: بطريقة ما عرفت أنَّك لن تقوليها..

وانحنت تطبعُ قبلةً على جبينها واستدارت مغادِرة وعند باب الحجرة قالت دون أن تستدير: لو كانت مها أو مايا لاختلف الأمر أليس كذلك؟؟ ما زلتُ أذكر نحيبك ودموعك يوم رحيلهما

وغادرت دون أن تسمع جوابًا...

****

حضر الجميعُ حفل الزفاف ماعدا عبير والتزمت شفيقةَ حدود الأدب بعد التحذيرِ الصارمِ من الأب بعدم المساس ب سارة ولو بكلمة. بدت سارة متألقة في ثوبِ الزفاف الذي كان مسار إعجاب الجميع، وطبعًا أثار رفضها ارتداء طقم الخطوبة وخاتمه كما تقتضي الأعراف استياء أمها وأخواتها لكنَّها أصرَّت على رأيها، ومرَّت الحفلةُ سريعًا وفي الثانية بعد منتصفِ الليل انطلق الزوجان إلى عشِّ الزوجية وعندما أصبحا وحدهما، كان هشام في غاية الأدب معها وهو يجول بها أرجاء شقتهما وعندما دخلت لتغيِّر ملابسها كانت متيقنةً أنَّ هشام لن يحاول الاقتراب منها ومع ذلك ارتدت قميص نوم شفاف في غاية الإغراء وفور أن رأت نظراته إليها وإلى ثوبها أدركت أنه لن يقاوم

وسيخلع ثوب البرود سريعًا ويطالب بحقوقِه الزوجية وهذا ما حدث فعلًا فيما بعد وبينما هي مستلقية بجواره قال:

إنَّك عذراء...

ردَّت بلا مبالاة: حقًّا؟ وما الغريب في ذلك..

كان يتمنَّى أن لا تكون كذلك حتى يجد سبب لتطليقها وحينها لن يلومه أبوه لكنَّها أفسدت عليه هذه الخطة والغريب أنه سعيد لأنها عذراء، لاحظَ أنَّها تنتظر ردَّه فتنحنح في حرجٍ وقال:

سمعت أنَّ لكِ صديقًا...

وهل يعني هذا أنْ أفرِّط في شرفي وأسلمه نفسي

لم أقصد الإساءة

وأخذ يداعب خصلات شعرها المتناثرة وأكمل:

لقد سعدتُ بذلك واستمتعتُ كثيرًا

حقًّا ؟! وراحت في سباتِ عميقٍ من الإرهاق والتعب.

أولُّ ما خطر في بالِها عندما استيقظت صباحًا هو وداع أهلها من بين الجميع كان وداع عمها آدم الأكثر تأثيرًا فقد احتضنها وهو يقول بحزنٍ واضحٍ: ستفقد حياتي بهجتها من بعدك، عديني أن تأتي لزيارتي كثيرًا وألا تنسي عمَّك العجوز...

أجابت بتأثرٍ: بالطبع لن أنساك فقد كنت بمثابة الأب الحنون لي وهل تنسى الفتاةُ أباها!!!

من الآن أحسُّ بالوحشة تغلِّفُ قلبي لرحيلك..

تدخَّلت مايا: آه يا أبي، إنَّها ليست ذاهبة إلى نهاية العالم، حتى أنا التي غادرت البلدة لم تظهر لي كل هذا التأثر...

"حتى أنا" الجملة التي تجعل الدماء تغلي حممًا في قلب سارة دائمًا يحاولن إظهار أنهن الأحقُّ بكلِّ شيءٍ: الحبِّ، الحنانِ، العطاء، المادة، لكنَّها لم تشأ إفساد جو الفرح فصمتت. في حين قال عمُّها: سارة هي ابنتي وصديقتي تستيقظ معي من الصباح الباكر فتقرأ لي بعد أن ضعفَ بصري، تجاري خطواتي البطيئة وهي تسيرُ معي في الحديقة، وتستمع إلى أحاديثي المملة وهي ترتشف معي قهوة المساء..

بهتت مايا وقالت سارة: أبدًا لم تكن مملًا فقد استمتعتُ بكلِّ دقيقة معك يا أبي...

جحدتها مها بنظرةٍ صارمة فمن الواضح أنَّهن لا يحبذن أن تنادي والدهن بكلمة "أبي" رفعت سارة نفسها وطبعت قبلة على جبينه فقال:

هيَّا اذهبي ف"هشام" ينتظرك واعتني بنفسك..

وفي طريقِها إلى الخارج قابلتْ والدتُها التي يبدو أنَّها كانت تتحاشى هذه اللحظة فطبعت قبلةً على جبينها فكان كلُّ ما حصلتِ عليه مصافحةً بالأيادي وعبارة "حافظي على زواجك وابعدي عن رأسك كلَّ الهراء القديم"

****

استيقظت حنين على طرقاتٍ حادة على باب حجرتها وأسرعت تفتح وهي تتعثر في خطواتها من أثر النوم فوجدت أخاها الصغير سمير فقالت بحدة: ماذا تريد؟!

ردَّ:

أبي يريدك أن تنزلي إليه حالًا...

ماذا حدَث؟ لقد عدتُ من الزفاف فجرًا. كم الساعة الآن؟؟

ردَّ الصغير: إنَّها العاشرة صباحًا..

أخبره أنِّي سأنزل حالًا..

فكرت لابدَّ أنَّ الأمر في غاية الأهمية فأسرعت تغيّر ملابس نومها كيفما اتَّفق ونزلت، وقد استولى عليها القلق ووجدته في غرفة المعيشة وما أنْ رآها حتى أمر الجميع بمغادرة الحجرة مما زاد قلقها وفزعها فقالت بصوت متحشرجٍ:

ماذا هناك يا أبي؟

ظلَّ يرمقها بنظرات غريبة قبل أن يقول:

لقد حدَّثني حامد في شأنك مرةً أخرى..

قاطعته:

أبي لن نتحدث في هذا الموضوع مجددًا تعرف رأيي به..

أكمل الأب: ولقد قبلت عرضه هذه المرة وسيأتي لرؤيتك وخطبتك رسميًّا يوم الخميس المقبل

اتَّسعت عيناها ذعرًا وقالت بهلعٍ:

أبي أنت لست جادًّا، أليس كذلك؟

وهل اعتدتِ الهزل معك يا فتاة؟

أبي إنَّه حتى لا يعمل..

وماذا في ذلك؟ لديه أملاكُه التي تدرُّ دخلًا كافيًا لإعالتكما...

بدأت حنين بالنحيب والبكاء وهي تقول:

وماذا فعلتُ لأستحقَّ هذا؟ أهكذا تبعيني بلا ثمنٍ؟

- توقَّفي عن قول هذ الهراء، الفتاة مكانها في بيت زوجها، وآنَ لك أن تتزوجي، ولقد أعطيت الرجل كلمة ولن أتراجع عنها فليكون هذا معلوم لديك...

دون أن ينتظر جوابًا، غادر الحجرة وتركها في دوامة من المشاعر العنيفة. أول ما خطر في بالها الاتِّصال بأخيها مازن فهو الوحيدُ

القادرُ على تغيير رأي والدها فأسرَعت إلى الهاتف تطلبه وقالت بمجرد أنْ أجاب:

أخي، إنني في ورطةٍ ولن ينقذني بعد الله سواك..

أصاب الهلع فؤاده وهو يسمعُ صوتَ نحيبها فقال بفزعٍ:

ما بكِ؟ ما الذي يبكيكِ هكذا؟

ردَّت من بين شهقاتِها:

أبي يريد أنْ يزوِّجني حامد..

تنهَّد في ارتياحٍ بالغٍ ثمَّ قال:

لقد أفزعتني لحدِّ الموت، وما الجديد في هذا؟ إنَّه دائمًا يريدُ تزويجك لنسيبه العزيز المتيَّم فيكِ..

الأمرُ مختلفٌ هذه المرَّة يا أخي، إنَّه مصرٌّ حتى أنَّه حددَ موعدًا لرؤيتي وإعلان الخطبة رسميًّا ضاربًا برأيي عرض الحائط..

هكذا إذًا، لا تبتأسي يا صغيرتي، سأكون عندكم مساءً وثقي لن يحدث شيء ضد إرادتك يا شقيقتي العزيزة..

هدأت قليلًا وقالت: أواثقٌ أنتَ يا أخي..

تمام الثقة، المهم الآن أن تهدئي وترتاحي، اتَّصلي بإحدى صديقاتك لتأتي إليك أو اتِّصلي بأمي...

حسنًا يا أخي..

وضعت السماعة وهي تفكِّر أنَّه يستحيل أن تتصلَّ بسارة أو جوانا فكلاهما متزوجتان حديثًا وغير متاحتين حاليًّا فرفعتِ السماعة واتصلتْ بأمها التي بادرتها بعد التحية:

ما بكِ يا حلوتي يبدو عليك الاضطراب؟

أبي يريد تزويجي لحامد

ظننتُ أننا انتهينا من هذا الموضوع..

وأنا ظننتُ ذلك أيضًا...

ثمَّ طفقتْ تروي لها ما حدث صباحًا قالت الأمُّ مهدئة:

لا تقلقي يا حبيبتي سأتصلُّ به هذا المساء وسنقنعه أنا ومازن بتغيير رأيه. إنَّ والدك طيبُ القلب رغم قسوته الظاهر، إنَّه فقط قلقٌ عليك..

أعلم يا أمي، لكن فكرةَ الارتباط بهذا الرجل مرعبةٌ للغاية..

آسفة يا عزيزتي لا أستطيع أنْ أطيل معك أكثر فأنا وسط اجتماعِ عملٍ، لكن ثقي أننا معك، إلى اللقاء حبيبتي..

إلى اللقاء أمي..

أحسَّت بعد هذهِ المكالمةِ أنَّ الأمر اختلفَ، ولم يعد لذلك الكابوس المرعب الذي كانت تنتفض منه قبل سويعات أي وجود...

****

استيقظَ هشام وارتدى ملابسه بسرعة فقد وعد عبير أن يعود إلى المنزل صباحًا وها قد انتصف النهار وفي طريقِه إلى الخارج، تذكَّر سارة فاتَّجه إلى غرفة المعيشة ليلقي التحية ويخرج فقال: صباح الخير

تجمَّد في مكانه وهرع ينظر إلى مظهرها فقد كانت بهجة لمن يراها بياقة قميصها المفتوحة التي تظهر صدرًا ناهدًا، وتحتضن خصرًا نحيلًا بينما ترسم التنورة وركين ضيقين لتنتهي فوق ركبتين مغريتين. وضعت الكتاب من يدها وقالت بابتسامة:

صباح النور، تبدو على وشك الخروج

تلعثمَّ وهو يقول:

ماذا؟ لا، لستُ خارجًا

قال في نفسه:

يا للجحيم، ماذا يحدث لي؟!

أرجعت خصلات شعرها إلى الوراء وهي تقوم من مكانها وتقول:

إذًا، تفضَّل الفطور جاهز

تبعها كالمسحور إلى غرفة الطعام فوجد الطاولة معدةً بأناقة لشخصين، جلست واضعة ساقٍ على ساق فصرَّ على أسنانه

وهو يجبر أفكاره على الابتعاد عن هذا الطريق وهو يقول في سره: - إنها ليست جميلة ومع ذلك أكاد أقعُ في فخِّها كلَّما ابتسمت لي.

ناولتْه كوب العصير بذات الابتسامة فارتفعَ ضغط دمه مجددًا فلون أحمر الشفاه الموضوع بعناية ودقة جعل أسنانَها جميلةً وشديدةَ البياض وفمَها شهيًّا مغريًا، أشاح ببصره بصعوبة وقال: يبدو أنَّكِ استيقظتِ مبكرًا ماذا كنتِ تفعلين؟

أبدًا كنتُ أشاهد برنامجًا عن الديكور، كانت حلقةً رائعةً عن الديكور الخشبي

أليس لديك ما تفعلينه في صباحية عرسك سوى مشاهدة برنامجًا عن الديكور؟

ابتسمت في إغراء وقالت وهي تنظر إلى عينيه مباشرة:

ألديك اقترح ما

انتبه إلى أين يجرف نفسه فردَّ بسرعة:

أنا؟ ... لا

أكمل طعامه صامتًا. وبينما هي ترفع الأطباق لاحظ الخاتم في إصبعها فأمسك بيدها متسائلًا:

ما هذا الخاتم؟ إنه ليس الخاتم الذي أحضرتْه لك..

نظرت إلى عينيه وهي تسحبُ يدها بلطفٍ قبل أن تقولَ بصوتٍ بان فيه الألم:

من الجيد أنَّك لاحظت ذلك ولكن إن كنت تذكر أنك لم تفتحه لي فضلًا عن إلباسي إياه.

شعر بحرجٍ حقيقي فتنحنح قائلًا:

يمكننا تصحيح الوضع الآن..

فردت بلا مبالاة: لا، شكرًا أفضِّلُ خاتمي هذا ..

الآخر يفوقه روعة

لم أراه بعد، ولكن ما زلتُ أفضِّل خاتمي هذا..

أخذ يعاتب نفسه: ماذا يحصل له أيحاول إقناعها بارتداء خاتمه؟ من قال إنَّه يريد أن ترتديه؟؟ ألقي بالفوطة من يده قائلًا:

أنا ذاهبٌ وسأعود قبل موعد الرحلة فكوني جاهزة

لا تقلق سأكونُ جاهزةً أوصل قبلاتي للصغار..

نظر إليها مستغربًا وقال في نفسه: أتحاولين أن تقولي إنَّك غير مهتمة، سنرى

****

وصل إلى منزلِه فوجد الأطفال في الحديقة وقد بدا على مظهرهم الإهمال. أسرع الأطفال إليه فرحين يهتفون: بابا.. بابا

ضمَّهم إليه ثمَّ سأل مي الكبرى: أين أمُّكم؟ وأين الخدم؟

ردَّت بانكسارٍ: إنَّها حزينةٌ ولم تخرج من غرفتها منذ الصباح..

قال يزن: بابا نحن جائعون..

قال هشام في دهشة:

ألم تتناولوا الغداء بعد؟! أين الخدم؟

ردَّت مي:

لقد طردتهم أمي قائلة إنها لا تريد رؤيةَ أحدٍ اليوم..

دخل معهم إلى المنزل وقال:

هيَّا اذهبوا واغتسلوا وغيِّروا ملابسكم ريثما أطلب لكم الهمبرجر والبطاطا المقلية

هتَف الأطفال في سعادةٍ وركضوا يتسابقون إلى غرفتهم. ابتسم هشام لمنظر السعادة على وجوههم قبل أن يتَّصلَ بالمطعم ثمَّ يقول الآن نتفرغ لأمكم المجنونة..

وعندما فتح باب حجرتها صرخت بقوة: ألم اقل إني لا أريد أحد هنا؟

دخل هشام الحجرة وأشعل المصباح قائلًا: إنَّه أنا...

رفعت رأسها من على ركبتيها وفغرت فاها في دهشة قائلة: أنت؟!!

نظر إلى مظهرها المهمل ومباشرة خطر في باله مظهر سارة فقال في سرِّه:

هذا ليس عدلًا؛ فهي منهارة ونفسيتها في الحضيض..

خاطبها قائلًا:

لمَ تركتِ الأولاد مهملين وجائعين؟

ردَّت بحدةٍ:

وما دخلك أنت؟؟ وهل يهمُّونك في شيء؟ فقد تركت كلَّ هذا وذهبت إلى عروسك.

ابتسمَ لها وقال بحنانٍ:

ثمَّ لم أطق صبرًا عنك فجئت مشتاقًا إليك وإلى الصغار..

نظرت إليه غير مصدقة ثمَّ قالت دون أن تبتسم:

وكيف هي عروسك؟ هل استمتعت بها؟ هل نامت في حضنك؟

بالله عليك توقَّفي يا عبير، إنَّها زوجتي على كلِّ حالٍ...

إذًا فقد فعلتها، كنت متأكدة، كنت أعلم أنَّك لن تترك فرصة كهذه تفلت من يدك .. آه.. لقد وعدتني..

لقد وعدتك أن أطلِّقها، لم أعدك ألا ألمسها

بدأت تبكي وتنتحب فضمَّها هشام إليه قائلًا:

اهدئي يا عزيزتي سينتهي هذا الأمر قريبًا..

كيف ستطلبُ الطلاق وأنت تمتِّعها هكذا؟

يا ذات العقل الصغير الجنس ليس كلَّ شيء في الزواج، وعدتك وأكرر وعدي قبل أن نعود من السفر ستكون سارة راغبةً أشدَّ الرغبة في الطلاق..

وأيضًا ستسافر معها؟

وعادت للبكاء مجددًا فزفر هشام في ضيقٍ:

وهل سنقضي كلَّ الوقتِ في النحيبِ والبكاءِ، ثمَّ إنها تعليمات أبي المشددة...

استكانت في حضنِه وهي تقول:

كان غيابك الليلة الماضية مدمرًا..

مسدَ على شعرها بحنان وقال:

وأنت عندما كنتِ تغيبين الليالي الطوال في الحفلات والسهرات ألم يكن مدمرًا؟

عضت على شفتيها في حسرةٍ وندمٍ وعندما فتحت فمها لتعتذر تعالت طرقات على بابِ الغرفة وصوت يزن يقول:

أبي لقد وصل الطعام الرجل يريد النقود..

فتح هشام الباب وخرج ليحاسب ووضع لهم الطعام وعاد إلى الغرفة يسألها:

لم لم تنزلي؟؟ ألستِ جائعة؟

ردَّت وهي تغلق الباب: بلى، ولكن إلى شيء آخر

وارتمت في حضنِه تمنحه شفتيها في لهفةٍ مجنونةٍ وبالطبع لم تنسَ أن تُظهر المزيد من الهستيريا عند وداعه وهو ينطلق إلى شهر عسله المزعوم، مذكرةً إياه بالوعد..

****

استيقظت جوانا عصرًا فأخذت تبحث عن زوجها في أرجاء الشقة وعندما لم تجد له أثر اتصلت على هاتفه المحمول قائلة:

أين أنت يا عزيزي؟

مساء الخير يا حبِّي، أنا في زيارة لأمي

بلِّغها تحياتي، أتعشم ألا تنسى موعدنا هذا المساء يا روحي..

بالطبع لن أنسى، أريدك أن تكوني أجمل مما كنتِ البارحة في حفل الزفاف كنت... كيف أصفك؟.. خلَّابة .. تثيرين الجنون..

حقًّا؟؟! لكن لم يبدو عليك شيء من هذا القبيل..

هذا لأنِّي تصرفتُ كشهمٍ نبيلٍ وتركتك ترتاحين وتنامين والتفكير بك يكاد يدفعني إلى الجنون..

يا للروعة، يا لك من شهمٍ نبيلٍ

لكن الليلة سيكون الأمر مختلفًا، فقط تأنقي واستعدي، سأكون في المنزل بعد ساعة..

أغلقت الهاتف وهي ترفرف على أجنحة السعادة فتناولت وجبة خفيفة على عجلٍ وبدأت تستعد للعشاء في الخارج. مرَّت ساعة، وتلتها أخرى ثمَّ ثالثة ولم يظهر ماهر بعد..

بدأ القلق يساورها وأعادت الاتصال به لكن هاتفه مغلقٌ فاتَّصلت بمنزل والدته فأخبرتها الخادمة أنه خرج مع أمِّه وأخته لشراء بعض الحاجيات، مع مرور الوقت تحوَّل قلقها إلى غضبٍ كيف لا يتصل ويخبرها على الأقل؟ ألا يمكن تأجيل هذه الرحلة التسويقية؟ هل الأمر مصادفة أم حماتها تلعب دور الحماة النكديّة؟ بعد العاشرة وصل أي بعد ما يربو على خمس ساعات. دخل وعلى وجهه ابتسامة عريضة وهو يقول:

مساء الخير

ردَّت بخفوتٍ فجلس بجوارها طابعًا قبلة على خدِّها وقال:

إنَّ التسوق مع أمي عذابٌ حقيقيٌّ..

احتضن كفيّها بين يديه مكملًا:

لكن العودة إليك نهاية اليوم تبدد كلَّ تعبي..

سألته: أظنُّ أنني كنتُ مدعوةً على العشاء هذه الليلة؟!

سعل في حرجٍ وهو يقول: آسف، في الواقع لم يعد ذلك ممكنًا..

ضاقت عيناها وهي تقول: لم يعد ذلك ممكنًا، ولماذا يا ترى؟

أطرق أرضًا وهو يقول: لم تتبقَ معي نقودٌ كافية..

ماذا؟ لقد استلمت راتبك اليوم.. فأين ذهب؟

في الحقيقة، طلبت مني مروة مبلغًا من المال فلم أستطع ردَّها، ثمَّ إن التسوق مع أمي استنزف جزءًا كبيرًا من الراتب فلم يتبقَ سوى إيجار الشقة وما يكفي لتسديد الفواتير الأساسية..

أخذت تحدِّق به مصدومة من اللامبالاة واللامسؤولية ثمَّ قالت:

اسمع يا ماهر لا يحقُّ لي منعك من الإنفاق على أمك أو أخواتك، لكن ماذا عن بيتك الذي تقع عليك مسؤولية الانفاق عليه؟؟ كيف سنعيش إلى نهاية الشهر وقد أهدرت كلَّ مواردك؟ بالطبع لم تفكر في ذلك

أمسك بوجهها بين يديه قائلًا:

أنا آسف يا حبيبتي، لا تغضبي مني، وبالنسبة للعشاء يمكننا الذهاب غدًا سأحاول أن أدبر سلفةً..

أبعدت يديه عنها وهي تصرخ بغضبٍ:

يا إلهي ما هذا الغباء أنا أتكلم عن الميزانية وأنت تتكلم عن سلفة، لقد نلتُ كفايتي منك ولن أذهب معك إلى أيِّ مكانٍ...

كل هذا الغضب لأنِّي تبضعت لأمي...

كل هذا لأنَّك لا تفي بوعودك، كلُّ هذا لأنَّ هاتفك مغلقٌ ولم تكلف نفسك عناء الاتصال بي لتخبرني أين أنت وأنا هنا في

دوامةٍ من القلق، كلُّ هذا لأنك جعلتني أتزين وأتبرج وأنتظرك لخمس ساعات لتأتي بكل بساطة وتلغي الموعد، هل فهمت الآن لمَ أنا غاضبة؟

استدارت على عقيبها ودخلت غرفة النوم صافقة الباب خلفها بشدة. ظلَّ ماهر واقفًا يحدق بالباب المغلق وقد ملأه الحزن والأسى والحنق وهو غير قادرٍ على التفكير السليم..

****

بقي القلقُ مسيطرٌ على حنين رغم وعود أمِّها وأخيها لذا أسرعت بالنزول فور سماعها صوت مازن يدخل ويحيي والدها فابتسمَ لها بهدوء وربَّت على خدِّها قائلا بخفوت:

اهدئي ستكون الأمور على ما يرام...

وبعد الأحاديث التقليدية قال مازن: ما هذا الذي سمعته يا أبي؟

وماذا سمعت ؟؟

سمعت أنك تعتزم تزويج حنين لحامد

رمقها الأب بنظرة صارمة وقال:

إذًا فقد أسرعت تشتكي لك، أرى أن تهتمَّ بأمورك الخاصة..

لكن حنين شقيقتي الوحيدة وهي من ضمن أموري الخاصة

قال الأب بتبرمٍ: لقد أعطيت الرجل كلمة ولن أتراجع عنها

يا إلهي ما الذي حدث حتى تتخذ هذا القرار وتلقي به هكذا

زفر الأبُ بضيقٍ قائلًا: أنا لن أدوم لها ولا أريدها أن تظلَّ عانسة وحيدة من بعدي..

قال مازن: أنت لا تريدها، أم أن زوجتك لا تريدها في بيتها؟ بيتي مفتوح لها على الدوام ويمكنها الانتقال إليه من الآن، لكن لن أسمح بهذه المهزلة..

اشتعل غضب الأبُ وقال:

أرى أنَّك بدأت تلقي تعليماتك لي، اسمع أيُّها الفتى يبدو أنَّك فسرت خضوعي لك في موضوع عملها أنَّك أصبحتَ صاحبَ

الكلمة العليا في أمرها، أنا أبوها وأنا صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في أمرها، وأنا الأعلم بمصلحتها، هل فهمت؟

بدأ مازن يخرج عن طوره فارتفع صوته قليلًا:

وأين المصلحة في تزويجها من هذا الأحمق الجاهل المتغطرس، لو كان عندي فأرة ما زوجتها إياه...

قال الأب بسخرية: وماذا أيضًا؟ أتحفنا أيُّها المتعلم

زادت سخريةُ الأب غضبَ مازن فقال بحدة:

أبي أنت لا تفهم أنَّه لا يليق بنا أو بها، ولن تكون سعيدة أبدًا في هذا الزواج غير المتكافئ ولو.....

قاطعه الأب بصفعة مدوية مزمجرًا:

هذا ما كان ينقصني تقف أمامي لتعلِّمني ما يجب وما لا يجب، متى صرتَ هذا الابن العاق، ولعلمك كان في داخلي بعض التردد لكن بعد تبجحك علي، أنت بنفسك قد حسمت الأمر..

وخرج من الغرفة وتركهما وعلى وجههما الصدمة بأقسى صورها خاصة مازن الذي كان على الدوام الابن البار والحبيب المقرب إلى أبيه. بدا من ملامحه أنَّه لا يصدق أنَّ هذا يحدث له. فالتفتت إليه بنظرةٍ يملأها الأسف وقالت من بين دموعها:

أنا آسفة..

قام وهو يجمع شتات نفسه ويلملم كبرياءه المجروحة وقال:

لا.. عليك وخرج.

أسرعت بدورها إلى غرفتِها فكانت ليلة من أسوا الليالي قضتها بين الدموع والسهاد شبه متيقنة أنَّها فقدت أقوى نصيرٍ لها...

****

استيقظت جوانا فجأة شاعرة بعدم الارتياح التفتت فلم تجد ماهر جوارها على السرير نظرت إلى الساعة المضيئة فوجد الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير فتساءلت أين هو؟ وعندما فتحت الباب وجدته جالسًا أمام الباب مفترشًا الأرض وأمامه مطفأة سجائر مليئة بالأعقاب نظرت إلى وجهه بذهول

فرأت عيونًا محمَّرةً وجفونًا منتفخة وربما خطٌ من الدموع الجافة على خديه فقالت باستنكار:

ما هذا؟ ما الذي تفعله بنفسك؟ أهكذا بقيت طوال الليل؟

نظر إليها بانكسارٍ: نعم إن كان هذا يرضيك لتصفحي عني..

صرخت بذهول: لماذا؟ لماذا يا ماهر تفعل هذا بنفسك؟

أطفأ السيجارة التي بيده وهو يقول:

لأعاقب نفسي التي أسأت إليك ولم تستطع أن تسعدك، نفسي التي أغضبتك وأحزنتك رغم عدم اكتمال شهر على زواجنا.

ظلَّت تنظر إليه لفترة مذهولة وهي تتساءل داخلها أي منطق هذا آه، هذا ليس وقته، الفتى يكاد أن يهلك نفسه لأجلك ارحميه فابتسمتْ له برقة وحنان وقالت:

لم يكن الأمر يستحقُّ يا حبيبي، إياك أن تفعلها ثانية..

انفرجت أساريره لكلمة " حبيبي" فقام من مكانه وهو يقول بتذللٍ:

قولي إنك سامحتني، قولي إنك ما زلت تحبينني..

ابتسمت له أكثر وقالت: بالطبع أحبُّك أيها المجنون..

ضمَّها إليه بلهفة وأخذ يقبُّل كلَّ جزءٍ من وجهها وبعد لحظات أبعدته عنها برقَّةٍ قائلة:

مهلًا حبيبي دعني أستعيد وعيي، أحتاج كوبَ قهوةٍ..

قادها برفق إلى غرفة المعيشة وأجلسها على الأريكة وهو يقول:

اجلسي وأنا سأصنع لك القهوة بنفسي..

إنك أولى بالجلوس مني تبدو في غاية التعب والإرهاق..

ربَّت على خدِّها قائلًا بفرح:

ما دمتِ راضية عني فقد زال كلُّ التعب.

وعندما غادر الحجرة عادت تتساءل مجددًا: أيعقلُ أنْ يعاقب نفسه بتلك الطريقة الرعناء لأنها غاضبة؟ ابتسمت لنفسها في زهوٍ وهي تكمل: زوج يحبُّها لحدِّ العبادة بحيث أمضى الليلة على بابها فقط لأنَّها غضبت، إن هذا يملأها زهوًا ولكن ليس سعادة..

دخل وقد تبددت كلُّ معالمِ الكآبة عن وجهه وهو يقول:

ها هي القهوة لسيدة عمري..

تناولت القهوة من يده وقالت وهي تنظر إليه مباشرة:

عدني ألا تفعل شيئًا أحمقَ كهذا مرة أخرى!!عدني أنْ تقلعَ عن التدخين..

قال بسرعة كمن يخاف أن يفقدَ شجاعته:

عديني أن لا تصرخي في وجهي مرة أخرى

أمسكت بيده وقالت معتذرة:

آه.. يا حبيبي، أنا آسفة أنِّي فقدتُ أعصابي وصرخت، لكن أنت تعرف طبيعتي الحارة وقد وعدت أنك ستتحملني..

لا أصدق أنك صرخت في وجهي ودخلت غرفتك ونمت قريرة العين وكأنَّ شيئًا لم يكن..

ابتسمت له محاولةً إنهاء الموضوع:

يا عزيزي الصغير، دخلت وأنا متأكدة أنك ستأتي لمصالحتي ونمت وأنا أنتظرك..

فتحت ذراعيها له وقالت بغنجٍ:

تعال إلي

ارتمى في حضنها وهو يقول:

هذه أميرتي التي أعشقها

****

ما أن وطئت قدما حنين عشَّ الزوجية حتى دفَعها حامد إلى الداخل بقسوة فقالت بسخطٍ:

انتبه

قهقه بقوة وقال بسخرية:

الرجل الذي حلفتِ ثمَّ حلفتِ أنَّك لن تتزوجيه ولو كان آخر رجلٍ في الدنيا، الرجل الذي قلت فيه لو عُدَّ الحمير من الرجال لاعتبرته بعدهم، ها قد أصبح زوجك..

أشاحت بوجهها وهمَّت بالتقدم إلى الداخل فسحب الطرحة التي تزيِّن شعرها بقوة آلمتها فصرخت:

آه، إنك تؤلمني

لوى خصلات شعرها حول يدها قائلًا بغلٍّ: إنك لم تري الألم بعد، أيَّتُها العانس

دفعها بعيدًا فقالت: أيُّها الحقير

دون مقدمات انهالت صفعة على خدِّها فشهقت ألمًا وامتلأت مقلتيها بالعبرات:

ماذا فعلت لتصفعني؟

دون إجابةٍ تلقَّت صفعةً أخرى قائلًا بحدة: وأيضا تردين عليَّ أيتها الوقحة، أنا الآن زوجك وسيدك، لا شخصٌ يبغي رضاك فتتعالين عليه..

ردَّت من بين دموعها:

إذًا ما يحدث انتقام لما سلف من الجرح؟، حقًّا لم يخب ظني فيك

اندفع نحوها وأمسك بخناقها وهو يصرخ في غضب:

أنت لم تري شيئًا بعد فعندما أنتهي منك، سترين أنَّ العنوسة كانت أفضل بكثير، سيكون زواجك مني أكبر امتحانٍ للصبر.

أحسَّت حنين بروحها تكاد تزهق تحت أصابعه الكبيرة ولم تعد تستطيع التنفس فأمسكت بيده محاولةً إبعادها عنها وهي تصرخ بصوت مبحوح:

اتركني .. اتركني

فجأة تسلل صوتُ إلى تلافيف دماغها ويدٌ تهزها بقوة مناديا:

- حنين .. حنين.. استيقظي

فتحت عينيها مذعورة وهي ممسكة بعنقها قائلة بذعر:

يا إلهي، كان حلمًا، كان شيئًا مريعًا

التفتْ ذراع زوجة أبيها حولها وهي تقول بلطفٍ:

اهدئي يا بنيتي، أنت بخير هنا، ماذا رأيت؟؟

قال والدها الذي لم تنتبه لوجوده سوى الآن:

لا تحكي ما رأيتِ حتى لا يتحقق

ناولتها زوجة أبيها كوبًا من الماء قائلة:

اشربي بعض الماء..

شربت جرعتين من الماء وهي تحاول تمالك نفسها والسيطرة على أطرافها المرتجفة فقال والدها وهو يضع المصحف بين يديها:

اقرئي بعض السور وستهدأ نفسك

وخرج من الغرفة لتتبعه زوجته، بعد لحظات وبالفعل عملت بنصيحة والدها واستعادت هدوء نفسها فجلست تحدِّق في الفراغ وهي تضمُّ ركبتيها إليها وتذكرت مازن الذي اتَّصلت به البارحة فبادرته معاتبة:

هل هنت عليك حتى ترفض الحديث معي لثلاثة أيام؟

اعذريني يا عزيزتي تعرفين كم أحبُّك، لكنَّه أبي، وغضب الأب من غضب الله، تعرفين كيف كان لنا دوما الأبَ العطوفَ الودودَ الذي ينصفنا حتى عند زوجته أهكذا يكون جزاؤه منا العقوق والنكران؟

شمَّت حنينُ من حديثه رائحة انهزام فقالت بحذر:

وماذا يعني ذلك؟

أعني ربما لا يكون الأمر بالسوء الذي نتصوره، دعينا نجرب..

صرخت في هلع: ماذا؟

دعيني أكمل كلامي، نجرب فترة خطوبة، ربما لن تروقي له، ربما استطعت حمله على تغيير رأيه، ربما تحدث معجزة..

مستحيل، لا أستطيع، إن مجرد الفكرة تكاد تدفعني للجنون..

وما الحلُّ البديل؟ أن نخرج عن طاعة أبي؟ بصراحة أنا لا أستطيع فعل ذلك وتحمُّل هذا الذنب، صدقيني ما دمنا في طاعة الله فلن يضيعنا..

عادت دموعها للانهمار وتعالت شهقاتها وهي تقول:

كيف استطاع أبي أن يحيدك هكذا؟ كيف طاوعك قلبك أن تفعل هذا بي؟ كيف استطعت أن تلقي بي بكلِّ بساطة؟؟

أتظننين أنَّ الأمر لا يؤلمني؟ أحسُّ بقبضة تعتصر قلبي كلَّما سمعت نحيبك وبكاءك.. لكن ماذا أفعل إنه أبي ولا أستطيع أن أعصي له أمرًا..

ازداد نحيبها فقال بصوت حنون:

اصبري، يا عزيزتي، لن يجدي البكاء شيئًا، غدًا سيأتي حامد، إلى اللقاء..

****

مع انبلاجِ الفجر اتَّصلت بجوانا التي قالت معاتبة: أين كنتِ يا بنتي؟؟ لم أسمع صوتك منذ زفاف سارة..

مؤكد لن تسمعي صوتي وأنت غارقة في العسل وزوجك يذبُّنا عنك كالذباب

آسفة كنت مشغولةً بحقٍّ..

زفرت حنين بضيق وقالت:

إذًا دعيني أتركك فقد تكونين مشغولةً الآن أيضًا

قالت جوانا بسرعة:

انتظري، أنا حقًّا آسفة، ما بك؟ لستِ على ما يرام..

قالت حنين بضيق:

أبي يريد تزويجي لحامد..

ضحكت جوانا قائلة:

كم مرة جئت منتحبة لذات السبب؟!

آه، يا جوانا، الأمر مختلٌف هذه المرة ستتم الخطبة رسميًّا اليوم..

صرخت جوانا:

ماذا؟

سردت لها ما حدث بدء من صباح زفاف سارة إلى حلمها البارحة

شهقت جوانا قائلةً بهلع:

كيف يحدث كل هذا دون أن تتصلي بي؟

لقد اتصلتُ كثيرًا وفي كلِّ مرة يردُّ زوجك المصون ويرفض إيصالي بك بحججٍ واهية، لقد بدأت أكرهه بحق..

اللعين، المهم هل ستذهبين إلى العمل اليوم؟

كلا .. لقد أخذت إجازة، لا أستطيع مواجهةً أحد بهذه الحالة النفسية السيئة، أكاد أجنُّ يا جوانا..

سأكون عندك بعد ساعة

سأنتظرك، إلى اللقاء

****

أسرعت جوانا إلى غرفة النوم وهزَّت ماهر بقوة فاستيقظ وعندما رأى وجهها ابتسم وهو يقول:

صباح الخير حبي

خير، وأيُّ خيرٍ يأتي من ورائك..

استقام جالسًا وقال بفزعٍ:

ما الذي حدث؟

شرعت في هجومها قائلة في حدةٍ:

كيف تسمح لنفسك بأن تمنعَ صديقاتي من التحدث إلي

لم يكن الوقتُ مناسبًا، وبدا لي أنَّها فقط ترغب في الثرثرة الفارغة..

ومن أنت لتحكم أنها فارغة؟؟

أظلمت ملامحه للحظة قبل أن يقول:

لقد كنتِ إمَّا نائمة أو مشغولة بأعمال المنزل....

قاطعته: ولو .. لا يحقُّ لك أن تفعل ذلك

قام من السرير وأمسك بيديها وهو يقول بحنان:

اهدئي.. هل سنختلف من أجل صديقاتك؟

لا تهَّون المسألة يا ماهر، إنَّه اعتداء على الحرية الشخصية، ثمَّ إن صديقاتي اللاتي تستهين بهن كنَّ لي دومًا الشقيقات اللاتي لم تنجبهن أمي، كنَّ الجذع الذي أستند عليه في كلِّ الظروف؛ لذا لن ولن أسمح لك أو لأيِّ كائنٍ كان أن يسيئ إليهن أو يمنعهن عني، هل تفهم؟؟؟

قال بأسفٍ واضحٍ:

أعتذر عمَّا حدث، أرجوكِ اهدئي، ما حدث قد حدث ولن يجدي الغضب شيئًا..

اتَّجهت إلى دولابها تخرج طقمًا صباحيًّا وهي تقول:

رجاء بدِّل ملابسك بسرعة لتوصلني إلى منزل حنين قبل ذهابك إلى العمل..

نظر إلى ساعته متسائلًا:

الآن؟

نعم، أم أنك تريدني أن أترك المسكينة في بؤسها وأنام قريرة العين، هيَّا أسرع

انصاع ماهر لأوامرها وهو يقول بتخاذل:

لا.. فهي الأهمُّ الآن

****

شكَّل وجود جوانا فارقًا كبيرًا بالنسبة لحنين فاليوم هو اليوم المنتظر ومع حلول العصر وصل مازن وزوجته ماري وابنهما مراد الذي أدخل البهجةَ إلى قلبِ عمَّته بمرآه ولكن ما أن أعلن وصول حامد حتى شلَّ الرعبُ حركة حنين ولولا وجود جوانا وماري لانهارت تمامًا ورفضت بعنادٍ تامٍ وضع أي شيء من

أدوات التجميل وبعد لحظات طرق مازن الباب ففتحت له ماري فقال وهو يتحاشى النظر إلى حنين:

أبي يطلب منك تقديم العصير.

رفعت رأسها تمنع عبراتها التي ملأت مقلتيها من التساقط فربَّتت ماري على كتفها مواسية فقالت حنين:

يا إلهي أحسُّ بأصابعه ما تزال تطبق على خناقي إلى الآن.

قالت جوانا بحنان:

كان مجرد حلم يا عزيزتي ثمَّ إنه لا يجب أن يرى منك ضعفًا اليوم..

رفعت إليهما يديها المرتجفتين وقالت:

انظري كيف أرتجف لا أستطيع، لا أستطيع

ضمَّتها جوانا إليها وهي تغالبُ دموعها في حين أدارت ماري وجهها إلى الناحية الأخرى كي لا ترى حنين دموعها وقالت جوانا:

ظننتك أقوى من ذلك يا حنين، أين ذهبت شجاعتك؟ أين إيمانك؟ إنَّها ليست نهاية العالم، هيَّا تَشجَّعي يا عزيزتي..

قالت ماري: هيَّا قبل أنْ يصعد عمِّي إلى هنا..

وفي الطابق السفلي عجزت حنين عن حمل الصينية دون سكب العصير مما جعل ماري تحملها عنها حتى باب الصالون ثمَّ ناولتها إياها وهي تدعو الله أن لا يضعها في موقف محرجٍ أمام هذا الرجل..

وما أن دخلت، ورأى مازن الصينية تهتزُ في يديها حتى أسرع يأخذها منها فجلست في أولِ مقعدٍ صادفها وهي لا تكاد تبصر أو تسمع شيئًا فقد كانت نبضات قلبها تقرع كالطبول وتتعالى في أذنيها. مرت ثوانٍ قبل أن تستعيد حواسها وهو يلقي عليها التحية، لم تستطعِ الرد سوى بهزَّة من رأسها. نظرت إليه فرأت في قاعِ عينيه ما ظنَّت أنَّه شماتة وتشفٍّ وهو يقول لأبيها:

لي كلُّ الفخر أن أرتبط بابنتك يا عمي، إنها أكثر روعة مما قيل لي..

لا شعوريًّا قامت من مكانها مغادرة ووصلت إلى حيث يقفن بانتظارها فارتمت في حضن ماري وهي تقول:

يا إلهي .. إنه مصرٌّ.

ربتت جوانا على ظهرِها وهي تقول:

الحمد لله مرَّ الجزء الأصعب حاولي أن تهدئي قليلًا وإلا سيحدث لك شيء لا سمح الله..

عقبت زوجة أبيها:

إنَّها على هذا الحال طوال الأسبوع وكلُّنا قلقون عليها..

جحدتها حنين بنظرة شكٍّ وتكذيبٍ فأكملت:

أعرف ما تفكرين به، إنه نسيبي، وبالفعل أنا من عرض عليه أمرك أول الأمر، لكن من أين لي أن أعلم أنك سترفضينه أو أنَّه سيتمسك بك بهذا الهوس الجنوني، ثمَّ إنه...

قاطعتها ماري بهدوء:

ليس هذا وقته يا خالتي، جوانا اصعدي مع حنين ودعيها ترتاح

صعدتا وانطرحت حنين على الفراش تبكي وتنوح حتى راحت في سبات مضطرب فخرجت جوانا على أطرافِ أصابِعها بعد أنْ أطفأت المصباح وقالت لماري التي قابلتْها على السلم:

أنا ذاهبة اعتني بها لأجلي.

أسرعت إلى منزلها وهي غير قادرة على توقُّع ردة فعل ماهر على ثورتها الصباحية وغيابها طوال اليوم وما أن فتحت باب شقتها حتى استقبلتها روائح الطعام فدخلت المطبخ قائلة بحذر:

مساء الخير

استدار إليها مبتسمًا وقال: مساء الخير يا حبي

واقترب منها طابعًا قبلة على شفتيها وقال بحبورٍ:

وصلت في الوقتِ المناسب كنت أهمُّ بسكب الطعام..

نظرت إليه مذهولةً وقالت في نفسها:

يا إلهي ويسألون لمَ أحبه! إن طيبته تفوق الحد.

سألها: ما بك؟

ردَّت بابتسامةٍ حلوة: أحبك

اتَّسعت ابتسامته فأكملت:

آسفة لما حدث صباحًا، ربما بالغتُ قليلًا ...

وضع إصبعه على شفتيها يمنعها من الإكمال وقال:

لا بأس، لقد اعتدتُ طبعك الحار، ثمَّ إنَّه خطأي، أحبُّك وأردتُ الاحتفاظ بك لي وحدي أطول وقت ممكن ولكن يبدو أنَّ هذا غير ممكن فالجميع يحبك..

طوَّقت عنقه بذراعيها وقالت:

- لا أحد يحبُّني مثل حبّك يا حبي الأثير، إنَّ طيبتك هذه ستفسد اخلاقي

قال وهو يسحبُ لها كرسي المائدة:

اجلسي قبل أن يبرد الطعام، آه بالمناسبة ما الذي حدث لصديقتك اليوم؟؟

جلست وسردت له نبذة مختصرة عمَّا حدث فقال بتأثرٍ: يا للمسكينة

وضعت الشوكة من يدها وهي تقول: شكرًا يا حبيبي على هذه الوجبة الرائعة، لا أدري ماذا كنت سأفعل من دونك كنت في غاية التعب..

أمسك لها الكرسي لتقوم قائلًا: يا حبي الأبدي أنا موجودٌ هنا من أجل راحتك، اذهبي واغتسلي ريثما أغسل الأطباق وأعدُّ القهوة، فأنت اليوم ملكة..

نظرت إليه متسائلة: تبدو في غاية النشاط ألم تذهب إلى العمل اليوم؟؟

هزَّ رأسه نافيًا وهو يقول: لم أكن في مزاجٍ يسمح لي العمل

فتحت فمها لكنَّه دفعها برفق إلى الخارج قائلًا:

هل سنبدأ بالمحاضرات.. هيا اذهبي

وعندما خرجت من الحمام وجدته في غرفة النوم وناولها قهوتها وهو يثرثر معها وما أن أنهت قهوتها أمسكت بالفرشاة لتمشيط شعرها المبتل اقترب منها وهو يقول:

هل قال لك أحدٌ إنك أكثر جمالًا وشعرك مبتلًّا؟

ابتسمتْ له عبر المرآة وردَّت:

أنت فقط..

أمسك بالفرشاة من يدها وقال: دعيني أقوم بذلك عنك يا حبِّي..

فتركت له الفرشاة وما هي إلا لحظات حتى ألقاها وهو يشمُّ شعرها ويدفن وجهه بين طياته وهو يهمس بنعومة: يا إلهي .. كم أحبك

استدارت إليه فألقى بنفسه في حضنها قائلًا:

دعيني أستكن في موطن الدفء الذي أعشقه

طوقته بذراعيها حوله وأصابعها تداعب خصلات شعره الغزير...

****

استيقظت حنين شاعرة بسكينة داخلية غريبة حتى أنَّها تساءلت: هل ما مرَّت به حلمًا أم حقيقة؟ أخذت تنظر لأولِّ مرة للأمور من زاوية جديدة. هل ستكون نهاية العالم في زواجها من حامد؟ ربما لا يكون الشخص الذي حلمت أن تمضي بقية حياتها معه ولكن لن يكون أسوأ الرجال، ماذا لو رفضته ولم يتقدم لها أحدٌ آخرُ؟ ماذا لو انتهى بها الأمر عانسًا خاضعةً لزوجة أبيها وإخوانها الصغار؟؟مهما كان الأمر قاسيًا مع حامد سيكون أفضل من هذا، ثمَّ إنها ستعتاد الأمر في النهاية، ثمَّ إن ..... قطع حبل أفكارها جلبة في الطابق السفلي فأسرعت إلى الأسفل فتناهي إلى سمعها صوت أبيها وهو يقول:

هل عدتَ لمعارضتي مرة أخرى يا فتى...

أسرع مازن يقول:

ليس هذا ما قصدته يا أبي، تعرف أنني وحنين لن نعصي لك أمرًا

صرخت أم حنين: هذا ليس معقولًا يا زايد إنها ابنتي الوحيدة وأريد لها السعادة..

قال الأب بذات اللهجة الصارمة:

إنها أيضًا ابنتي الوحيدة وأريد أن أطمئن عليها قبل أن أموت

قال مازن:

العمر الطويل لك يا أبي

أكمل الأب:

كم بقي من العمر؟ أتظنون أنني أريد التخلص منها؟ أو أنني سئمت وجودها؟ كل ما أريده أنْ أراها زوجةً سعيدة وأموت بعدها قرير العين..

قالت أمها: سعيدة مع حامد؟؟ مستحيل، اسمع دعها تأتي وتعيش معي لفترة إن كان وجودها أمامك يجعلك تتخيلها عانسًا ونؤجل موضوع الزواج لما بعد..

الأب: منذ سنوات لم يتقدم لها أحد، وكلُّ من تقدموا لها في السابق كانوا دون المستوى لذا انتظار سنوات أخرى لن يغيِّر شيئًا، ولقد سبقَ وتحدثنا في هذا الموضوع ستتزوج حامد وسيكون عقد القران الأسبوع المقبل قضي الأمر الذي فيه تستفتيان..

الأمُّ: لا تستطيع أن تجبرها، إنها لا تريده، ألا ترى أنَّ الفتاة على وشك الانهيار، فلا تجعلنا نضعك في موقفٍ محرجٍ بسبب عنادك..

الأب: يمكنك أن تجربي حظك وسيكون مصير ابنتك حينئذا مروعًا

التفت إلى مازن وقال بحدة: اذهب وأحضر حنين

انتفض مازن وقال بتردد: ماذا؟ إنَّها نائمة

صرخ الأب: إذا اذهب وأيقظها

دخلت حنين الحجرة قائلة: لا داعي أنا هنا

واتجهت إلى أمها تسلِّم عليها قبل أن تلتفت إلى أبيها قائلة:

ماذا كنت تريد يا أبي؟؟

قال الأب بلهجته القوية الصارمة:

اسمعي يا حنين، أنتِ مخيَّرة بين الزواج بحامد، وبين نسيان موضوع العمل والصديقات والزيارات والخروج وأنت تعرفين ما أعني..

تدخَّلت الأم:

لا تهتمي لما يقول، لن يستطيع أن يجبرك على شيء..

قال الأب بصرامة:

جمانة دعي الفتاة تأخذ قرارها بنفسها لأنَّها هي وحدها من يتحمل تبعات هذا القرار

قال مازن بخفوت: لكن يا أبي هذا ظلم..

رفعت حنين رأسها وقالت: سأتزوج حامد.

صرخت الأم: آه.. لا ... لا تدمري حياتك

خفض مازن بصره وقد بان على وجهه الألم دون أن يجد ما يقول في حين تنهَّد الأب بارتياح وقال:

هذه فتاتي الطيبة.

انسحبت حنين من الغرفة دون أن تنبس ببنت شفة فلحقت بها أمها وضمتها إليها قائلة بحنان وهي تمسد على شعرها:

صغيرتي .. لمَ استسلمت؟؟

لن يتضرر أحدٌ إن ظللت أنطح رأسي في الصخر سواي..

هل ظننت أنِّي ومازن سنتخلى عنك، سنجعله يغير رأيه عاجلًا أم آجلًا، إنَّه طيبُ القلب مهما بدا قاسيًا.

لكنَّه يستطيع أن يكون ذلك متى شاء، لن أحتمل البقاء حبيسةً بين جدران المنزل دون هدف، دون صديقات، دون حياة، والأهم دون رضا أبي، نظراته تكاد تقتلني لأنِّي أعرف أنه يتألم ولكنه يرى أنَّ هذا هو الأصلح لي..

مهما يكنْ، ما كان لك أن تستعجلي، مازال أمامنا وقت..

حاولت أن تبتسم وهي تقول:

لا بأس يا أمي فقد شعرت بالراحة والسكينة وأنا أرفع الراية البيضاء

ابتسمت الأم وقالت: من يراك الآن لا يصدِّق أنَّك ذات الفتاة التي كانت في حالةِ هستيريا أمس..

آسفة يا أمي إن كنت أتعبتك بالمجيء إلى هنا عبثًا، كنت خارجة عن الوعي اعذريني

لا تقولي هذا، تعرفين أنه تسرني دومًا رؤيتك، لكن هل أنت واثقة من قرارك، أمْ أنك تعبتِ من الحرب النفسية؟

صدِّقيني كنت مصممة على الحرب إلى مالا نهاية، لكن فجأة هبط عليَّ وحي الاستسلام

قبلتها أمها وقالت: يا إلهي لم أكنْ أريد لك مثل هذا الزوج، ولكن يبدو أنَّها مشيئة الله

وأنا أيضًا كانت لي أحلامي، لكن كما قال أبي إن الخيارات أصبحت محدودة أمامي مع تقدمي في العمر..

لا تقولي هذا فما زلتِ صغيرةً وجميلة..

شكرًا يا أمي

****

وصلت سارة وهشام من شهر العسل وبمجرد أن وضعا حقائبهم أصرت سارة على الذهاب إلى البيت الكبير وما أن وصلوا إلى فناء القصر حتى تأوَّه هشام مستنكرًا: إنَّه الاجتماع الأسبوعي، لابدَّ أن عبير والصغار هنا..

ابتسمت في غموض فضاقت عيناه وهو يقول:

ألهذا أتيتِ؟

لم ترد ونزلت من السيارة مسرعة إلى الداخل. بشكلٍ لم تتوقعه كان الترحيبُ بها صاخبًا ماعدا شفيقة وعبير التي أسرعت إلى الخارج لملاقاة هشام وعادت معه إلى الداخل متأبطة ذراعه والابتسامة المشرقة تملأ محياها وهو أيضًا مبتسم. وعلى مائدة العشاء سألت مها:

كيف كان شهر العسل؟

افترَّ ثغر سارة عن ابتسامة عريضة وهي تقول:

أروع من أروع أحلامي..

ففغر هشام فاه دهشةً وكشَّرت عبير في حين أكملت سارة برومانسية حالمة:

لقد سبق وزرت الساحل الصيف الماضي ولكن مع هشام كلَّ شيءٍ له مذاق خاص، كل مكان له ذكرى جميلة أليس كذلك يا هشومي؟

بهت هشام وتحت نظرات والده أُسقط في يده وقال بتلعثمٍّ: أجل، أجل

شحب وجه عبير حتى قارب شحوب الموتى وهي ترمق هشام نظرات نارية. سألت مايا:

وأين ذهبتما؟

ردَّت سارة بسرعة:

لم نترك مكانًا يعتب علينا، مسارح، سينما، حدائق، أسواق، حتى المكتبة العامة ذهبنا إليها

قال الأب في حبور:

أبدًا لم أتخيل هشام يرافق دودةَ كتب مثلك..

نظرت لهشام بابتسامة حلوة وقالت:

لم لا؟؟ إن هشام الطيبة بذاتها

انصبَّت النظرات على هشام بين مصدقٍ ومكذبٍ قالت شفيقة ساخرة:

إذًا فقد استطعتِ إخراج أفضل ما فيه بهذه السرعة..

قبل أن تجيب سارة قامت عبير من مكانها محدثة ضجة قوية وتركت المائدة دون أن تعتذر كما تقتضي أصول الاتيكيت وبسرعة عادت النظرات إلى هشام لترى ردة فعله لكنَّه تجاهل الأمر وصبَّ اهتمامه على الطبق الذي أمامه. وضعت سارة الفوطة من يدها وقالت لأبناء هشام: تعالوا لتروا الهدايا التي أحضرها بابا لكم..

اتَّسعت عينا هشام دليل المفاجأة لكنه أسرع يخفض بصره كي لا يلاحظ أحد وبالذات والده ما بعينيه، خرج الأطفال وراء سارة فرحين وسرعان ما عادوا إلى الغرفة كلٌّ بيده هدية يفتحها وفي طريقها إلى الطابق الأعلى رأت عبير ترمقها شزرًا فقالت ساخرة:

لو كانت النظرات تقتل لقتلتني نظراتك..

لوت عبير فمها اشمئزازًا قائلة:

لستِ سوى سارقةِ أزواج..

ضحكت سارة بسخرية وقالت:

الأفضل أن توفِّري هذه النظرات لهشام فهو من تزوجني ولست أنا إن كنت تذكرين ذلك..

إنَّه زوجي أولًا

حقًّا؟ لكن يا عزيزتي هذا لا يعني أنَّك استطعتِ احتواءه وتوفير السعادة له، وإلَّا لما تزوجني..

أيتها الحمقاء سيطلقك..

حقًّا؟ لقد اتَّفقنا أنا وهشام على الاحتفال بعيد زواجنا الأول في باريس..

كاذبة، هشام قال....

قاطعتها ضاحكة: دعينا مما قال هشام فالرجال دائمًا يقولون مالا يفعلون، والأيام بيننا

بدأت الدموع تتجمع في مقلتيها فقالت سارة بمكر:

لن تجدي الدموع شيئًا يا صغيرتي..

فارتدت عبير إلى الداخل وبالطبع إلى هشام وأكملت سارة طريقها إلى الأعلى وعندما كانت نازلة استوقفها هشام والشرار يتطاير من عينيه قائلًا:

أيتها اللعينة، ماذا فعلتِ لعبير حتى أبكيتها؟

زالت ابتسامتها قبل أن تقول بجدية:

اسمع يا هشام لن أسمح لك أو لعبير بمعاملتي بغير الاحترام الذي أستحقه..

وقبل أن يقول شيئًا أكملت وهي تبتسم:

- والأفضل أن تبتسم فأبي يتجه نحونا وكما تعلم "الأفضل لسارة"

ضاقت عيناه وقال بشكٍّ: أنت تعلمين؟

اتَّسعت ابتسامتها وقالت: نعم أعلم، لكن أبي لم يخبرني سمعت حديثكما مصادفة

زفر في ضيق شديد: إنَّه ليس أباك

وصل الأب إليهما وقال: ما بال العروسان يتجادلان؟

ردَّت سارة: لا يحبذ هشام أن أناديك أبي

ضمَّها الأب اليه بحنان وقال: لطالما تمنيتُ ذلك

قال هشام في غضبٍ: أبي، أنت تدللها كثيرًا

أحاطت سارة كتف عمّها بذراعها وقالت:

إنَّه غيورٌ، دعه وتعال أريك العباءة المطرزة التي أحضرتها لك

وتركه الاثنان وهو يكاد يتميز من الغيظ..

****

اتَّصلت سارة بمنزل حنين لتعلمها بعودتها فردَّ والدها كالعادة وقال مرحبًا: أهلًا سارة مرَّ وقتٌ طويلٌ ولم أسمع صوتك...

ردَّت بسعادة:

إنهما فقط أسبوعان، كنت مسافرة لشهر العسل وها قد عدتُ للتو

بالرفاء والبنين، أنا متأكدٌ أنَّ حنين افتقدتك بشكلٍ هائلٍ سأوصلك بها.

فأسرعت تقول: قبل أن توصلني بها لي رجاءً صغير عندك، أرجوك...

أعرف ما تريدين، أن تزورك حنين غدًا أليس كذلك؟ لك ما تريدين يا بنيتي..

أشكرك يا عمِّي، أرجو أن توصلني بها...

بعد لحظات سمعت صوت حنين وهي تقول بفرحةٍ عارمة:

سارة لا أصدِّق، أخيرًا عدتِ، ظننت أنَّ الشمس لن تشرق ثانية.

هل أنا مهمة إلى هذا الحد؟؟ تبدين سعيدة بعودتي..

سعيدة؟ بل أكثر من سعيدة، آه لو تعلمين ما حدث في غيابك

وهل حدث شيءٌ مهمٌ في غيابي؟

بل أشياء، هل ستأتين غدًا إلي..

ألا تريدين رؤية شقتي، لقد سبق وطلبت هذا من والدك ووافق، لذا سنتناول الغداء معًا أنا وأنت وجوانا، هيَّا أخبريني ما الذي حدث؟؟

لن يجدي الحديث في الهاتف، أريد أن أراكِ وأبكي على كتفك حظي العاثر..

لقد شغلتِ بالي ماذا، اسمعي سأعاود الاتصال بك لقد أرسل أبي في طلبي..

أبوك؟

أقصد عمي آدم

أصبح أبي، يا للروعة..

وضعت سارة السماعة وأسرعت إلى الأسفل وقالت: أرسلت في طلبي يا أبي، ماذا أردت؟

قال هشام: نحن ذاهبون، استعدي لأوصلك إلى المنزل..

رأت في عينيه نظرة متوعدة فقالت بابتسامة عذبة: أنت لن تبيت عندي فدعني أبقى هنا.

حسنًا كما تشائين..

واقترب منها بصورة تبدو للآخرين وكأنَّه يقبلها وقال بهمسٍ: لن ينقذك الهرب مما فعلته اليوم

ضحكت ضحكة صافية وردَّت بهمس: لم أعتد الهرب يومًا، وإن كان هناك من يتوَّجب عليه محاولة الهرب فهو أنت، لأنَّك ذاهبٌ إلى وادي الموت، ثمَّ إنَّك بوقفتك هذه تأججُ غضبها أكثر

انتبه لوقفته فاعتدل بسرعة واستدار يبحث ببصره عن عبير استغلت سارة الفرصة وطبعت قبلة على خدِّه بسرعة وهي تقول: تصبح على خير يا حبِّي..

رأت عبير ذلك فاشتعلت نيران الغيرة في عينيها وقالت وهي تصرُّ على أسنانها من الغيظ:

هيَّا يا عزيزي، أما أنَّكَ ستقفُ هكذا كالأبله طويلًا..

****

ما إن بدأ الشمل يتفرَّق حتى نادى آدم سارة قائلًا:

هيَّا يا بنتي ساعديني لأذهب إلى غرفتي

أسرعت سارة تستجيب لطلبه في حين رمقتها مها بنظرة ساخرة وعندما وضعته في السرير بدا لها ضعيفًا للغاية فجلست قبالته وسألته:

ما بك يا أبي؟ هل أنت على ما يرام؟؟

أنا بخير، قولي لي هل أنتِ سعيدة مع هشام؟ أخشى أنني ظلمتك حين سمحت لهذه الزيجة بالاستمرار..

آه، يا أبي توقَّف عن تأنيب نفسك، لقد كانت هذه الزيجة اختياري، ألا تذكر؟

هل يسيئ معاملتك؟ فقط أخبريني وسترين ما أفعل به..

ضحكت في محاولة لتبديد توتر الأب وقالت:

من الرائع أن أراك تهزه ليفيق، ولكن لن ينجح الأمر بيننا بهذه الطريقة، أريده أن يحبني أنا، لذاتي، لا مجبَرًا، ولا مكرَهًا سواء كنت جميلة أو قبيحة، أن يحسن معاملتي في غيابك أو حضورك، أن يحترمني في وجود عبير أو غيابها، فقط لأنني سارة..

همَّ الأب بقول شيء ما فوضعت سارة يدها على فمه قائلة:

أرجوك، أريدك أنْ تزيل كلَّ الهواجس والهموم من عقلك وتنام وترتاح، إنها معركتي وبإذن الله لن أهزم فيها أبدًا، والآن نام وسأكون في انتظارِك صباحًا في المكتبة..

ليوفقك الله يا بنيتي..

طبعت قبلةً على جبينه وأطفأت الأضواء وخرجت واتَّجهت إلى حجرتها دون أن تعبأ بالشمل المجتمع بالأسفل.

****

ما إن دخل هشام وعبير منزلهما حتى همس هشام لها:

ضعي الأطفال في أسرَّتهم وتعالي بسرعة..

نظرت إليه عبير نظرة مبهمة وذهبت مع أطفالها وتوجه هشام إلى غرفة النوم ملقيًا بنفسه بكامل ملابسه على السرير من التعبِ وإرهاق السفر وما هي إلا لحظات حتى دخلت عبير وعندما مرَّت بجوار السرير أمسك بيدها يشدُّها إليه قائلًا:

تعالي يا حبيبتي، هل افتقدتني؟

قالت بتهكمٍ: أنا هنا أكاد أموت شوقًا إليك وأنت تمرح مع عروسك الشمطاء..

حاولَ أن يضمَّها إليه لكن ها انتفضت وقالت بحدة:

ابتعد عني، اتركني أيُّها الخائن النذل الأناني..

حاول مجددًا التقرب منها قائلًا:

أهكذا تستقبلين زوجك الغائب؟

قامت من السرير وهي تصرخ:

وأنت أهكذا تنفذ وعدك لي؟، "عندما نعود من شهر العسل ستكون راغبة أشد الرغبة في الطلاق" ثمَّ تذهب معها وتعودان وهي تكاد تطير فرحًا وأنسًا، أهذا ما اتفقنا عليه؟؟ ها ..أخبرني

حاول أن يقول بصوتٍ هادئ قدر الإمكان:

إنها تكذب، لم نذهب إلى أيِّ مكان من الأماكن التي ذكرتها، لقد قضينا الأيام في الفندق هي تخرج وحدها وأنا أخرج وحدي..

يا للروعة، وتريدني أن أصدِّق أن امرأة تُعامل كما قلت ثمَّ تعود وتتغزل بمن فعل ذلك بها أمام الجميع، هذا لا يعقل

انفعل وقال: هذا لأنَّها امرأة أريبة، وليست سطحية التفكير مثلك

أريبة؟، وماذا أيضًا، ذكية، مثقفة؟؟ هل ستبدأ بالتغزل بها أمامي...

توقَّفي عن هذا الهراء، فأنا في غاية التعب...

طبعًا ستكون متعبًا بعد أن استنزفت تلك الغانية الشمطاء كلَّ طاقتك..

صرخ في غضب: هذا لا يطاق كلما دخلت المنزل تبدئين بالشجار والخصام، ما هذا النكد؟؟

الآن أنا النكدية، المملة، سطحية التفكير.. وماذا أيضًا؟

حاول تهدئة الوضع فاقترب منها قائلًا:

اهدئي يا حبيبتي، لا تفسدي ليلتنا..

دفعتْه عنها بغلظة قائلة:

-اتركني، اخرج من غرفتي، لا أريدُ أنْ أراك أو حتى أن أسمع صوتك أيها الخائن الغشَّاش..

يا عبير أنت حبي الأول، وأم أولادي... و....

قاطعته بجفاء: قلت اخرج من غرفتي

أهكذا تحاولين كسب ودي؟

قالت من بين دموعها: ولماذا أحاول كسب ودك وأنت من باعني واشترى أخرى..

زفر بضيق: أف، الكلام ضائع معك، أنت لا تفهمين ..

أنا لا أفهم، ولا أريد أن افهم فاغرب عن وجهي

فتح الدولاب يبحث عن بطانية بينما قالت: لماذا تنام هنا؟ اذهب إليها

رد قبل أن يخرج: كنت سأذهب لولا أنها في بيت أبي..

وصفق الباب خلفه بقوة وخرج إلى غرفة نوم الضيوف وهو يلعن زوجتيه وبالأخصِّ سارة لكذبتها الحقيرة..

****

دخل هشام شقَّة سارة وصورة الغضب متجسِّدة على وجهه وقال بغلٍّ ما أن رأى سارة:

يا للروعة تجلسين هنا بكلِّ هدوء بعد أن أشعلتِ النار في حياتي..

رفعت بصرها إليه فرأت عينيه تقدح شررًا فأجابت بهدوء:

وأنت جئت الان تشعل النار في الجزء الآخر من حياتك..

تأججَّ غضبه من برودها فقال بحدِّةٍ:

توقفي عن ادعاء البرود..

وضعت الكتاب من يدها واستقامت واقفة قائلة بابتسامة عذبة:

تريد الشجار؟؟ آسفة لست مستعدة لهذا الهراء كلَّ يوم، فهل تريد شيئًا آخر؟

لم يستطع أن يرفع بصره عن ثغرها المبتسم فزجر نفسه:

توقف عن هذا الغباء، إنها ليست جميلة حتى، لكنَّه عاد يقول لنفسه: لكن ابتسامتها خلابة، ثمَّ قال لها بحدة:

أريد أن أعرف ما الذي ستجنينه من سيل الأكاذيب التي أطلقتها البارحة؟

اتَّسعت ابتسامتها وهي تقول:

إنها ليست أكاذيب، إنَّه شهر عسل كما تمنيت وخططتُ له مرات ومرات، ثمَّ لماذا يتوجب عليَّ أن أذلَّ نفسي أمامهم بقولِ الحقيقة؟

وحتى لا تذلِّي نفسك تلقين بي إلى الجحيم

ضحكت بسخرية وقالت:

كلُّ هذا الانزعاج من أجل عيون السنيورة عبير، لقد خاب أملي فيك يا هشام لم أظن ولو للحظة أنَّ امرأة تفرض سلطانها عليك بهذه الطريقة الفجة..

قال بحدة:

هذا ليس صحيحًا

ردَّت بسخرية:

ليس صحيحًا؟ إذًا لم أنت منزعج إلى هذا الحد؟

لقد بدوت مغفلًا

ضاقت عيناها وهي تقول:

مغفلًا؟!! لأني أظهرتك لها ولعائلتك رجلًا شهمًا عادلًا من غير تحيّز أو تجنٍ، لأني أظهرتك قادرًا على السعادة بعيدًا عن جناحها..

وما الفرق؟؟ انتقلت من جناحها إلى جناحك

كلانا يعلم أنَّ هذا غير صحيح، مع أنَّه من الطبيعي أن تكون سعيدًا مع زوجتك الجديدة ولو لأيام قليلة قبل أن يعيدك الحنين إلى حياتك القديمة، بغضِّ النظر عن عبير الجميع ينتظر ليرى كيف ستتصرف؟ بنبلٍ وشهامةٍ؟؟ أم بخسَّةٍ ودناءة؟ وأنا أظهرتك الشهم النبيل لذا اشكرني ولو قليلًا..

قال باشمئزاز: بالأكاذيب؟!

بالله عليك توقَّف عن ادعاء المثالية، اسمع يا هشام لو كنتُ أخبرتهم الحقيقة هل كان هذا سيرضيك؟

قبل أن يتكلم أكملت: كان سيرضي عبير حتمًا أمَّا أنت فلا وكنت ستقف أمامي هكذا و بذات الغضب وتقول ما الذي ستجنيه من قول الحقائق عن حياتِنا الخاصة؟؟ أليس كذلك؟؟

ظلَّ صامتًا فقالت: ما حدث قد حدث وقد حفظ كرامة كلينا، واسترخِ ريثما أعدُّ لك كوبًا من الشاي يهدئ أعصابك فكما يبدو قضيت ليلةً سوداء...

جلس يراقبها تختال في طقمٍ منزلي أنيق وبعد لحظات نادته من المطبخ وعندما ذهب يستطلع وجد مائدة الإفطار جاهزة فقال مندهشًا:

ما هذا؟؟ لقد تحدثتِ عن كوب شاي..

ابتسمت بعذوبة وقالت: تفضَّل، لن يجدي الشاي شيئًا في معدة فارغة..

جلس إلى المائد وجلست قبالته وبدأ يأكل بشهيَّةٍ وبعد برهة سألها: لم لا تأكلين؟؟

لن يرحب خصري بإفطارين متتالين ثمَّ غداء..

لكن من يهتم لو...

وصمت فقالت: أكمل

ليس مهمًا

ضحكت وقالت: لم أكن أظنُّ أنك تراعي مشاعري..

لم يكن شيئًا سيئًا

أردت القول من يهتم لو زاد وزنك، بمعنى آخر أنا لا أهتم بك أبدًا سواء كنت جميلة أو قبيحة، رشيقة أو سمينة، أليس هذا ما جال في خاطرك؟

أراد أن يقول إنه يهتمُّ وإنه يحبُّ أناقتها لكنَّه ردَّ بغباء: بلى..

إذًا لابدَّ أنَّك قلت في نفسك ونحن في شهر العسل هذه الفتاة مجنونة تتزين وتتبرج كلَّ يوم وهي تعرف أنَّني حتى لا أنظر إليها..

ابتسمَ وقال: بصراحة جال في خاطري شيٌء من هذا القبيل..

أنا مسرورة لأننا فتحنا هذا الموضوع لتعلم أنني أتزيَّن لنفسي لا لإغوائك، إنني أحبُّ أن أدلل نفسي...

قال دون أن يتخلى عن مرحه:

يا لك من قاسية، لقد حطَّمتِ كبرياء الرجل فيَّ، أتعلمين معك دائما تتبسط الأمور؟

وماذا أستفيدُ من عقدها؟ هل أحضر لك الشاي الآن أم بعد الاستحمام؟

لا هذا ولا ذاك، لدي عملٌ يتوجَّب عليَّ القيام به..

ماذا؟؟ لن تذهب إلى أيِّ مكان بهذا المنظر..

ما به منظري؟

لحية نامية، عيون محمرة، وإن كنت لاحظت ما زلتَ في نفس الملابس من البارحة.. والأهمُّ أنَّك بحاجة إلى النوم..

أرى أنَّك مهتمة لأمري..

ابتسمت:

بالطبع مهتمة، ماذا تريد أن يقول عني الناس؟ أوصلتك إلى حافَّة الجنون بهذه السرعة لتخرج بهذا الشكل..

قام من مكانه وهو يقول بمرح:

لا يمكن أن أعرف جدَّك من هزلك

إذًا الأفضل أن تأخذَ حمامًا سريعًا وتحاول النوم قليلًا..

اقترب منها واضعًا يديه حول خصرها يشدُّها إليه قائلًا:

لمَ لا تأتين معي؟

سألت بدلالٍ: إلى أين؟

عانقها بحرارة وهو يضمُّها إليه أكثر فبادلتْه العناق بذات الحرارة فقال بصوتٍ مختلفٍ مفعمٍ بالرغبة:

لننام قليلًا يا عزيزتي..

ابتعدت عنه قليلًا دون أن تتركه: لا يمكن فأنا أنتظر صديقاتي في أيِّ لحظة، ثمَّ إنك مجهدٌ للغاية...

تركها وقد بان على وجهه خيبة الأمل وقال: حسنًا كما تشائين..

ذهبت تحضر له المناشف والملابس بعد أن دفعته بلطفٍ إلى داخل الحمام. بمجرد أن خرجت من مدار عينيه بدأ الصراع داخله من جديد: ما هذا الذي تفعله؟ أليست هذه من خرجت من بيتك خصيصًا لتتشاجر معها وها أنت ذا تكاد تموت توقًا إليها؟ لكنني بشر ومن الطبيعي أن أخضع للتوق البدائي من حين لآخر، توق بدائي؟ لكنك لم تكن توَّاقًا إلى عبير البارحة بذات الشغف؟ اعترف ما الذي يحدث؟ هل ستطويك تحت

جناحها بهذه السهولة؟ هل ستسمح لها بالانتصار بعد أن حرضت أباك عليك؟، أبدًا كلُّ ما أحتاجه بعض الوقت لإقناع أبي بأنَّ هذه الزيجة مجحفة بحقي وبحقها عندها أطلقها غير مأسوفا عليها لكنَّها لا تجعل الأمر سهلًا وعندما عادت بالأشياء أدركتْ من ملامِحه أنَّه عاد إلى طبيعته الأولى فغادرت مباشرة دون أي كلمة وهي تفكر أنَّ الطريق مازال طويلًا أمامها...

****

بينما سارة تضع اللمسات الأخيرة على الغداء المحضر رنَّ هاتفها وعندما رفعته وجدته رقمًا غريب ففتحت الخط قائلة بصوت هادئ:

مرحبًا

تسللَّ الصوت كالصاعقة من الطرف الأخير يقول:

مرحبًا

فانتفضت سارة وتهاوت على أقرب مقعدٍ إليها وهي تقول:

طارق؟!

اتَّصلت مهنئًا لك على زواجك وعودتك سالمة من شهر العسل..

وكيف عرفت أنني عدت؟

أخبرتني جوانا وقالت إن زوجك سيكون عند زوجته الأولى..

الحقيقة إنَّه هنا

هنا؟؟؟ إذًا لم يطق صبرًا في البعد عنك، يبدو أنَّك لم تضيعي أيام العسل سدى، وقد أصبحنا في طيِّ النسيان...

آه، يا طارق ليس الأمر كما تتصور..

قال بغضبٍ غير مبرر:

أتصور؟ هل يقبِّلك كما كنت أقبِّلك بشغف ولهفة؟ هل تنسين العالم بين ذراعيه؟ وهل...

قاطعته وهي تحاول ألا تتذكر:

طارق توقف، إنَّه زوجي وله كامل الحق فيَّ.

أحسَّت بنياط قلبه تتقطع وهو يقول: كيف أمكنك ذلك؟ هل سلمتِ نفسك له لمجرد أنه زوجك؟ إنَّه حتى لا يحبك

ضحكت بسخرية مريرة: وهل شفع لي الحب عندك؟ كنت أطوع من بنانك فماذا كانت النتيجة؟ والآن لا تريدني أن أكون لغيرك، ما هذه السخافة؟

آه، يا حبِّي تعرفين أسبابي

أسبابك تلك تركت في قلبي جرحًا لن يشفي، وربما لن يستطيع أن يحبَّ مرة أخرى

أقسى ما في الأمر أنني كدت أموت ليلة زواجك حتى أنني تمنيت أن أطبق بيدي على عنق زوجك وأستعيدك منه..

وأين ذهب كلامك العقلاني عن بناء حياة جديدة، عن نسيان الماضي؟

اسمعي أريد أن أراك...

سألت بحذرٍ: ولماذا؟!

قال بشغفٍ:

أريد أن أملأ ناظري بمحياك، أريد أن أضمَّك إلى صدري، وأريد...

سأكذب إن قلت إنِّي لا أتمنى ذلك، لكنِّي لن أضعف مجددًا من أجلك، ولن أهدر كرامتي مجددًا من أجلك، ولماذا؟ لأذوقَ في النهاية طعم الإذلال..

دون أن تنتظر أيَّ جوابٍ منه أقفلت الخط وبقيت لدقائق ترتجف والألم يعتصر قلبها لا تدري من ذكرى الحب أم من ذكرى الألم؟!

****

وصلت حنين وجوانا فارتمت الأولى في حضنها في عناقٍ حارٍ أبعدتها سارة قليلًا لتنظر إليها بشوقٍ ثمَّ عادت تضمها إليها مرةً أخرى وهي تقول:

يا إلهي لم أتصور أنني سأفتقدك إلى هذا الحد؟!!

ضربت جوانا الأرض في حركة طفولية قائلة:

ما هذه التفرقة؟ لقد غبت عنا نحن الاثنتان، دعي لي بعض الحب يا حنين..

احتضنتها سارة وهي تقول بودٍ:

يجب ألا تغاري فلك نصف القلب كما لها..

قالت جوانا بحبور:

للحقِّ غيابك ترك فجوة عميقة في حياتنا ولن

قاطعتها سارة:

ما بك؟ حرارتك مرتفعة؟

حقًّا؟ لم ألحظ ذلك

اقتادتهن إلى الصالون وجلسن فبادرت سارة تقول بلهفة وهي تمسك بيد حنين:

ما الذي حدث في غيابي؟ لقد توجَّس قلبي من حديثك بالأمس..

غامت ملامح حنين وبدأت تروي ما حدث بالتفضيل الممل قبل أن تختم حديثها بقولها:

وأخيرًا أعلنت استسلامي ورضخت للأمر الواقع.

صرخت الاثنتان: ماذا؟ مستحيل، لا يمكن أن تكوني جادة.

أسدلت حنين أهدابها وهي تقول: بل أنا كذلك.

رقَّ صوت سارة وهي تلمسُ الحزن العميق في صوتها وقالت:

ولكن لماذا؟ لماذا سلَّمتِ بهذه السرعة؟

وبماذا سيفيد إطالة زمن المعركة ؟؟ لن أعيد كلامي الذي طالما رددته على مسامعكما عن انتهاز الفرص وتصاريف القدر والحكمة الإلهية التي تخفى علينا. ولكن سأسألك سؤالًا بسيطًا هل ستتحملين العيش دون عمل، دون هدف، دون أصدقاء، دون حرية في الخروج؟ والأهم هل ستتحملين أن يتحكم فيك الصغير والكبير تحت ضغط العوز المادي وتمتهن كرامتك لأتفه المطالب؟!

صمتت سارة وهي تتذكر ما سبق ومرَّت به عند إخوانها من أبيها في حين هتفت جوانا:

كلُّ هذا هراء، ولا يمكن أن يحدث أبدًا

اشتعل الغضب في عيني حنين فصرخت بانفعالٍ:

من السهل اعتبار كلِّ هذا هراء وأنت تنعمين بأسرة متماسكة متحابة مستعدة للتضحية في سبيل راحتك، وزوجٌ متيم متذلل في حبك، أنت يا صغيرتي مولودة وفي فمك معلقة من ذهب فكيف لك أن تفهمي ما نعانيه نحن أبناء الأسر المتفككة من بؤس وعناء؟

أمسكت سارة بيدها بلطفٍ وقالت:

اهدئي يا عزيزتي، قضي الأمر..

قالت جوانا معتذرة:

أنا آسفة يا حنين، ولكن لا تظنِّي أبدًا أنني غير مدركة أو مقدرة لما أنتِ فيه

استأنفت سارة الحديث بعد صمتٍ قصير وهي تنظر إلى حنين:

هل أنت مدركة لحجم الصعوبات التي ستواجهينها، ليس بينك وبينه فقط بل بينك وبين كل معارفك الاستعلاء والتشفي والامتهان وأحيانًا حتى الاحتقار، إنَّها حرب أعصاب..

ابتسمت بعينين دامعتين قائلة:

أنا مثلك الشجاعة لا تنقصني، ثمَّ إنني أعرف أنَّه يحبني وحتى إن غلف هذا الحب بعض الكره، ومع ذلك أكاد أموت خوفًا من الكوابيس التي تطاردني كلما غفت عيني

يا الهي لمَ الحياة بهذه القسوة؟!

لم اعتبرتها قسوة؟ ربما كان درسًا يعلِّمُنا كيف ننتزع السعادة من بين أنياب الشقاء.. أرجوكما لنغير الموضوع فقد خرجت لأنسى، دعينا نعرف أخبار العروس وشهر العسل

قالت سارة بابتهاج: أخباري ستحصلان عليها ونحن على المائدة، هيَّا تعالا لتساعداني

بدأ جو المرح يعودُ إليهن أثناء تناول الطعام وسارة تروي ما حدث البارحة في البيت الكبير فتعالت الضحكات وقالت جوانا: يا لكِ من شريرةٍ...

قالت حنين ممازحة: مسكينة عبير أوقعها حظها العاثر في طريقك..

قالت سارة ضاحكة: ماذا؟ المفترض بما أنك صديقتي المقربة أن تكوني في صفِّي

ردَّت حنين بسرعة: بالطبع أنا في صفِّك، لكن دائمًا الزوجة الثانية، وأنا سأكون كذلك هي الظالمة مهما فعلت فهي لست أكثر من سارقة أزواج وجانية على سعادة الأسر.. و.....

قاطعتها جوانا:

أرجوكما ارحماني من فلسفتكما..

سارة:

لحظة يا جوانا، قولي لي يا حنين ما ذنب الزوجة الثانية لينظر إليها كسارقة أزواج؟ هو من أتى إليَّ، هو من خطب، هو من

تزوج، هي فقط مارستْ حقَّها بأن تعيش حياة طبيعية ولو بنصف زوجٍ وتكون لها أسرة معه، فقط للعلم حياة الزوجة الثانية ليست دائمًا مفروشة بالورود كما يظنُّ الجميع.

قالت جوانا: مؤكد ليس بالنسبة لك يا عزيزتي..

ليس بالنسبة لي؟ هل تريدين أن تعرفي كيف قضينا ما يسمى بشهر العسل؟

أظنُّك قد سبق وقلت شيئًا عن هذا..

قالت بحدة: كل هذا خيال اسمعي الحقيقة، كلُّ يوم يستيقظ ويخرج ولا يعود إلّا متأخرًا وإن عاد وخرجنا للعشاء إما أن يبقى صامتًا أو يتحدث مع عبير أمامي على الهاتف الثَّقال فما كان مني إلا أن امتنعت عن قضاء الأمسيات معه وقررت أن أمتِّع نفسي بنفسي ففعلت كلَّ ما تمنيت في شهر عسلي، إنما دون شريك فعلت ذلك وقد تحطَّم حلمٌ عزيزٌ على قلبي فعلت ذلك وأنا أعلم أنَّه كان متعمدًا في كلِّ ما فعله بي

قالت حنين محاولة تلطيف الجو: إذًا لا عجب أنَّك صببت جمَّ غضبك على عبير

هي البادئة، لا تنسي هذا، يوم عقد القران، وأيام الخطوبة، وصباحية العرس هي بدأت لذا فلتتحمل ما سيأتيها..

قالت جوانا ممازحة:

لكن ألا ترين كيف عاد إليك سريعًا؟

سألتها سارة: متى رأيت طارق آخر مرةً؟

كلَّمني البارحة، لا بدَّ أنَّه كلَّمك فقد كان في غاية الشوق إليك..

اتَّصل بي قبل سويعات، لكن ألا تلاحظين أنك تكثرين من أكل الحلوى على غير عادتك

استغربت جوانا تغيير مجرى الحديث لكنها قالت: لا أدري نفسي تتوق إليها بشدة، يجب أن أحترس وإلا سيصبح منظري فظيعًا..

تبادلت سارة وحنين النظرات الصامتة فقالت جوانا: ماذا هناك؟؟

قامت سارة وقالت: لا شيء، هيَّا لنجمع المائدة..

قالت حنين ضاحكة: ما هذه الدعوة التي يقوم فيها الضيوف بكلِّ شيء..

ابتسمت سارة قائلة: بما أنَّك تكلَّمت فالقهوة عليك..

قالت جوانا: أنا لا أريد قهوة، لم أعد أستسيغها

صرخت سارة بفرحة: لتقطع ذراعي إن لم تكوني حاملًا..

وأكملت حنين: وبعد عدة أشهر ستبدي كمن ابتلع بطيخة

كيف عرفتما؟ أنا نفسي لم أشكُّ سوى هذا الصباح، لست مستعدة بعد لطفلٍ آخر

تساءلت حنين: طفل آخر؟ وأين هو الطفل الاول؟؟

ردت سارة: ماهر؟ أليس كذلك؟

بلى، أشعر أنَّه مازال طفلًا يبحث عن الحنان والأمان بدلًا من أن يمنحهما، إنَّه لم يتعلم بعد تحمل المسؤولية، صحيح أنَّه زوجٌ محبٌّ لكن تنقصه العزيمة والجدية..

قالت سارة: المفروض أن تكوني سعيدةً لأن لك زوجًا طوْع بنانك وتشكري الإله..

أحمده وأشكره وأنا سعيدة معه، لكنني خائفة من المستقبل معه..

حنين: لا تخافي، ما أن يولد طفله حتى يتغير وتتمنين حينها لو يعود ماهر القديم

سارة: يجب أن نحتفل، الآن لدينا مناسبة سعيدة طفل في الطريق لينادينا خالتي ما أروع هذا..

جوانا: دعننا نتأكد أولا

سارة: أنا واثقة أنَّ الله لن يخيب رجاء ثلاثَ بائسات بفرحةٍ صغيرة..

****

استيقظت سارة شاعرة أنَّها لم تعد بمفردها في غرفة المعيشة فتحت عينيها ببطء فوجدت هشام أمامها يتأملها فاستقامت جالسة على الأريكة كان شعرَها أشعث قليلًا وكان خدَّاها

متوردين إثر النوم لم يكن لديها فكرة عن الصورة الرائعة التي كانت تبدو عليها بالثوب الليلكي القصير فقالت بحرجٍ:

يبدو أنني غفوت قليلًا، متى استيقظت؟

قال بابتسامة دافئة: ربما قبل ربع ساعة، تبدين مرهقة للغاية..

رفعت الكتاب عن الأرض وهي تقول:

لم أحصل على كفايتي من النوم البارحة وانشغلت في الصباح مع أبي ثمَّ العودة إلى هنا والتجهيز للغداء فغفوت دون أن أشعر..

أنا أيضًا نمت كقتيل لم أشعر بشيء، هل جاءت صديقاتك..

نعم، حنين وجوانا لابدَّ أنَّك سمعت عنهن..

ضحك وقال: سمعت إحدى أخواتي تنعتكن بالساحرات الثلاث..

ضحكت بدورها وقالت: ربما يوقع الرعب في قلبك أنْ تعرف أنني الساحرة الكبرى..

ابتسم قائلًا: ليس بعد أن رأيتك نائمةً كملاك وملامحك خالية من كل تحصيناتك، فلا نظرة خوف أو حذر، لا تصدي، لا شر. هل تعلمين أنَّها المرة الأولى التي أراك فيها نائمة؟ والآن هل احتفظت لي بشيء من طعام الساحرات أم أسلق بيضة؟؟

هل ستبقى هنا الليلة؟؟ كتمت أنفاسها وهي تبتهل إلى الله ألا يخيب رجاءها..

ردَّ على سؤالها بسؤال: ألا تريدني أن أبقى الليلة هنا..

بلى، ولكن ظننت أنَّك ربما ترغب في رؤية عبير والصغار..

وأترك هذا الجمال الهاجع يتسلل من بين يدي

تورَّد خداها خجلًا وهي تقول: هذا الجمال سيبقى معك ولك إلى الأبد..

وضغطت على كلمة الأبد ارتسمت الحيرة في عينيه للحظات قبل أن يقول بمرح:

لكن عشاء الساحرات لن يبقى إلى الأبد إنني أتضور جوعًا..

قامت بسرعة حتى لا يرى ابتسامة الفرح التي برقت على ثغرها وهي تقول لحظات وتكون المائدة جاهزة..

في المطبخ بدأ عقلها يعمل مجددًا ويحذرها من جديد: اهدئي أيَّتها الحمقاء ما يبقيه عندك الرغبة لا الحب وأيضًا الفرار من نكد عبير وثورتها فلا تتصوري أشياء لا وجود لها.

قالت وهي تحدث نفسها: شيء أحسن من لا شيء، وكما يقال مشوار الألف ميل يبدأ بخطوة

نعم ولكن ما أدراكِ أنَّها خطوة في الطريق الصحيح؟ فقط لا تشعري بالأمان وكوني حذرة

نفضت كلَّ الأفكار من رأسها وعادت لإعداد المائدة فكانت النتيجة أمسية ممتعةً وليلةً حميمة..

****

في ذات الليلة تزينت جوانا وارتدت غلالة عرائسي فبدت آية من الجمال وأضاءت حجرة المعيشة بالشموع وعطرتْها

بالروائح المثيرة وجلست تنتظر عودة ماهر. لم يطل انتظارها فما لبثت أن سمعت صوت مفاتيحه ثمَّ صوته وهو ينادي: حبيبتي لقد عدت، أين أنتِ؟

ظلَّت جالسةً في مكانِها وردَّت:

أنا هنا..

وصل إلى الحجرة فوقف مبهورًا من كلِّ شيء جمالها الأخَّاذ، روعة المكان، الأجواء الرومانسية التي بدت فيها وعندما تحركت قال بسرعة:

لا تتحركي، أشعر أنني في حلمٍ وأخاف أن تختفي..

تقدَّم نحوها وعيناها تأسران عينيه ثمَّ أمسك بيديها يوقفها ويحضنها بحنانٍ فائق ويقبِّلها برقة بالغة مما استجلب استجابتها فقال بصوتٍ أجشٍ:

أحبك

بعد لحظات انفصلت عنه قائلة بدلال:

تعال حضَّرت لك العشاء

قال بابتسامة عذبة:

من ذا الذي يفكر في الأكل في حضرةِ هذا الجمال الآسر، اجلسي دعيني أنعمُ بحبِّك الليلة...

قبَّلته على خدِّه قائلة: عندي لك مفاجأةٌ صغيرة..

قبَّل راحة يدها وهو يلعبُ بخصلات شعرها فقالت بدلالٍ:

بهذه الطريقة لن تسمع شيئًا مما أقول..

نظر إلى عينيها وهو يقول:

أنا لا أسمع سوى قلبي وهو يصرخ أحبك يا جوانا ومع ذلك كلِّي آذان صاغية يا حبي...

خفضت أهدابها وقالت:

أنا حامل

ارتسم الذعر بكلِّ جلاء على وجهه وهو يقول: ماذا؟ كيف حدث بهذه السرعة؟ لم أحبك كما أريد؟ لم أنهل من نبع حنانك كما أريد؟ فكيف يأتي طفل ليسلبني كل هذا؟

حاول النهوض والابتعاد عنها فأمسكت بيديه قائلة:

هل تظنُّ أنَّ أيَّ طفلٍ قادرٍ على أن يسلبني منك؟! أنت طفلُ قلبي وسأحبك للأبد...

دفن رأسه في حضنها وهو يقول بصوتٍ مترددٍ:

حقًّا؟؟

يا حبِّي المجنون، ألا تثق بي؟

بلى ولكني خائف أن أخسرك، اسمعي ستدللينني كما ستدللينه، ولن أسمح له أبدًا بالنوم في حضنك فهذا موطني الذي أعشقه...

ضحكت وهي تقول: أول مرة أرى شخصًا غيورًا من ابنِّه هكذا، أنت مجنونٌ

وضع يدَه على بطنِها وقال: بالطبعِ أنا غيور، اسمع أيُّها الطفل لن تستطيع أن تنافسني على حبِّها أبدًا

أحبُّك وأحبُّ جنونك في حبِّي

تتمة لهذا الحب تعالي هناك ما أريد إخبارك إياه في غرفة النوم

لن تتغير أبدًا، أليس كذلك؟؟

بالطبع لن أتغير، هيا ... أريد أن أثبت نفسي قبل أن يفرض الصغير سيطرته..

****

بعد خروجِ هشام إلى عمله جلست سارة ترتشف قهوتها وتقول في نفسها: ما أجمل أن تكون الحياة هكذا دون منغصات لكن ما جدوى التمنيات سرعان ما يعود إلى سيرته القديمة..

قطع عليها أفكارها رنينُ هاتفِها النَّقال فأجابت:

أهلًا جوانا..

آسفة يا عزيزتي على الإزعاج، هل خرج زوجك؟

نعم خرج، لمَ تسألين؟

طارق هنا من الفجر يريد التحدث إليك، أنت تعرفين كيف يكون لحوحًا إذا أراد شيئًا

قالت والألم يعتصر قلبها: ومن يعرفه أكثر منِّي؟

أكملت جوانا: هل تريدين التحدث إليه؟؟

العقل والمنطق يقولان أن ترفض لكنها لم تستطع أن تكتم صرخات قلبها فقالت:

لا بأس

شعرت به يخطف السماعة من يد أخته ويقول:

صباح الخير، سارة أولًا وقبل كلِّ شيء أعتذر عن كلَّ الكلام الذي قلتُه بالأمس لم أكن في حالة طبيعيةٍ.

لم أعتد منك هذه الرعونة هل كنت ثملًا؟

اه، كلَّا فقط كان في قلبي ألم أفقد عقلي توازنه، ألتمس العذر منك..

حسنًا، سأعتبر أنَّك لم تقل شيئًا، هل ارتاح ضميرك الآن؟

صمت لحظة قبل أن يقول:

لشدةٍ ما يغيظني أن تكوني طيبة معي هكذا، أريد سببًا لأكرهك..

لطالما أردت أن نظلَّ أصدقاء مهما كانت الأقدار..

وأنا لا يهمُّ أن أريد أو لا أريد؟

ضحكت بسخرية مرير قائلة:

وهل فكَّرت في ما أريد أو لا أريد عندما قررت أنَّ علاقتنا لابدَّ أن تنتهي وأن أتزوج هشام؟ أردت أنت كذلك وحصل ما تريد فلا تحاول لعبَ دور الضحيِّة معي.

وضعت السماعة بسرعة قبل أن يقاطعها وبقيت للحظات تنتظر أن تعود خفقات قلبها إلى طبيعتها..

****

أهلًا حنين، كيف تسير جولاتكما التسويقية أنت وجوانا؟

جيدة، لكنني لن أرافق جوانا مرة أخرى، إنَّها دقيقة في اختياراتها بصورة مبالغة، درجة اللون، نوعية القماش.. الخ

هذا ليس بالأمر الجديد، لكن دعينا من كلِّ هذا، هل ستشاركينني أم لا؟

آه، لقد نسيت الأمر تمامًا ولم أفكر به إطلاقًا..

لم يعد هناك مجال، لقد اتَّفقت مع أبي آدم على استئجار شقة في بناية له وسط المدينة ويتابع المحامي استخراج الأوراق الرسمية لشركتنا لابدَّ أن تقرر الآن قبل استكمال الإجراءات ليتم توثيق اسمك في الأوراق الرسمية كشريكة..

لا أدري، أظنُّ .....

قاطعتها سارة:

اسمعي كلانا يخوض رهانًا ضخمًا من أجل حياةٍ زوجيةٍ قد تنجح وقد تفشل، فلمَ نجعل حياتنا وقفًا على هذا الرهان؟ دعينا نوزِّع جهودنا في مجالاتٍ متعددة حتى لا نصاب بالانهيار في حالِ فشل رهاننا لا سمح الله، ها ماذا قلت؟؟

أقنعتني، ولكن ماذا لو لم يقبل حامد أن أعمل..

ولماذا تتركين له القرار اشترطي عليه في عقد القران أن تكون لك حريةُ العمل..

لم أفكِّر في هذا، سأتحدث مع مازن في الأمر..

لا تتحدثي بل افرضي الأمر كشرطٍ غير قابل للنقاش، وأنا سأتحدثُ مع المحامي ليدخلك كشريكٍ في المعاملات الرسمية..

****

بعد أنْ ارتدت حنين قميصَ نومها، جلست أمام المرآة تزيل بقايا المكياج الذي أفسدته بدموعها دخل حامد وقد ارتدى

بدوره بجامة حريرية ووقف خلفها ينظر إليها عبر المرآة بنظرات كلِّها تشفٍ وقال:

لابد أنَّك تشعرين بالإحباط وأنت ترين نفسك تسقطين بين يدي كثمرة ناضجة بعد أن انتظرتِ طويلًا المتعلمين والمثقفين اللائقين بمقامك الرفيع، وفي النهاية كنت أنا

تجاهلت كلماته اللاذعة واستمرت فيما تفعله فضغط بأصابعه الكبيرة على كتفِها بقوةٍ آلمتها وهو يقول:

أليس لديكِ رد؟

نظرت إليه عبر المرآة وقالت بهدوء: لابد أنك تشعر بالفخر لحصولك عليَّ إذًا؟

استعرت نظراته فأدار الكرسي الذي تجلس عليه وجلس أمامها وأمسك بوجهها بيديه قائلًا: لنرى لستِ أجمل النساء، ولا أغناهن، ولا أرشقهن ولا أكثرهن جاذبية، فتاةٌ عاديةٌ فلمَ أشعر بالفخر؟!

لماذا تزوجتني إذًا؟؟

مرر أصابعه على خدِّها وهو يقول بتهكمٍ:

لأحطِّم كبريائك وأنفك الذي تشمخين به عليَّ دائمًا

ضحكت من بين دموعها فضغط بقوة على رقبتها وهو يقول:

ما الذي يضحكك؟ بالطبع كلام الجهلاء لا يعجبك

مدَّت يدها تداعب خده وقالت:

هذه ليلة النصر بالنسبة لك، ألا يفترض أن تستمتع بغنيمتك أولًا ولندع الانتقام لما بعد فلديك العمر كلَّه لتنتقم..

بهت الرجل أحسَّ أنَّها دمرت كلَّ ما خطط له، أحسَّ أنه توقَّع كلَّ شيء صدٍّ وجفاء، نحيبٍ وبكاءٍ، كلُّ شيء إلا هذا الاستسلام المطلق، فقال محاولًا البقاء في دورِ المسيطر:

ومن قال إنني لن أستمتع؟ سأستمتع ولكن بعد أن أدمر أي فرصة لك في المتعة...

أنت لا تعرفني، قد اعتدتُ على انتزاع السعادة من بين أنياب الشقاء..

تركها واستلقى على السرير وظلَّ يحدق النظر إليها, بينما استدارت حنين بكرسيها إلى المرآة واستمرت فيما كانت تفعله ونظرت إلى موضع أصابعه على رقبتها ثمَّ قامت من مكانِها وخلعت الروب لتكشفَ عن قميصٍ أبيض شفاف، واستلقت على الطرف الآخر من السرير وقالت:

تصبح على خير

اقترب منها يشدُّها إليه بغلظةٍ قال:

تعالي، فما زال الليل في أوله...

عندما استيقظت صباحًا استغرق الأمر لحظات لتدرك أين هي ثمَّ بدأت تستعيد أحداثَ الليلة الماضية فخطر في بالها: هل كانت ليلةً سعيدة؟ انقلبت على ظهرِها وهي تفكِّر ربما لم تكن الليلة التي حلمت بها لكنَّها أيضًا لم تكن بالسوء الذي توقعته، نزلت من السرير بهدوء وبعد ساعة كانت قد اغتسلت وتزيَّنت وارتدت ثوبًا أنيقًا وجهَّزت مائدة الإفطار وانحنت توقظه بحذرٍ:

حامد...

فتح عينيه ببطء وهو يردُّ: نعم

استوى جالسًا وشدَّ يدها قائلًا: تعالي

جلست على السرير، أمامه فشدَّها يضمُّها إليه ويسحقُها على صدره ورفع وجهها إليه وقال بنعومة:

أنت أكثر جمالًا في الصباح...

ثمَّ انحنى يقبلها ببطءٍ فاستسلمت له حتى أنهى غارته ثمَّ استلقي على السرير وقد بدا على وجهه الاستمتاع فقالت:

قم، الإفطار جاهز

على المائدة سألها:

ماذا ستعدين لنا على الغذاء؟؟ لا تقولي أنَّ الآنسة المتعلمة لا تجيد الطهي

بلى، ولكن اليوم .....

من العار أن تكون لي زوجةً وأحضر غدائي من الخارج..

حدثت نفسها: أي عار؟ إنه يختبر صبرها..

ردَّت بهدوء قدر الإمكان:

حسنًا سيكون غداءً بسيطًا بعض الشيء..

-ولماذا؟ هل ...

قاطعته بسرعة: لأنَّ أبي وأخي وربما أمي سيأتون ولا أحبُّ أن يقولوا إن زوجي يسيئ معاملتي منذ اليوم الأول..

قال بحدةٍ: إن طريقة إدارتنا لحياتنا أمرٌ يخصُّنا وحدنا..

قالت وهي تجمع الأطباق: ولأنَّه يخصنا وحدنا يجب أن يبقى بيننا وحدنا...

بعد ساعتين كانت المائدة جاهزة وحنين في أبهى حلة اغتسلت وتزينت، وارتدت ثوبًا منزليًا قصيرًا دون أكمام وصندلًا منزليًّا ونادت زوجها من غرفة المعيشة حيث كان يشاهد التلفاز فوقف يتأملها قليلًا قبل أن يقول في لا مبالاة:

ما هذه البقع التي على عنقك وكتفك؟

دون أن تجيب استدارت تسبقه إلى غرفة الطعام فقال:

لابدَّ أنك تضيفين إلى قائمة صفاتي السيئة متوحش، من أين لي أن أعلم أنَّ بشرتك رقيقة هكذا..

تجاهلت الموضوع وقالت:

تفضل الغداء جاهز

نظر إلى ما أعدَّت أرز ودجاجة مشوية، وصينية بطاطا، وسلطة وقال باستخفافٍ: هذا فقط

أخبرتك أنه سيكون بسيطًا، تفضَّل وذق وأخبرني ما رأيك

بدأ يأكل وقد بدا عليه الاستمتاع حتى انتهي دون أن ينبس ببنت شفة قالت وهي تجمع الأطباق:

شاي أم قهوة؟

ردَّ: شاي.

دخلت المطبخ وهي تغالب دموعها وتحدِّث نفسها: ربما لا يكون الأمر بالسوء الذي توقعته لكنه محبطٌ للغاية لأحلامها

المؤجلة، أهذا ما ستكون عليها حياتها معه؟! لامبالاة ممزوجة برغبة في الانتقام، أهذا ما ينتظرها في ....

أحست بذراعين تحيطان بخصرها وأنفاس تلفح عنقها وهو يقول:

ألا يمكن تأجيل الشاي لما بعد؟؟

حاولت رسم ابتسامة حلوة على وجهها وهي تستدير إليه قائلة:

ولماذا؟؟ هل ترغب في شيء آخر؟

انحنى يقبّل عنقها قائلًا: أرغب في الاستمتاع بزوجتي المتعلمة الآن؟؟؟

نعم الآن، ألم يمتِّعك الأمر البارحة؟

أحسَّت بوجهها يحمَّر خجلًا فسحبها من يدها وهو يكمل:

سأجعل الأمر ممتعًا هذه المرة

وعندما وصلا إلى باب حجرة النوم انطلق جرس الباب فقال حامد متذمرًا:

تبًّا.. من يأتي الآن؟

ضحكت حنين من منظره الغاضب وقالت:

لابدَّ أنهم أمي وأبي ومازن، افتح لهم ريثما أبدِّل ملابسي.

من غرفتها كانت تسمع الزغاريد والأصوات المرحة وعندما خرجت إليهم تعالت الزغاريد مجددًا قدَّم لها الجميع هدايا رائعة فأهداها والدها طقمًا ذهبيا بديع التصميم وكذلك أمها، بينما أهداها مازن سوار من الذهب الأبيض وزوجة أبيها قلادة جميلة, لكن حزنًا غريبًا كان يغلف الجو العام وعندما قاموا للمغادرة ضمَّتها أمها بحنانٍ دافقٍ وقالت:

أتمنى لكِ السعادة يا حبيبتي، إذا احتجتِ لشيء، أيِّ شيء اتَّصلي بي..

وقال مازن كلامًا بذات المعنى لكن بصيغة مختلفة أمَّا أبوها فقد تنحى بها جانبًا وقال وقد بدا عليه الندم العميق:

صدقيني يا بنيتي لم أرد للحظة التخلص منك، كلُّ ما أردته أن أراك سعيدة في بيت زوجك وأن أطمئن عليك قبل أن اموت.

أصدقك يا أبي، ثمَّ إنه قدري ومن يستطيع أن يوقف نهر الأقدار؟!

ثمَّ قالت محاولة طمأنته: ثمَّ إنَّ حامد ليس بالسوء الذي ظننته..

أشار إلى عنقها: حقًّا؟ ما هذا إذًا؟

احمَّر وجهها خجلًا فقالت تداري خجلها:

آه يا أبي أنت تعلم كم هي بشرتي حساسة..

قبَّلت رأسه وأكملت:

لا تقلق يا أبي، أنا قادرة على رعاية نفسي..

ضمَّها إليه كما لم يفعل يومًا وهو ينادي زوجها ويقول:

حامد اعتنِ بها جيدًا إنَّها ابنتي الوحيدة وقطعة من قلبي، لن تعرف ما أشعر به حتى ترى إحدى بناتك تغادر منزلك

ستشعر حينها أنَّ جزءًا من قلبك يغادر وكلُّ ما ستتمناه حينذاك أن يكون الرجلُ الذي غادرت إليه أمينًا وكفؤًا لحفظ جوهرتك، اعتنِ بها جيدًا يا بني فكما تدين تدان وأنت لديك بنات...

قال بتواضعٍ وأدبٍ أدهشها:

تأكد يا عمَّاه أنني سأكون الكفء الأمين لرعاية جوهرتك

قبَّل رأس أبيها بوقار وأكمل:

لا تشكَّ أبدًا في هذا..

ثمَّ غادروا وهي في دوامةٍ من المشاعر الجميلة فوالدها للمرة الأولى يظهر لها عواطفه الجياشة آه، كم أحبَّت منظره العاطفي، كم أحبَّت الحنان المتدفق من كلماته، وأحسَّت كم هي أيضًا تحبُّه وتبجله. وضع حامد يده على كتفها متسائلًا:

أين ذهبتِ؟

ماذا؟

قال ببرود: لا شيء.

واتَّجه إلى غرفة المعيشة حيث أمضى بقية النهار أمام التلفاز. ومن ثمَّ جاءت سارة وجوانا وأمضيا وقتًا قصيرًا لكنه ممتعٌ. في النهاية كانت صباحية زواجها غير تقليدية أبدًا فقد أظهر لها الجميع العاطفة الصادقة والتمنيات السعيدة وأشعروها كم هي محبوبة ومهمة للغاية لديهم.

****

انهمكت جوانا في الأعمال المنزلية فمنذ سفر ماهر الأسبوع الماضي في رحلة عمل وهي إما في منزل أسرتها أو في الخارج مع صديقاتها. دهُشت من كثرة الأعمال المتراكمة ومن السهولة التي تتعب بها فهي لن تنجز نصف الأعمال وتشعر بنفسها تكاد تنهار من التعب وعندما تعالى رنين الهاتف لعنت المتصل الذي قطع عليها عملها وقررت إنهاء المكالمة بأسرع ما يمكن فرفعت السماعة بتأففٍ وضجرٍ قائلة:

نعم..

أهلًا حبيبتي.

أهلًا ماهر، كيف تسير أمورك؟

أنا عاتبٌ عليك، كلُّ معارفي اتَّصلوا بي اليوم ما عداك..

قالت في نفسها:

يا له من فتًى مدلل، ليس هذا أبدًا الوقت المناسب لذلك..

وردَّت عليه بحزمٍ:

من الظلم أن تقارنني بجميع معارفك فأنا أتصل بك يوميًّا ولن ينتهي العالم لأني لم أتَّصل بك اليوم

صمت ماهر للحظات فقالت بسرعة:

لدي الكثير من الأعمال، لذا سأنهي المكالمة، اعتنِ بنفسك..

ردَّ بصوت خافتٍ: وأنت أيضًا

وأنهت المكالمة.

****

سألت سارة أختها مها: متى الولادة؟ إن منظرك أصبح فظيعًا، لقد تغيَّر شكلك تمامًا

جلست مها بصعوبة قائلة:

مازال أمامي شهرٌ من هذا العناء، وأنت ألا تريدي أن تبهجينا بخبرٍ سارٍ كهذا؟

مازال الوقت مبكرًا بالنسبة لي.

انبرت أمُّها تقول بسخريةٍ:

من يسمعك تتحدثين يظنُّك في بداية العشرينات، ربما نسيتِ أنَّك تجاوزت الثلاثين منذ زمن، تأخرتِ في الزواج فحاولي تدارك الأمر قبل أن تضيع فرصتك

شعرت بكلمات أمها كسياط يلسعُ قلبَّها فردت بسخرية:

ربما كان أحد أسباب تأخر زواجي اللعنات التي تصبينها على رأسي ليلَ نهار

قالت مها: استغفري الله يا سارة، إنها اقدار

حاولت القول بهدوء قدر الامكان:

على العموم ليس العمر عائقًا للإنجاب فكثيرات ينجبن بعد الثلاثين لكن لن أقدم على هذه الخطوة حتى أتأكد أنَّ زواجي ناجحٌ مئة بالمئة..

قالت مها:

وما الذي يجعل زواجك غير ناجح؟، أخي هشام من أفضل الرجال وأرجحهم عقلًا وأنت لا ينقصك شيء..

استرخت سارة في جلستها قائلة:

يا عزيزتي بوجود عبير حبّه الأول والعجوز الشمطاء شفيقة تظلُّ مسألة طلاقي مسألة وقت لا أكثر، لذا لن أغامر بالإنجاب وتعقيد حياتي المبنية على أسس واهية، ليس قبل أن أرسِّخ قواعدي وأتأكد أن هذه الزيجة مستمرةٌ حتى يفرقنا الموت..

قالت أمها بسخرية:

وحتى تتأكدي لن يكون متاحًا لك سوى طفل أو طفلين على الأكثر، ولن تكون لك أسرة كبيرة مثل مها أو مايا...

مثل مها؟! وماذا في ذلك؟ طفل واحد يكفيني، ثمَّ لماذا أنجب الكثير من الأطفال وأنا غير قادرة على منح الحنان سوى لطفلٍ واحد؟ ليعيش البقية وهم ينظرون بعين الحقد والكراهية إلى المحظوظِ فيهم، إن هذا ليس من الحكمة في شيء..

تصلَّبت ابتسامة الأم الساخرة وظلَّت تحدق فيها للحظات قبل أن تقول:

لك أسود قلب عرفته، صورة من أبيك، قلبٌ لا يغفر ولا يصفح أبدًا، قلبٌ لا يعرف سوى الحقد والكره...

إن كان ثمة شيء تكرهه سارة كراهية العمى فهو ذكر أبيها بانتقاصٍ أو مهانة فانبرت قائلة:

أحبُّ سماع المواعظ ممن لا يطبقها على نفسه، هل عفوتِ أنتِ عنه يوما لأنَّه أهملك وطلَّقك؟ هل ذكرت يومًا حسنةً من حسناته؟ دائما متحسرةٌ ومتندمةٌ على شبابك الذي ضاع مع ذلك الكهل بل هل عفوتِ عني يوما لأنني أحببته وكنت صورةً منه؟ قبل أن تتكلمي عن العفو تعلميه يا أمي..

قامت من مكانها قائلة باشمئزاز:

الأفضل أن أغادر قبل أن تتقيح الجروح أكثر

وانطلقت إلى الخارج

****

في ذاتِ المساء، خرجت حنين للعشاء لأولِّ مرة مع زوجها فحاولت أن تجعل منها أمسيةً جميلة ويبدو أنها نجحت إلى حدٍّ كبيرٍ فقد كان حامد سعيدًا عند عودته ومتحمسًا لإعادة الكرَّة فقد تحدثا كثيرًا وضحكا كثيرًا بعيدًا عن شخصيته المنتقمة التي اعتاد أن يكوّنها لكن سرعان ما عاد إليها وهما يتناولان الشاي في المنزل فقال لها:

على فكرة سآتي بابني حسان ليعيش هنا معنا..

أنزلت الكوب من يدها وقالت بهدوء: لماذا؟ أعني لماذا لا يبقى مع أمه؟

قال بلامبالاة: لأنَّ أمه متزوجةٌ من آخر ومشغولةٌ بحياتها الجديدة..

لم أكن أعلم أنَّ لك زوجة أخرى غير أم بناتك

ها أنت قد علمت، سآتي به غدًا فقد سئمت من شكوى زوجتي وبناتي من عدوانيته وشراسته..

عدوانيته وشراسته؟ كم يبلغ من العمر؟

إنَّه في العاشرة.

لكنني سأبدأ عملي الأسبوع القادم فمن سيعتني به وأنا في العمل..

إنَّه كبير بما يكفي ليعتني بنفسه..

لكن هذا سيكون صعبًا

انتهى الأمر، فكِّري في الأمر كتطبيقٍ عملي للكتب التي تقرئينها ليل نهار

وهل القراءة، انتظر عدْ إلى قناة الأخبار، ارفع الصوت، يبدو أن ثمة انفجار في مكان ما..

ظلَّت تتابع الأحداثَ للحظات حتى تذكَّرت أنَّ زوج جوانا مسافر إلى ذات المدينة التي حدث فيها انفجار في إحدى مصافي

التكرير ونجم عن الأمر عدد من الاصابات فرفعت سماعة الهاتف تتصل بجوانا التي ردَّت بصوتٍ غارقٍ في النوم: ماذا حدث يا حنين؟؟

هل تحدثت مع زوجك اليوم؟

ما قصة هذا اليوم؟ نعم تحدثت معه قبل ساعتين أو ثلاث

تنهدت حنين بارتياحٍ وقالت:

إذًا فقد نجا من الانفجار حمدًا لله على سلامته

طار النوم من عيني جوانا وهي تقول:

ماذا؟ أيّ انفجارٍ الذي تتحدثين عنه؟

روت لها حنين ما سمعته في الأخبار منذ لحظات فقالت جوانا:

يا إلهي، لا تعرفين ماذا فعلت يا حنين، لن يسامحني ماهر أبدًا، لقد ظننته يتدلل..

أخبرتها بأمر المكالمة وختمت حديثها قائلة:

الحقيقة يا حنين لقد بدأ دلاله يثير غيظي فنحن ذوي الأصول الأفريقية، نادرًا ما تجدين بين رجالنا المدلل بهذه الصورة..

لكن أنت وطارق نلتم من الدلال ما فيه الكفاية

صحيح، لكن مع الدلال تعلَّمنا المسؤولية، الثقة، الاعتماد على الذات، إنَّما ماهر دُلل بطريقة أفسدته، بطريقة فوق مستوى التعقل..

إذًا من الأفضل أن تتصلي به، وتحاولي تدارك الموقف

آه، لا أدري ماذا فعل بنفسه..

أنهت المكالمة واتَّصلت به مباشرة قائلة بحنان:

أهلًا حبيبي

اهلًا جوانا

ما دمت ناديتني جوانا فأنت غاضب مني، أريد أنْ تعرف أمرًا، لم أسمع بما حدث سوى الآن من حنين فقد كنت مشغولة بالأعمال المنزلية، ومتعبة من الحمل..

قاطعها بهدوء غير طبيعي:

- لا داعي لكلِّ هذه الأعذار، أنا مقدرٌ لما أنت فيه...

- لا، بل يجب أن تسمعني، أنا أتصل بك يوميًّا دون أي أحداث فكيف لا أتصل بك إن علمت بما حدث...

- يا حبيبتي انتهى الأمر، لم يعد مهمًّا.

- متأكد أنَّك لم تعد غاضبًا مني؟؟

- متأكد يا حبيبتي والآن إلى اللقاء لدي عمل

- همَّ بإنهاء المكالمة عندما نادته: ماهر، أحبُّك

ردَّ: أنا كذلك،

ووضع السماعة.

****

دخل هشام شقة سارة وملامحه تنبئ عن عاصفة قادمةً، ألقي تحيةً باردة ردَّت عليه سارة بأسلوبها المعتاد وقامت لتحضِر له

كوبَ عصير بارد. أخذ العصير وشربه ووجهه متجهمٌ كما هو فسألته:

- هل أنت بخير؟

- ظلَّ ينظر إليها للحظات قبل أن يقول: بخير

- لمَ أنت متجهم إذًا؟

- لأنني لا أحبُّ أن تهتزَ صورتي أمام أخواتي

فكَّرت سارة في مغزى عبارته ثمَّ قالت بتهكم: إذًا فقد أخبرتك مها

- نعم أخبرتني، تقررين وتحددين وحدك

- ماذا قررت؟؟

- موضوع الإنجاب

فغرت فاها دهشة ثمَّ سألته بحذرٍ:

- ولماذا تهتم بهذا الموضوع وأنت تنوي تطليقي؟ والعودة إلى حبيبة القلب فما الحبُّ إلا للحبيب الأولِ..

قال باندفاعٍ:

- من أين أتتك هذه الفكرة الغبية؟

قالت بجدية:

- هشام أنا لستُ غبيةً وأعرف جيدًا ما يدور في رأسك. أنا مجرد زوجة أردتَ تأديب عبير بها حتى تعود إلى رشدِها بعدها ينتهي دوري وتسلِّمني شهادة نهاية الخدمة لكنَّ أبي آدم غلل يديك وأفسد مخططاتك..

ذُهل هشام من قراءتها لأفكاره بهذا الوضوح ورغم ذلك تعامله وكأنَّها لا تعلم فقال:

- هل أبدو أنانيًّا وضيعًا في نظرك إلى هذا الحدِّ..

أشاحت بنظرها وقالت:

- وهل تهتم بما تبدو عليه في نظري؟؟ المهم عندك عبير وهي تريدك أن تفعل هذا وقد قالت ذلك مباشرة في وجهي بكلِّ ثقةٍ، ثقة في حبيب لن يخذلها أبدًا

وضع يده على كتفها قائلًا:

- من تزوجت؟؟ أنا أم عبير؟

- ردَّت بسرعة: أنت

- إذا لا تصدقي شيئًا لم تسمعيه مني شخصيًّا..

- المصيبة أني سمعت ذلك منكِ في ما مضى

- أنت قلتِ فيما ما مضى

- أتعني أنَّك لم تعد لديك نية لتطليقي..

- ردَّ وهو يبتسم لها: مؤكد لم تعد لدي نية..

- لكن أفعالك تقول غير ذلك..

- وماذا تقول أفعالي؟

- إنك تدفعني إلى شفير الهاوية كي أطلب أنا الطلاق..

- إذًا سيتغير هذا من الآن..

- سألته مستغربة: كيف؟؟

أمسك بيدها بين يديه وقال:

- هل تذكرين عندما حدثتك أول مرة في موضوع زواجنا ماذا طلبت منك؟؟

فكرت للحظة ثمَّ قالت:

- لا أذكر بالتحديد، كل ما أذكرُ أنَّك تحدثت عن صداقة من نوع ما أليس كذلك؟؟

- بالضبط، من اليوم سنكون أصدقاء ما رأيك؟

- موافقة

اقتربَ منها وقال:

- لنختمَ هذا الاتَّفاق بقبلة

فتحت فمها لتقول شيئًا ما لكنَّه عاد يغلقه بقبلة عذبة رقيقة. وبعد أن تركها قالت مبتسمةً:

- أنت تحبُّ الشجار معي؟

أخذ يلعبُ بخصلاتِ شعرها وهو يقول:

- بصراحة أحبُّ ذلك فمصالحتك لذيذة جدًا..

- هشام أنت شرير هل تعرف هذا؟

- أعرف أنَّ الحياة معك لن تكون مملة أبدًا.

****

قامت سارة مرحبةً بحنين عندما دخلت مكتبهما الجديد لأولِّ مرة قائلة: أهلًا بالعروس، كيف وجدت الزواج؟؟

- آه، لا تذكريني بهذا الموضوع النكد.

- لست صادقة، تبدين سعيدة

- سعيدة؛ لأني خرجتُ من ذلك الجو الكئيب الممل، إنَّه يختبر صبري بكلِّ ما يستطيع من وسائل وأخيرًا جاء بابنه ليعيش معنا...

- ولماذا قبلت؟؟

- قبلت لأنه ينتظر مني أن أرفض، فبعد سنوات من رفضي المستميت يتوقع أن أكون في قمة التمرد ليتفنن في إذلالي، لكن استسلامي غير المشروط يفقده لذة الانتصار.. صدقيني أرى الترقب في عينيه عندما يطلب، يطلب؟ بل يأمر ينتظر فقط أن أتأفف ليشنَّ هجومه، لكنِّي لم ولن أترك له فرصة ليستمتع بإذلالي.

- آه، كم أكره سيطرة الرجال علينا، وأكره أكثر أننا مجبرات للخضوع لهذه السيطرة، كان الله في عونك، أتعلمين هشام أيضًا يتوقع بعد سنوات من الانتظار لأتزوج أن أكون متلهفة بل مستميتة لإرضائه فأحاول طوال الوقت أن أبدو غير مهتمة ولامبالية...

- تعلمين حالتنا أشبه بالجلوس على طاولة قمار والمراهنة بحياتنا على هذه الطاولة، هل سننجح أم سنفشل أمر في علم الغيب..

- أقسى ما في الأمر، أنَّ الطرف الآخر لا يهتم بل ربما يتمنى لو نفشل ليعود لحياته القديمة ويلقي بتبعية الفشل علينا، حدثيني عن ابن زوجك..

- آه، لو رأيت يا سارة طفل وحيد، وحيد بكلِّ معنى الكلمة، لا أم، لا أب، لا إخوة، لا أصدقاء، يقضي معظم وقته صامتًا أو يتحدث مع نفسه بكلمات غير مفهومة، هل تصدقين لقد وصل منذ أسبوع ولم يتحدث مع أبيه بأكثر من كلمتين أو ثلاثة...

- يا إلهي، كم هذا مؤسف...

- مؤسفٌ حقًّا لكن دعينا نترك كل هذه الهموم جانبًا وأخبريني كيف يسير العمل

- تلقينا عرضًا من صاحبة القصر الجبلي..

- أي قصر تعنين؟

- القصر الواقع على الحافة الجبلية شمال البلدة..

- يا إلهي، ما أروع هذا، وهل ستقبل بعملنا المتواضع؟

- صحيح إنها سيدة ثرية لكن ذوقها فظيع، وقد أعجبت بالصور والتصاميم الأولية التي وضعتها..

- ومتى يمكنني رؤية القصر؟

- ما رأيك أن نذهب الآن؟

****

استيقظت جوانا متأخرة بعض الشيء فمن المتوقع وصول ماهر آخر اليوم وهي تريد أن تكون متألقة ومنتعشة كالعادة مع أنَّها تشك أن بإمكانها ذلك فالحمل يبقيها في حالةِ خمولٍ دائم ومع ذلك استطاعت في النهاية تهيئة الجو المناسب لاستقباله، وجلست تنتظر وهي في أبهى حلة. وما إن سمعت صوت المفاتيح حتى أسرعت إليه وارتمت في حضنه وهي تهتف:

- ماهر حبيبي كم اشتقت إليك..

احتضنها بقوة أحسَّت فيها بتشبث الطفل الخائف بأمه فأمسكت بوجهه بين يديها قائلة بحنان:

- يا إلهي، لقد افتقدتك بشكلٍ هائلٍ...

قال بصوتٍ غير ثابت:

- ليس كما افتقدتك يا حبيبتي..

وهمَّ بتقبيلها فانبعثت من فمِه رائحة فظيعة. وضعت جوانا يدها لا شعوريا على فمها وأنفها

وقالت: ما هذه الرائحة؟ أين كنت؟ في المجاري؟!!

وابتعدت عنه لأنَّ الرائحة أشعرتها بالغثيان. فتقدَّم نحوها بخطوات مترنحة وهو يقول:

- لماذا تبتعدين عني؟! أنا لا شيء بي، لا رائحة، لا شراب

صرخت جوانا:

- ماهر أنت ثمل؟

ابتعدت عنه أكثر بل وقفة بعيدًا جاعلة الأريكة بينها وبينه فقال:

- لماذا تبتعدين عني؟! كلُّ هذا لأجله؟

كانت في حالة صدمة شديدة لم يسبق أن رأت سكيرًا من قبل لكن حتى الأعمى كان سيعرف مباشرة أنَّ ماهرًا ثملٌ بل ثملٌ جدًا إذا أردت الحقيقة. ردت دون وعي:

- لأجلِ من؟؟

تقدَّم نحوها وهو يقول:

- لأجل طفلك الذي لم يأتِ بعد تتركينني وتهملينني..

هربت إلى الناحية الاخرى وهي تقول:

- يا إلهي، ماهر كيف أمكنك أن تفعل هذا؟!

- ولماذا لا أفعل؟ أنت لم تعودي تحبينني، كلُّ ما يهمُّك هو، قولي ما جدوى الحياة دون حبك .. أحبك .. أحبك جدًا .. لكنك لا تهتمين

بدأت دموعها بالانهمار وقالت:

- وبهذه الطريقة تبرهن لي حبك؟ هل أنت مجنون؟

- حسنًا، أنا مجنون، وسأفعل كلَّ الأشياء الجنونية، سأسكر، وأدمن المخدرات، وأعاشر النساء، سأفعل كلَّ شيء لا تريدين أن أفعله حتى تعلمي أنني بدونك وبدون حبك مصيري إلى الضياع، وحتى تعودي إلى حبِّي

شهقت ذعرًا و قالت: حسنًا أنا الآن أكرهك ولن أعود لحبك أبدًا، إن كنت ستفعل كلَّ هذا لأنني لم أتَّصل بك يوم الحادث..

صرخ بجنون:

- وماذا بقي؟ أنا وسط أحداث الموت، تكرِّسين كل اهتمامك للطفل، أمَّا أنا فلأذهب إلى الجحيم، كنت أعلم أنَّ هذا ما سيحدث ما كان يجب أن أسمح لك بالحملِ من الأساس

حاول الاقتراب منها وهو يقول بتوسلٍ:

- أرجوك تخلصي منه ودعينا نعود كما كنا ما زلنا صغيرين على الإنجاب، أرجوك من أجلي، من أجلنا..

استبدَّ بها الذعر فصرخت:

- هل تعي ما تقول؟ ابتعد عني

أسرعت تدخل غرفة النوم وتوصد الباب خلفها بالمفتاح فتعالت طرقاته وهو يصرخ باسمها. شلَّ ما حدث تفكيرها فجلست على الأرض تبكي غير عالمة ماذا تفعل ثمَّ صرخت: طارق

أسرعت إلى الهاتف تطلبه وقالت بمجرد أن ردَّ:

- أخي أنجدني، ماهر ليس في حالةٍ طبيعية..

- اهدئي، ما الذي حدث؟ هل هو مريض؟

- أظنُّ أنَّه ثملٌ

- ماذا؟ لحظات وأكون عندك..

رمتِ السماعة وارتمت على السرير تشهق وتبكي وهي تسمع صوت ماهر هو الآخر يبكي ويتوسل إليها أن تحبه، وأن تدعه يدخل إليها..

حتى خفت صوته تمامًا لكنَّها ظلَّت خائفة ترتجفُ حتى سمعتْ صوت طارق يرافقه طرقات على الباب وهو يقول:

- افتحي الباب يا جوانا أنا طارق..

أسرعت تفتح الباب بحذرٍ قائلةً:

- أين هو؟

- لنهتم بأمرك أولًا

دخل فارتمت في حضنه فضمها إليه قائلًا:

- لا تخافي، لن يصيبك مكروه في وجودي بإذن الله

- آه يا أخي كان الأمر فظيعًا..

سألها وهو يمسح دموعها:

- هل تريدين إخباري بما حدث؟

اندفعت تروي له كل ما حدث فقال مذهولًا:

- ما هذا الجنون؟؟ إنها المرة الأولى أليس كذلك؟

- بالطبع .. لطالما كان ماهر مثالًا للاستقامة..

- هيَّا جهزي حقيبتك، ستذهبين معي إلى البيت

قالت بترددٍ:

- هل من الحكمة أن أترك بيتي؟

- وهل من الحكمة تركك مع مجنون؟ لابدَّ أن يعرف أنَّه حاد عن الخط المستقيم ويندم على ذلك..

- لكن أخاف أن يؤذي نفسه

- لا تخافي إنه أجبن من أن يفعل شيئًا بنفسه

- طارق لا تقل عنه هذا..

- جوانا أنا شقيقك ولن أفعل شيئًا يضرك، ثقي ب..

- كلي ثقة بك، لكن أين هو الآن، لا أستطيع أن أغادر قبل أن أعرف أين هو على الأقل

- إنه فاقد الوعي أمام باب حجرتك..

أسرعت اليه وهي تقول لأخيها:

- كيف أمكنك تركه مرميًّا هكذا؟ أرجوك احمله إلى السرير..

- حسنًا سأضعه في السرير ريثما تجهزين حقيبتك..

ظهر التردد على وجهها فقال بسرعة:

- لا تقولي إنك لا تستطيعين تركه وهو في هذه الحالة..

- إنَّه فاقد الوعي

- ليس به شيء فقد وعيه بسبب الإفراط في الشراب، كلُّ ما يحتاجه هو النوم، يمكنك البقاء يا جوانا لكنه سيفعل ما يفوق هذا الجنون المرة القادمة..

- ولكن

- لا يوجد لكن، زوجك يحتاج لقرصة أُذن ..هيَّا

أطاعته مرغمة بمنطقِ العقلِ وعندما انتهت وجدتْه يكتب ملاحظة لماهر:

>عندما تعود لوعيك تعرف اين تجدها<

طارق

ووضع الورقة على المنضدة بجوار سريره وقال: هيَّا بنا.

****

جلس الثلاثةُ حنين وحامد وحسان على مائدة الإفطار. وعندما تعالى مزمار سيارة المدرسة قام حسَّان من مكانه وتناول حقيبته بسرعة وقال:

- إلى اللقاء

فاستوقفته حنين قائلةً:

- هل أخذت مصروفك؟

هزَّ الصبيُّ رأسه نافيًا فأدارت وجهها لأبيه وقالت:

- ماذا تنتظر؟

أخرج الأب بعض النقود ودسها في يد الصبي فابتسمت لها حنين وقالت:

- اعتنِ بنفسك يا بني.

ابتهجت أسارير الصبيِّ وانطلق مسرعًا للحاق بالباص. عادت إلى طعامها ثمَّ قالت بعد برهة:

- من الأفضل أن تخصص مصروفًا لحسان وتضعه في يدي فأنت تنسى ذلك دائمًا.

ظهرت على وجهه الحيرة ثمَّ قال:

- إنه ليس ابنك فلما تدَّعين الاهتمام؟؟

- وإذا لم يكن ابني هل أتركه يموت جوعًا؟ يا عزيزي إن صورة زوجة الأب الشريرة التي طبعتها السينما في أذهاننا لا

نتطبق على كلِّ النساء. ثمَّ إنَّك غير مهتمٍ به البتة، إنسانيًّا يجب أن أهتمُّ أنا.

هتف بدهشة:

- أنا لست مهتمًّا؟!

- بالطبع أنت، هل لاحظت أنَّكما لم تتبادلا سوى كلمات معدودة منذ مجيئه؟ هل رأيتَ الحجرة التي ينام فيها؟، إنَّه ينام كخادمٍ على حاشية فراش في طرفِ حجرةٍ خاوية ثمَّ تزعم بعد هذا أنك مهتم.

ظلَّ ينظر إليها وعلامات التعجب جليَّةً على وجهه ثمَّ ابتسم لها ابتسامةً صافيةً وهو يربت على خدها قائلًا:

- أنت حنونة جدًّا هل تعلمين ذلك؟!! حسنًا سأهتمُّ بأمرِ الغرفة مع بداية الشهر بإذن الله

بدأت تجمع الأطباق وقالت:

- أريد زيارة صديقتي جوانا بعد الدوام إن كنت لا تمانع.

ظل صامتًا للحظات حتى ظنَّت أنه سيرفض لكنَّه قال أخيرًا:

- لا بأس يمكنك الذهاب لكن لا تتأخري.

****

بدت حنين مرحةً كما لم تكن منذ زواجها عندما ذهبت مع سارة لزيارة جوانا في منزل أسرتها والتي بدت بدورها مكتئبة. أمَّا سارة فكانت العودة إلى هذا المكان تثير في نفسها الكثير من الذكريات السعيدة والحزينة في ذات الوقت فأخذت تثرثر عن العمل في محاولة لتجاهل ما في داخلها فقالت:

- ما رأيك أن نفرش الطابق الأرضي على الطراز الريف الفرنسي بالأرضيات الخشبية والأثاث الأثري الثقيل ونزيل الجدار المطلَّ على الحديقة الخلفية ونستبدلها بجدارٍ زجاجيٍّ ونفرش الطابق العلوي بدرجاتٍ مختلفةٍ من اللون الأزرق مع إعطاء كلِّ غرفة طابعًا خاصًّا.

ردت حنين: لقد سبق وناقشنا كلَّ هذا .

أزاحت سارة خصلات من الشعر عن وجهها إلى ما خلف أذنها وقالت:

- هل سبق وقلت هذا؟ لا أذكر.

قالت جوانا بفتور:

- يبدو أن أموركما على ما يرام في مشروعكما، لمَ لمْ تشركانني معكما؟؟

قالت حنين:

- ولمَ تتركين الراحة والأمان والسعادة لتشقي في عالم الأعمال مثلنا؟

سألت جوانا: ولمَ تشقيان أنتما؟

ردَّت سارة:

- لأنَّ نسبة استمرار زيجاتنا لا تتجاوز20% لذا نشقى لبناء شيء آخر يواسينا في حال تحقق ما نخشاه..

ردت جوانا:

- لستما وحدكما من يخشى الفشل.

سألت سارة باهتمام وقد أحسَّت بالحزن في كلامها:

- ماذا يمكن أن يعني هذا؟

تنهدت جوانا وقالت:

- لا شيء، كان مجردَ تعليقٍ عابرٍ..

- متأكدة أنَّه لا شيء، فأنت تبدين غريبة اليوم..

قالت حنين بمرح:

- لابد أنها تفتقد ماهر

ردَّت جوانا:

- بالفعل أفتقده بشدة

لم تصدق سارة ذلك لكنَّها لم تشأ الضغط عليها فالتفتت إلى حنين وقالت:

- أنت أيضًا مختلفة اليوم تبدين سعيدة...

- لقد أحرزت تقدمًا ملحوظًا في علاقتي مع حامد بفضل حسان لقد بدا يخرج من جموده، واندفعت تروي ما حدث صباحًا ثمَّ ختمت حديثها: قال لي أنت حنونة جدًّا يا الله يا سارة ما أروعها عندما قالها..

قالت سارة:

- أنا سعيدة لأجلك ولكن لا تبالغي في الفرح فالهزَّات الارتدادية لدى بعض الرجال مدمرة كوني على طبيعتك كما أنت دائمًا، آه يا حنين لقد وضع حامد في يدك سلاحًا فتَّاكًا..

- سلاح؟ أي سلاح؟؟

- ابنه حسان إن كنتِ لاحظتِ ذلك

- لم أفكر في الصبي أبدًا كسلاح، كلُّ ما في الأمر أنني أحببت الصبي وأريد من كلِّ قلبي أن أجنبه طفولة بائسة تترك مرارتها طوال السنين..

- استمري هكذا وستنالين كلَّ أمالك، آه تذكرت شيئًا هل تذكرين يا حنين لوحة الذكريات التي رأيناها في قصر التلة ما رأيك أن نصنع مثلها..

- كانت من أجمل ما رأيت، أن تنثري الذكريات الجميلة أمامك إنها سعادة لا توصف

قاطعتهما جوانا:

- عن أي لوحة تتحدثان؟ وكيف نصنع مثلها..

ردَّت حنين:

- يا عزيزتي سيدة القصر قالت إنها عندما اجتمعت مع صديقتها المقربة بعد طولِ غياب أخرجتا صورهما القديمة وجلستا تسترجعا تلك الذكريات وتضحكا على مظهرهما في تلك الصور وفي النهاية علقتا تلك الصور على لوحة وكتبتا تعليقات على كلِّ صورة والآن رغم افتراقهما، كلُّ واحدة في بلد كَانت تلك اللوحة مصدر سعادة دائمة للسيدة العجوز..

جوانا: فكرة جميلة هيَّا لنصنع مثلها

حنين: هل لديك لوحة؟

جوانا: لابدَّ أنْ أجد لوحًا هنا أو هناك..

سارة: أين ألبومات صورنا؟

جوانا: إنها في غرفتي فوق الخزانة سأحضرها

سارة: ابحثي أنت عن اللوحة وأنا سأحضرها

خرجت سارة مسرعة وقالت حنين:

- وأنا سأبحث عن الدبابيس

بعد لحظات دوت صرخة وأعقبها صوت ارتطام بالأرض فهبَّت الاثنتان فزعتين وقالتا بصوت واحد:

- سارة!!

ركضتا باتجاه الغرفة وتبعتهما أم جوانا ثمَّ طارق الذي خرج من حجرته على صوت الارتطام وهو يسأل:

- ماذا حدث؟

في الغرفة كانت سارة واقعة على الأرض وقد سقطت عليها إحدى الأبواب الزجاجية للخزانة وانغرست شظيةٌ في يدها اليمنى والدم ينزف منها بغزارة. فترنحت جوانا وكادت أن تسقط من منظر الدم فصاحت أمُّ جوانا:

- حنين خذيها إلى الغرفة الثانية قبل أن يغمى عليها..

وتقدَّمت إلى سارة التي كانت متألمة للغاية ورفعتِ اليد المصابة فإذا الشظية تبرز من الجهة الأخرى وعندما حاولت تحريك الشظية صرخت سارة ألمًا فقال طارق:

- من الأفضل تركها في مكانها خشية تمزيق عرق أو عصب ولنسرع إلى المستشفى..

ساعدها على النهوض والنزول وهو ممسك بيدها المصابة بحذرٍ ويقول لأمه:

- كيف حدث هذا يا أمي؟ كان من الممكن أن تقتلها تلك الزجاجة لو انغرست في مكان آخر

قالت الأم:

- قدَّر الله وما شاء فعل يا بني.

في تلك اللحظة نسيت سارة كل ألمها تمامًا و طارق ممسك بيدها ويكاد يموت هلعًا عليها وعندما أدخلها إلى المقعد الخلفي قال لأمه:

- اجلسي جوارها وانتبهي ليدها.

وأسرع يجلس خلف المقود وينطلق بسرعة وهو مشتت الانتباه بينها وبين الطريق وعندما وصلوا أوقف السيارة كيفما تقف وأسرع يساعدها مع أمه وهو يشير لطاقمٍ المستشفى بإحضار كرسيٍّ متحركٍ...

****

قالت جوانا بعد أن تحسَّنت حالتها وزال عنها الغثيان:

- ليتني ذهبت معهم

ردت حنين:

- أمك وطارق معها وستكون بخير إن شاء الله

- لقد كان منظر يدها فظيعا لابدَّ أن الألم كان .....

قطعت كلامها عندما تعالى زنين هاتفها النَّقال بنغمة معينة وارتسم الاضطراب على وجهها. ناولتها حنين الهاتف وهي تقول:

- إنَّه زوجك.

أخذت منها الهاتف قائلة: أعرف، ووضعته على المنضدة أمامها فسألتها حنين:

- ما بك؟ لم لا تجيبين؟

وعندما لم ترد جوانا على سؤالها أكملت:

- هل حدث بينكما خلاف؟؟

أومأت جوانا برأسها بالإيجاب فشهقت حنين قائلة:

- يا إلهي اختلفتِ مع ماهر الأطيب من النسمة، لا تقولي إنه بسبب ما حدث عندما كان مسافرًا؟؟

أغمضت عينيها تكافح الذكرى وهي تقول:

- بلى .. لا تعلمين كم كان الأمر مرعبًا

وأجهشت بالبكاء فضمَّتها حنين إليها وأخذت تهدئ من روعها قائلة:

- ليس الأمر سوى سحابةِ صيفٍ وتمر بسلام..

اعتدلت جوانا وهي تمسح دموعها وقالت:

- أتعشَّم ذلك، دعينا نهتم بأمرِ سارة أولًا سأتَّصل بطارق..

ردَّ طارق قائلًا:

- إنَّها بخير لقد خدَّرها الطبيب؛ ليخرجَ الشظية وخيط الجرح..

- حسنًا سأتَّصل بك فور استيقاظها

- انتظري، اتصلي بزوجها أو أمها بالتأكيد ستجدين الرقم في هاتفها النقال..

- حسنًا لن أنسى، إلى اللقاء.

أغلق الخط وعندما همَّ بوضعه في جيبه تعالى رنينه مجددًا وما أن نظر إلى الرقم حتى تمتم في غلٍّ لقد اخترتِ الوقت الخطأ...

رد: نعم.. ماذا تريد؟؟

- أهلًا طارق أين جوانا؟؟ لمَ لا ترد على اتصالاتي..

رد طارق ببرود: إنها في منزلنا معززة مكرمة، ولا تريد أن تكلمك، ومن الأفضل أن تنساها..

صرخ بهلع حقيقي: أنساها؟ مستحيل تعرف أنني لا أستطيع العيش بدونها..

ردَّ طارق بحزم: كان يجب أن تفكِّر في هذا قبل تهورك البارحة فأنا لن أسلم شقيقتي الوحيدة لمجنون مثلك مجددًا..

قال بندمٍ: كنتُ ثملًا حاول أن تتفهم موقفي، أرجوك دعها ترد عليَّ أكاد أجن فقط دعها ترد

قلت لا، ألا تفهم؟!!

في هذه اللحظة خرج الطبيب فأكمل:

- اعذرني أنا مشغول الآن.

أسرع إلى الطبيب قائلًا بقلق:

- كيف حالها؟

قال الطبيب مبتسمًا:

- لا داعي لكلّ هذا القلق إنها بخير واليد سليمة والأعصاب لم تمس بسوء فقط بعض الأوردة والشرايين التي تمزقت مما تسبب في هذا النزيف الهائل واحتاج الأمر إلى ست تقطيبات في راحة اليد واثنتين في ظاهرها ستستعيد وعيها خلال ساعة أو أقل، احرص على الراحة التامة والتغذية الجيدة لتعويض النزيف. وانصرف

****

جلس هشام بجوار عبير واضعًا ذراعه حول كتفيها فقالت بسعادة:

- مرَّ زمن منذ آخر مرة استمتعت فيه بالجلوس في المزرعة معك ومع الصغار.

مسد شعرها بحنان وقال:

- أنت دائمًا مشغولة..

فردت بتكشيرة:

- وأنت أيضًا مشغولٌ بعروسك، أتحبُّها كما تحبني؟

ردَّ بسرعة:

- أي سؤال هذا؟؟ تعرفين أنَّك حبي الأوحد...

نظرت إلى عينيه لتتأكد قبل أن تسأل:

- لماذا تزوجتها إذًا؟؟

ابتسم لها وقال:

- أرأيتِ؟؟ أنت من يفسد سعادتنا.

كبتت رغبتها في معرفة الجواب وقالت: هيَّا بنا نسبح

ضمَّها إليه وهو يقول بعذوبة: ليس الآن، انتظري حتى ينام الصغار ويكون المسبح لنا وحدنا

همَّت بقول شيء ما عندما دخلت شفيقة قائلة بمرح:

- ما أروع أن أراكما هكذا! كناريين متحابين

وركَّزت نظرها على هشام وأكملت بخبث:

- ما كان لهذا الحبِّ أن ينتهي.

شدَّ هشام ذراعه حول خصر عبير وقال بحنان:

- ومن قال إنه انتهى؟!

قالت شفيقة:

- هيّا يا عبير لنجهز العشاء لابدَّ أنَّ الأطفال جياعٌ جدًّا بعد السباحة كلَّ هذا الوقت.

قامت عبير وهي تتذمر عندما رنَّ هاتف هشام فأجاب:

- أهلًا، نعم أنا هشام السيد، من أنت؟؟

هبَّ مذعورًا وهتف:

- ماذا؟ متى حدث هذا؟ أين هي الآن؟؟ سأكون هناك حالًا..

وضع الهاتف واتَّجه إلى الخزانة لتبديل ملابسه فتبادلت شفيقة وعبير النظرات وسألت الأولى:

- ماذا حدث؟؟ وإلى أين؟؟

ردَّ دون أن يلتفت:

- سارة أصيبت وهي في المستشفى الآن..

اكفهر وجه عبير وقالت بغلٍّ:

- اللعينة

أمسكت شفيقة بيدها وأشارت لها أن تصمت وقالت لهشام:

- لم أكن أعلم أنك غرٌّ ساذج لهذه الدرجة..

احمَّر وجهه من الإهانة وقال بغضب:

- أنا غرٌ ساذجٌ؟؟

- بالطبع، ألا تعلم شيئًا عن الألاعيب النسائية ، مؤكد أنها علمت بأمر هذه الرحلة فاستكثرت عليكما أنت وعبير الاستمتاع بالرحلة، اسألني أنا، هذه الألاعيب قديمة قدم النساء يا عزيزي..

فكر للحظة ثمَّ قال:

- لا أعتقد أن سارة تنحدر إلى مثل هذه الألاعيب التافهة.

صرخت عبير في غيرة واضحة:

- وتزعم أنَّك لا تحبها! انظر كيف انتابك القلق عليها؟ انظر كيف تدافع عنها..

- إنها زوجتي، ومن الطبيعي أن أقلق عليها...

قالت أخته في سخرية:

- يا عزيزي ما أسرع ما طوتك تحت جناحها، لم أتوقع أن تنخدع بأساليبها الرخيصة بهذه السهولة..

انتفخت أوداجه غضبا لكنَّه لم يستطع الرد فمهما كان فهي أخته الكبرى. غطت عبير وجهها بكفيها وبدأت بالنحيب وهي تقول:

- كنت أعلم أنَّ هذا سيحدث، أبدًا لن تتركنا تلك اللعينة وستدمر حياتنا.

قالت شفيقة: اهدئي يا عزيزتي الأمر لا يستحق

ردت عبير وهي تزيد في النحيب:

- كيف لا يستحق؟ وأنا أراها تسرق فرحتي وفرحة أطفالي.

نظرت إليه أخته في ازدراء وقالت مذكرة:

- أهذا هو الحب الذي لم و لن ينتهي؟ اذهب ستجد الأمر محض افتراء وفي أحسن الأحوال مجرد حادث بسيط.

وقف ممزقًا بين الولاء والواجب وأخيرًا قال بغلٍّ:

- سأذهب وإذا كان الأمر خدعة كما قلت فقد جنت على نفسها براقش وسيكون هذا اليوم آخر يوم لها على ذمتي، وسترون

أكمل ارتداء ملابسه وخرج بينما عبير تبكي وشفيقة تنظر إليه باحتقار.

وما أن خرج حتى رفعت عبير رأسها تسأل:

- هل أنت متأكدة أنها خدعة؟

- ومن أين لي أن أعرف؟ كلُّ ما أعرفه أنها إذا كانت خدعة ففيها نهايتها

- يا رب، اجعلها خدعة.

هزَّت شفيقة رأسها نافية وقالت:

- 99.9% الأمر حقيقي فسارة ليست امرأة عادية لتلجأ لمثل هذه الخطة المبتذلة.

- ماذا سنفعل إذًا؟؟

- يجب أن نغير التكتيك، ألا ترين أن أسلوب البكاء لم يعد يجدي نفعًا؟ ألا ترين أنه لم يعد يتأثر به كذي قبل؟؟ والأدهى أنها بدأت تحوز إعجابه حتى لو أنكر، إنها تتسرب إلى تحت جلده رويدًا رويدًا، كلُّ هذا بسبب أسلوب النكد خاصتك

قالت عبير في جزع: يا إلهي وماذا أفعل؟

- أظهري اللامبالاة، أظهري عدم الاهتمام، ابتعدي قليلًا ليراك فالرجالُ شغوفون بكلِّ ما يخرج من بين يديهم.

****

خرجت حنين من منزل جوانا وهي تدعو الله أن لا يكون حامد قد عاد وإلا ستنتهي الليلة بكارثة وعندما فتحت باب الشقة وسمعت صوت نشرة الأخبار لم يدع هناك مجال للشك أو الأمل أو حتى الرجاء فدخلت بقلبٍ متوجسٍ وقالت بمرح:

- مساء الخير

فبدأ الهجوم مباشرة قائلًا بحدة:

- أين كنت حتى الآن؟؟

ردت:

- أخبرتك أنني ذاهبة لزيارة صديقتي.

اقترب منها وقال بشراسة:

- وأخبرتك ألا تتأخري

قالت معتذرة:

- أنا حقًّا آسفة، لكن الموضوع لا يستحق كلَّ هذا التصعيد ثمَّ هناك سبب.....

قاطعها بصفعة على وجهها وهو يقول بحدة:

- أنا من يحدد ما يستحق وما لا يستحق

جمعت شعرها المتناثر على وجهها وابتعدت دون كلمة أو نظرة. كان حسان واقفًا ينظر إليهما قد بدا عليه الذعر فاتجهت إليه وسألته:

- هل أكلت شيئًا بعد عودتك من المدرسة؟؟

نظر إليها مستغربا ثمَّ هز رأسه نافيًا فأسرعت تدخل المطبخ رافعة رأسها إلى الأعلى كي تمنع دموعها من التساقط. غسلت وجهها وأعدت الطعام لحسان وصنعت إبريق شاي لهما وخرجت إلى الغرفة ووضعت الأشياء دون أن تتكلم معه وقالت لحسان:

- تناول طعامك بسرعة حتى تراجع فروضك المدرسية.

غيَّرت ملابسها بملابس منزلية مريحة وعادت إلى غرفة المعيشة رغم أن خدَّها كان ينبض من الألم لكنهَّا لم تشأ أن يعرف أنه آلمها. فتحت كتابًا وجدته أمامها على المنضدة ظلَّت تقلِّب الصفحات دون أن تركِّز في أيِّ شيء حتى انتهى حسان من وجبته وجاء بحقيبته فاندمجت معه يقرآن ويضحكان فقد كان طفلًا ذكيًّا حلو المعشر. ظلَّ حامد يراقبها مندهشًا وهو يقول في سرِّه: تلك اللعينة تفقدني لذة انتقامي، وليس هذا فقط بل تجعلني أشعر بالذنب.

قالت لحسان بحبور:

- إذا كانت درجتك عالية سأحضر لك جهازَ بلاي ستيشن هل لعبت به مسبقًا؟؟

نظر إلى أبيه ثمَّ قال:

- لم تكن خالة زينب تسمح لي باللعب به إلا نادرًا..

ضمَّته إليها وقالت: حسنًا اجتهد فقط وسنلعب أنا وأنت كثيرًا.

أراد أن يقبِّلها لكنه اختار الخد الخطأ فتأوهت متألمة فقال الصغير بجزعٍ:

- أنا آسف لم أقصد ايلامك

ضمَّته إليها أكثر وقالت كاذبة: لا بأس يا حبيبي، أنا لم أتألم

قام حامد مغادرًا وقال: تصبحون على خير.

وما أن سمعت الباب يغلق حتى أسرعت إلى المطبخ وأفرغت مكعبات الثلج في كيسٍ بلاستيكي ووضعته على موضع الألم. سألها حسان ببراءة الطفولة:

- هل ضربته مؤلمة؟؟

لم تكن تريد أن تبكي لكن الألم المتزايد وتعاطف الصبي معها جعل دموعها تنهمر وهي تقول:

- يا صغيري، إنَّ لأبيك يدًا قوية..

- عندما ضربني آخر مرة رأيت ألون الطيف السبعة

قربته منها وهي تداعب شعره في تعاطفٍ فقال بخجل:

- هل لي أن أطلب منك أمرًا؟؟

ردَّت: اطلب يا صغيري.

قال بترددٍ: هل أستطيع أن أناديك ماما؟

ردَّت بابتسامة حلوة : لا شيء أحبُّ إلى قلبي من ذلك.

****

ظلَّ طارق وافقًا أمام باب الغرفة يحاول أن يبعد تفكيره عنها دون أن يستطيع إلى ذلك سبيلًا. فهي لم تخرج يومًا من تحت جلده ظلَّت كامنة هناك تعذبه بتجديد الذكريات فلم ينسى أبدًا صوتها العذب، ضحكتها الفاتنة، أساليبها المتفننة في التسلل

إلى عقله وقلبه، لم ينسَ يوم نبذها، ألمها، بكاءها، وها هي اليوم أمامه، لن يكون إنسان إن لم يتحرك الشوق ويهزّ كيانه.

- يا سيدي .. هل من الممكن أن تدخل وتبقى مع المريضة؟؟

أفاق من شروده وقال: ماذا؟ أين أمي؟؟

- لقد ذهبت إلى دورة المياه ثمَّ لأداء الصلاة والمريضة بدأت تستعيد وعيها، وقد انتهى دوامي والسائق ينتظرني. والممرضة التي تحلُّ مكاني تباشر حالة شخص مصاب بحروق

أخذ نفسًا عميقًا محاولًا استجماع شجاعته وقال:

- حسنًا، سأدخل إليها.

شكرته الممرضة وأسرعت إلى الخارج، دخل الغرفة وحرص على ألا ينظر إليها لذا وقف أمام النافذة موليًا إياها ظهره. وبعد لحظات سمعها تتأوه ألمًا فأحسَّ بالألم ينهش قلبه وأسرع يستدير إليها. لقد بدأت تستفيق فتحت عينيها ونظرت إليه

لكنَّها ظنت نفسها تحلم فابتسمت له ابتسامة هزَّت كيانه فاقترب منها وهو يهمس:

- كيف حالك الآن؟؟

لم تكن الصورة واضحة أمامها مازالت ترى الأشياء ضبابية. جلس على الكرسي المجاور لسريرها وأمسك بيدها السليمة بين راحتيه وقال:

- حمدًا لله على سلامتك يا حبيبتي.

تسللت الكلمة ناعمة منعشة إلى قلبها مباشرة . وأكمل بحنان:

- لا أدري كيف تجرأت المرايا غلى خدش أرق وأنعم يد في الوجود، معذورة هي، فهي لا تعلم أي ملاك أنت، يا ملاكي العذب الحنون.

طبع قبلة حارة على راحة يدها أودعها كلَّ أشواقه اللاهبة. أحسَّت سارة بحرارتها تدفء قلبها فقالت بين الوعي واللاوعي:

- أهذا أنت يا طارق؟

احتضن يدها بين راحتيه وهو يقول:

- إنه أنا، أه .. لو تعلمين كم اشتقتُ إليك، لا أصدق أنَّك أمامي وأمسك بيدك.

أعادتها كلماته إلى الواقع بقوة فأسرعت تسحب يدها من بين يديه. ظلَّ للحظات ينظر إليها مصدومًا كمن يفيق من حلمٍ جميلٍ فيجتاح الفراغ كيانه. أما هي فشعرت كمن يلقي كنزًا من بين يديه. ظل التوتر سائدًا في الجو حتى قام من مكانه وهو يقول:

- آسف ما كان يجب أن أفعل هذا

فلم تجب رغم أن قلبَها كان يصرخ متألما لكن وجهها بقي جامدًا لقد نبذها بملء إرادته. وربما لن تحب أحد مثلما أحبته لكنَّها لن تسامحه أبدًا. عاد إلى مكانه بجوار النافذة وعندما دخلت أمه هتفت مستنكرة:

- ماذا تفعل هنا؟؟ سيأتي زوجها في أيِّ لحظة.

دون أن ينطق بكلمة طأطأ برأسه وخرج. التفَّت الأم إلى سارة وقالت بفرحة:

- أرى أنَّك استعدت وعيك. كيف تشعرين الآن؟؟

ردَّت سارة: إنني بخير.

ساعدتها على الجلوس وجلست بجوارها تضمها إليها وتقول بحنان:

- حمدًا لله على سلامتك يا حبيبتي، لقد ذعرنا جميعًا عليك فقد كان منظر يدك فظيعًا.

استكانت سارة في حضنها شاعرة بالراحة والسرور لكن هذا الشعور سرعان ما تبدد عندما دخل هشام الغرفة مغضبا وهو يقول:

- ما هذا الهراء؟؟ من أجل هذا الجرح البسيط يحدث كلُّ هذا الازعاج.

ظلَّ هشام طوال الطريق يأمل ويتمنى أن يكون ما قالتاه عبير وشفيقة حقيقيًا فتكون حجة ليتحرر ويعود إلى حياته القديمة

وعندما وصل وخاب أمله انفجر غضبه في وجهها. استقامت في جلستها وسألته:

- كيف عرفت؟؟

زفر في ضيق قائلًا:

- إحدى صديقاتك اتَّصلت بي مما جعلني أترك عبير والصغار في المزرعة وقطع مسافة 40 كيلو متر مع أنَّ الأمر لا يستحق.

نظرت أم جوانا إليه مستغربة ثمَّ قالت:

- اعذرني يا بني لتدخُّلي، ولكن أخبرني إذا كان إخراج شظية زجاجية من يد زوجتك وخيطتها بثماني غرز أمرًا لا يستحق فما الذي سيستحق؟؟!

زفر بضيق وحرج وقال: إنها ألاعيب نسائية.

كان إظهاره عدم اهتمامه لأمرها أمرًا مشينًا بحد ذاته وكان إظهاره أمام الملأ وبالذات أمام طارق الذي يقف عند الباب ويشهد ذلَّها أمرًا فوق احتمالها فقالت بانفعال:

- ألاعيب نسائية؟ وكيف سمحت لنفسك أن تنساق ورائها أو تنخدع بها, حسنًا أنا ل اتصل بك ولم اطلب من احد الاتصال بك؟؟ ولا أريدك هنا؟؟ لذا يمكنك العودة إلى المزرعة قرير العين فأنا قادرة على رعاية نفسي ويمكنني العودة إلى المنزل في سيارة أجرة..

قالت الأم: سنعيدك نحن إلى منزلك

قال هشام بضيق: ما دمت هنا يمكنني القيام بذلك

قالت الأم لسارة: لقد كتب لك الطبيب بعض المسكنات فعندما يزول أثر البنج سيكون الألم قويًّا.

ثمَّ ناولت الوصفة لطارق الذي رمق هشام بنظرة حافلة بالعداء المرِّ وذهب فقالت لهشام:

- أحضر السيارة أمام باب المشفى بدلًا من وقوفك هنا.

فخرج هو أيضًا، قالت الأمُّ لسارة وهي تربِّت على رأسها بحنان:

- إن ما تفعلينه مضرٌ جدًا يا عزيزتي.

- ما الذي فعلته؟؟

- إنك تخزنين كلَّ المشاعر المؤلمة داخلك. إن دمعة لم تنزل من عينيك رغم كلِّ ما حدث

ضمَّتها إليها مجددًا دون أن تنتظر منها إجابة. دخل طارق فوقف ينظر إليهما بحنان ثمَّ تنحنح

قائلًا:

- زوجها ينتظرها في الخارج.

بعد أن ساعدها هشام في دخول السيارة قال بلهجة جافة:

- شكرًا لكما.

ردت الأم: لا شكر على واجب إنها ابنتي

جلس هشام خلف المقود وانطلق بسيارته في حين ظلَّ طارق يحدِّق في السيارة المبتعدة والشرر يكاد يتطاير من عينيه حتى أمسكت أمه بذراعه قائلة:

- هيَّا يا بني..

دخل سيارته وضرب المقود بقبضته في غلٍّ وهو يقول:

- الحقير إنه لا يستحقها.

نظرت إليه أمه مستنكرة ثمَّ قالت:

- وأنت أيضًا لم تستحقها..

التفت إليها مستغربًا وهمَّ بقول شيء ما لكنها قاطعته قائلة:

- بغض النظر عن من يستحقها فقد ذهبت, وأظن أنَّ موضوع جوانا أولى باهتمامك من حبيبة فقدتها بإرادتك...

ظلَّ فاغرًا فاه كالأبلة قبل أن يستعيد وعيه وينطلق بسيارته.

****

ظلَّت سارة طوال الطريق سارحة تتذكر طارق، كيف كان قلقًا عليها، كيف اهتم لأمرها، كلماته، شوقه المحموم إليها، لقد ناداها بملاكي، أغمضت عينيها في نشوة تستعيد كلماته وتتلذذ بها فكانت كمذاق الشهد، كانت الكلمات بصوته العذب الجهور كسمفونية سماوية لها وقع.....

- هل تسمح الليدي سارة بالنزول، أم تريدني أن أرافقها إلى جناحها الملكي؟

تفرَّست النظر اليه وهي تسأل في سرها من أين جاء هذا الشخص عديم المشاعر؟ ونزلت من السيارة وهي تغالب ألمها ثمَّ قالت بهدوء:

- لقد بقيت أغراضي في منزل جوانا ومفتاحي ليس معي هلا أعطيتني مفتاحك؟

نزل من السيارة ورافقها إلى بابِ الشقة وفتح لها ثمَّ قال:

- هل تحتاجين شيئًا آخر؟

- يمكنك العودة إلى عبير فأنا لن أعطلك أكثر..

بدا مترددًا في الذهاب فقال:

- متأكدة أنك لا تحتاجين شيئًا آخر؟؟

تفحصته ببصرها صعودًا وهبوطًا ثمَّ قالت:

- لقد قمت بما يكفي من دمار، اذهب، فهناك أشياء لا تستجدى..

ودخلت شقتها بكلِّ هدوء وأغلقت الباب خلفها، بقي للحظات واقفًا أمام الباب شاعرًا بوخز الضمير. ثمَّ نزل وانطلق بسيارته ليواجه كارثةً أخرى..

****

أوقف طارق سيارته أمام البناية التي تقيمُ فيها سارة وقال لأمِّه: اصعدي يا أمي ستلحق بك جوانا بعد قليل، أريد التحدث معها.

قالت الأم: في أيِّ طابقٍ تقيم سارة؟

ردَّت جوانا: في الطابق الأخير شقَّتها تحتلُّ الطابق بأكمله.

تركت الأم السيارة فبادرها طارق قائلًا:

- أنا متأكدٌ أنَّ ماهر لم يتوقف عن الاتِّصال أبدًا؟

بان الألم في صوتِها وهي تقولُ:

- صحيح، لقد اتَّصل مئات المرات لكن لم أستطع الرد عليه، لقد قلت له أشياء فظيعة، أشعر بالخجل بمجرد التفكير فيها..

- بدلًا من أن تفكري في ما قلتِ، فكِّري فيما فعله هو، أعلم أنكما الاثنين في حالةٍ يرثى لها فإذا اتَّصل بكِ أجيبي وأعلميه أنَّك مستاءة جدًا مما فعله، وأنك عدتِ إلينا بملء إرادتك.

أشرقت ملامحها لفكرة التحدث معه فقالت:

- حسنًا.

همَّت بالنزول فأمسك بيدها قائلًا:

- نصيحة مني كوني حازمة معه لأجلك ولأجله..

- ثق أنني سأكون كذلك، وشكرًا على النصيحة..

- اتَّصلي بالسائق ليعود بكما، سأذهبُ في مهمةِ عملٍ خارج البلدة وسأعود متأخرًا، وربما غدًا على أبعد تقدير...

نزلت من السيارة وهي تسابق الخطوات وقد ارتفعت روحها المعنوية، دخلت الشقة وهي تنادي:

- سارة .. ماما أين أنتما؟

ردَّت الأمُّ: نحن هنا في غرفة النوم

اتَّجهت إليهما, وعندما رأت أمها تطعم سارة بيديها قالت:

- ما أروع هذا، كلُّ هذا الدلال من أجل الإصابة البسيطة؟؟

رفعت سارة بصرها محاولة الابتسام رغم ملامح الألم وقالت:

- أهلًا جوانا

قالت جوانا وهي تري امها تطعم سارة بيديها: ما كل هذا الدلال؟؟؟

ابتسمت سارة بسعاده في حين قالت الأمُّ: سارة فتاتي المدللة منذ كنتما صغيرتين

فكَّرت سارة لطالما دللتها أم جوانا. لكن هذا الدلال يشعرُها كمن يتلصص على موائد الآخرين ويسلبهم ما ليس له بحق، وكأنَّها تسرق حنان ليس من حقها. لذا كانت تشعر بالحرج عندما يبدي لها أحدٌ مثل هذا الحنان والاهتمام. قالت الأمُّ وهي تلاحظُ الانفعالات على وجهها:

- ما بك يا صغيرتي؟ هل زادت حدة الألم؟

ردَّت كاذبة: نعم.

وأبعدت الصينية عنها وأكملت:

- سأتناول الدواء الآن.

- لكنك لم تكملي طعامك بعد

- لقد اكتفيت يا خالتي، سلمت يداك.

لم يبدو على الأمِّ الرضا لكنَّها خضعت لرغبتها وناولتها الدواء رويدًا رويدًا، بدأت تقلصات الألم تزول مع سريان مفعول الدواء فجلسن يثرثرن عن الحادثة قبل أن تقول الأمُّ لجوانا:

- هيَّا ساعديها على الاغتسال وتغيير ملابسها ريثما أجهِّزُ لها بعض الأطعمة وأحفظها بالثلاجة وما عليك سوى تسخينه...

- انها مجرد جرح بسيطة ياخالتي ولست إعاقة

- أعرف يا صغيرتي، لكن يجب أن تكوني حذرةً فمازال الجرح نديًّا، ولن يحتمل أيَّ مجهود

بعد الاغتسال شعرت سارة بالانتعاش والحيوية والراحة وقالت لجوانا:

- من فضلك أعطني الهاتف فلدينا جدولُ عملٍ مزدحم سأتَّصل بحنين لتُحضِر ما تستطيع معها إلى هنا.

أحضرت جوانا الهاتف وهي تسأل:

- متى سيعود زوجك من العمل؟

- لا أدري ربَّما في المساء

- ماذا؟؟ ويتركك كلَّ هذا الوقت بمفردك وأنت مصابةً..

- لا تجعليني أضحك يا جوانا، لقد تركني البارحة بمفردي بعد خروجي من المستشفى.. فهل سيبالي بما بعد ذلك؟!

ذُهلت جوانا ولم تعرف ماذا تقول ولا كيف تواسيها ثمَّ قالت بعد برهة:

- هل ستأتي أمك؟؟ لا بدَّ من أحد ليرعاك

- ما فعلتماه أنت وخالتي أكثر من كافٍ، ثمَّ أنني لم أخبر أمي، وإنْ أخبرتها فلا أظنُّها ستأتي...

قالت أم جوانا التي دخلت الغرفة في تلك اللحظة:

- لا تستبقي الأحداث أخبرها فقط.

- حسنًا سأفعل ذلك مع أني أرى أنَّه لا ضرورة لذلك فأنا قادرة على رعاية نفسي..

رفعت سماعة الهاتف واتَّصلت بالبيت الكبير وتحدثت مع أمها مخبرة إياها ما حدث معها وعندما وضعت السماعة قالت أم جوانا:

- لكنَّك لم تطلبي منها الحضور.

- إن شعرتْ برغبة بالحضور من تلقاء نفسها فعلى الرحب والسعة، وإلا فلن أستجدي رعايتها..

كانت أم جوانا تدرك إبعاد علاقتهما المضطربة فسكتت ولم تحرِ جوابا في ذات الوقت، فتعالى رنين جرس الباب فقامت جوانا قائلة: لابدَّ أنَّها حنين، ما أسرعها.

ردَّت سارة:

- إنَّ المكتب على بعد ربعِ ساعة من هنا سيرًا على الأقدام.

وما إن دخلت حنين الغرفة حتى صرخت الأم مرتعبة وهي ترى الاحمرار على وجهها:

- ما الذي أصابك أنت الأخرى؟؟

قالت وهي تبسم لها مطمئنة:

- يبدو أنَّه كان يومًا أسود لنا جميعًا, لقد ارتطمت بباب الخزانة البارحة.

وضعت ما تحمله وأكملت:

- كيف حال مريضتنا؟

وانحنت تقبِّلها وهي تقول:

- لقد خفتُ عليك لحدِّ الموت

وعندما خرجت الأمُّ سألتها سارة:

- ما الذي حدث؟

- هزة ارتدادية من النوع الذي تحدثت عنه البارحة.

ربتت سارة على يدها مواسية فقالت حنين وهي تنظر إلى جوانا:

- وأنت كيف سارت أمورك؟؟

ردَّت بأسى:

- قضيت الليل بطوله أستمع إلى صوت الهاتف يرن, لم يتوقف لحظة واحدة كان الأمر مدمرًا للأعصاب، بل مجرد الشعور به يتألم أمرٌ مدمرٌ بحقٍّ، لكنني سأتحدث إليه اليوم و....

قاطعتها سارة:

- لحظة، لحظة، ما الذي فاتني؟

روت جوانا ما حدث ثمَّ قالت بعد برهة من الصمتِ والتأمل:

- ألا نبدو نحن الثلاثة بائسات بحق

ردَّت سارة:

- لا أنت لست مثلنا فعلى الأقل ثمة أرضية مشتركة تقفان عليها، ثمة حب، لا إكراه، ولا انتقام مثلنا..

دخلت الأم وقالت:

- هيَّا جوانا، لن يتأخر والدك في العودة إلى المنزل والسائق في انتظارنا

وانحنت الأمُّ تقبِّل سارة وهي تقول:

- اعتني بنفسك يا صغيرتي..

ردَّت سارة: أنا ممتنة جدًّا لمجيئك يا خالتي، شكرًا لك.

ربتت على خدِّها بحنان وقالت:

- أنت ابنتي فلا شكرَ على واجب..

ثمَّ قالت لحنين:

- لا تدعيها ترهق نفسها بالعمل.

ردت حنين:

- اطمئني يا خالتي سأكون ملاكها الحارس

ودعتها جوانا فقالت لها أخبريني بما سيحدث معك أولًا بأول.

وبعد خروجهن انكبَّتا على وضع المخططات الأولية وحساب التكاليف وتوزيع المهام بينهما وبعد أن اكتملت الصورة قالت سارة:

- سأتولى الاتِّصال بالحرفيين والاتفاق معهم وتنسيق الأمور بينهم بينما تتولين الجولة في الأسواق لمعرفة الأسعار والاتِّفاق مع التجار، أنا آسفة أني ألقي كلَّ العبء عليك يا عزيزتي..

- لا تأسفي، سأردُّها لك في فرصة أخرى.

- إذًا لن أقلق لطول فترة مرضي، آه أشعر بصداعٍ فظيعٍ

- لقد أرهقت نفسك بالعمل سأحضر لك إبريقًا من العصير وأغادر فقد يعود حامد في أي لحظة.

****

جلست جوانا تتأمل هاتفها وهو يرنُّ متسائلة: هل ستملك الشجاعة الكافية لتكونَ حازمة معه. وأخيرًا أخذت نفسًا عميقًا وردت:

- نعم.

تنهد ماهر بارتياح بالغٍ وقال بفرح:

- أخيرًا، ظننت أن أهلك لن يسمحوا لك بالردِّ عليَّ أبدًا.

قالت بجفاء:

- إنَّ أحدًا لم يمنعني، أنا التي لم أرغب بالرد عليك.

شهق مذهولًا وسأل:

- ولماذا؟؟

ردَّت بحدة:

- ولماذا؟ أبعد كلِّ ما فعلته تسأل لماذا؟ يا لوقاحتك

سكت للحظة ثمَّ قال:

- أنت من أوصلني لهذه الحال..

بدأت أعصابها تتوتر وهي تقول:

- أنا؟!! بالله لا تبدأ بإلقاء تبعات حماقتك على الآخرين، أنت رجلٌ راشدٌ ولطالما عرفت بالاستقامة فما الذي غيَّرك حتى تسلك ذاك الدرب؟

قال بخنوع:

- أنتِ، عندما تخلَّيتِ عني ولم تعودي تحبينني كالسابق..

- من يسمعك يظنُّ أنِّي خنتك، أو تركتك، كلُّ ما في الأمر سوء فهمٍ بسيط واعتذرت عنه، وهب إن تركتك نهائيًا فهل هذا سببٌ كافٍ لتدمر حياتك بتلك الطريقة الرعناء..

- بل أكثر من كافٍ أنت حبُّ حياتي، أنت حلم عمري، هوائي ومائي، الذي لا أستطيع العيش بدونه..

- كلامٌ جميلٌ، لكن ينفي أنني لم أعد أشعر بالأمان معك، سواء على نفسي أو على طفلي

- وما يعني هذا؟؟

- يعني أنني لن أعود إليك فما أدري ماذا ستفعل بي وبنفسك في المرة القادمة..

مرَّت لحظات صمت طويل حتى ظنت أنَّه لم يعد على الخط فقالت:

- ماهر هل ما زلتَ هنا؟

انتبهت لصوت بكائه وهو يقول:

- كيف يطاوعك قلبك لتفعلي هذا بي؟ جوانا أحبك أم أنْ هذا لم يعد يعني لك شيئًا؟

وتعالى صوت بكائه ونحيبه فقالت بعطف:

- اهدأ، هذه ليست الطريقة الصحيحة للنقاش..

استمرَّ في بكائه وقال من بين الشهقات:

- وهل تركك لي هي الطريقة الصحيحة؟ هل ذبحك لي من الوريد إلى الوريد بإنهاء حبِّنا هي الطريقة الصحيحة؟ ما قيمة الحياة الآن بدون حبك؟ ما جدوى البقاء إن تركتني؟

غصَّ صوته بالبكاء مجددًا قبل أن يكمل:

- لقد أخطأت وأعترف أنني أخطأت، افعلي بي ما شئت اجلديني، احرقيني، عذِّبيني، لكن لا تبتعدي عني...

كانت تسمع كلمة وكلمة لا من بكائه ونحيبه لا تذكر أنَّها رأت أو بالأحرى سمعت إنسانًا يبكي بهذه الطريقة التي تُقطِّع نياط القلب. أخذتها الرأفة به فقالت:

- اهدأ يا حبيبي، ما الذي تريده الآن؟؟

كأنَّها أحيته من جديدٍ فقال بسرعة:

- أريد أن تعودي إلى بيتك، وأقسمُ أنَّك ستكونين بأمان معي

قالت بترددٍ:

- والطفل؟؟

قال بلهفةٍ: عودي أنت فقط ولك كل ما تريدينه، إنه ابني وقطعة مني فكيف لا أحبُّه مثلما أحبُّك

ظلَّت صامتة فاعتبر صمتها دليل الموافقة فقال:

- متى ستعودين؟؟

- لا أدري، أبي نائم، وأمي في زيارة لإحدى الجارات وطارق مسافر انتظر حتى الليل

قال بلهفة وكأنَّه يخشى أن تغير رأيها:

- كلَّا، سآتي الآن، لا تعرفين كم أكاد أن أموت شوقًا إليك..

- إنهما يومين فقط

- يومين وأنت غاضبة مني تساوي سنة سوداء، ثمَّ لا تنسي أنني كنت مسافر قبلها.. استعدي دقائق وأكون ببابك.

- ولكن...

قاطعها:

- لا يوجد ولكن، الآن وليس وقتًا آخر

قالت باستسلام:

- حسنًا، ولكن قدْ بحذر.

هتف بحبور:

- مرحى هذه حبيبتي التي أعشقها..

****

وصلت حنين إلى منزلها وهي تحدث نفسها بعد أن رأت سيارة زوجها في الخارج:

- إن تجرأ اليوم وضربها فلن تسكت وستخبر أباها وأخاها وهما سيتصرفان معه

دخلت المنزل وهي شامخة برأسها في كبرياء وقالت:

- مساء الخير.

ردَّ بابتسامة:

- مساء النور.

خلعت وشاحها ونظارتها فأقبل حسان من غرفته فرحًا مرحبًا بها:

- أهلًا ماما

اتَّسعت عينا الأب بدهشة في حين ردت هي:

- أهلا حبيبي.. كيف كان يومك؟ هل أكلت شيئًا بعد عودتك؟؟

قال في حبور واضح:

- كنا ننتظر عودتك لقد أحضرنا سمكًا شهيًّا

اتَّسعت عيناها غير مصدقة، إنها المرة الأولى التي يحضر فيها طعام من الخارج إنه لم يفعل ذلك حتى في صباحية عرسهما. فقالت بسرورٍ: لحظات وتكون المائدة جاهزة...

اتَّجهت إلى المطبخ بعد أن بدَّلت ملابسها فتبعها حسان ليساعدها في ترتيب المائدة وهو يثرثر عن يومه بسعادة وعلى المائدة كان حامدٌ ودودًا على غير العادة يقطّع لها السمك ويلقمها بيده لكنها ظلَّت تنهر نفسها عن التفاؤل والابتهاج. وبعد الانتهاء من الطعام وضعت لحسان بعد أن غسل يديه قطرات من العطر للتخلص من رائحة السمك وهي تقول:

- يبدو أنَّك تحب السمك كثيرًا مثل أخي..

- هل لديك أخ؟؟ ما اسمه؟؟

- اسمه مازن.

- هل هو طيب مثلك؟؟

- بالطبع وستحبُّه كثيرًا عندما تراه، سآخذك معي عندما أذهب لزيارتهم.

هتفَ الصبيُّ بسعادة: حقًّا؟!

- حقًّا والآن كن ولدًا مؤدبا واذهب لتقم بفروضك المدرسية..

اقترب منها وقال بصوت منخفض:

- إنه يحاول مصالحتك، هل لاحظتِ ذلك؟

لاحظت أنه دائمًا يتكلم عن أبيه بصيغة الغائب، لكنَّها قالت مبتسمة:

- ما زلت صغيرًا على ملاحظة ذلك.

انطلق مسرعًا عندما رأى والده يتَّجه إلى حيث يقفان، وبعد أن غسل يديه ناولته المنشفة، أمسك برأسها وطبع قبلة على جبينها قائلًا: أعتذر عما حدث البارحة.

أخرج مرهمًا من جيبه وهو يكمل: هذا سيزيل الأثر عن وجهك بسرعة..

وخرج عائدًا إلى غرفة المعيشة، جهَّزت الشاي وجلست بجواره وناولته كوبه وأخذا يتحدثان عن يومهما. فجأة قالت:

- أغمض عينيك

- ولماذا

ابتسمت بإغواء قائلة:

- أغمض عينيك فقط..

وضع الكوب من يده وأغمض عينيه وقال:

- حسنًا ماذا بعد؟؟

اقتربت منه بلطفٍ وطبعتْ قبلةً على شفتيه وقالت بهمسٍ ناعمٍ:

- شكرًا على الغداء

فتح عينيه مبهورًا كانت المرة الأولى التي تقبِّله فيها ظلَّ لحظات ينظر إليها وفي عينيه بريق غريب ثمَّ قال مبتسمًا:

- هل أحتاج لخافض حرارة أم ندع الطبيعة تأخذ مجراها..

خفضت بصرها في حياء من مغزى عبارته

****

تناولت سارة غداءها وحيدة وهي تتساءل متي سيظهر زوجها؟

كانت تشعر بإرهاقٍ وتستعد للنوم عندما سمعت صوت باب الشقة يفتح وصوت هشام يناديها:

- سارة، أين أنت؟ لقد جاء أبي لزيارتك

خرجت من غرفتها شاعرة بفرحة عارمة وحيَّته:

- أبي، أهلًا وسهلًا، كم أنا سعيدة بمجيئك، ولكن لمَ أتعبت نفسك..

ربَّت على رأسها بحنان قائلًا بمرح:

- أسمع أن صديقتي العزيزة مريضة ولا آتي إليها أيعقل هذا؟ كيف حالك الآن؟

- إنني أحسن حالًا بسبب زيارتك..

نظرت لزوجها وقالت:

- من فضلك أحضر عصيرًا لأبي..

قام هشام فقالت لأبيها:

- كيف عرفت؟؟

- أمك أخبرتني، وبالمناسبة هي تبلغك تحياتها لكنَّها متعبة قليلا فلم تستطع المجيء

وعندما رأى عدم التصديق في عينيها قال مغيِّرًا الموضوع:

- كيف أصبت؟

أخذت تروي له ما حدث وعندما دخل هشام قالت بلهجةٍ ذات مغزى:

- أما هشام ما أن اتَّصلوا به حتى هرع إلي من المزرعة دون أن يكترث للأميال الطويلة التي سيقطعها أو للرحلة الجميلة التي خلَّفها وراءه، فقط كان مهتمًا لأمري وقلقًا على سلامتي..

قال الأب:

- بالطبع، فسلامتك تأتي في المقام الأول

أكملت:

- بالطبع، كان شهمًا حنونًا، وعندما أوصلني إلى البيت كان في منتهى الرقة ولولا إصراري عليه للعودة إلى المزرعة لبقي هنا طوال الليل، وبمجرد أن فتح عينيه صباحًا هرع إلى هنا للاطمئنان عليَّ.

قال الأب بفخر:

- هذا ما أتوقعه من ابني

في حين ظلَّ هشام مطأطًا رأسه غير قادرٍ على النظر إلى كليهما. سعل الأب بشدة فأسرع هشام يناوله الماء وهو يقول:

- لقد أمرك الطبيب بالراحة. لكنَّك أصررت على زيارة كنتك العزيزة.

سألت سارة بقلق:

- هل أنت بخير يا أبي؟

ردَّ مطمئنًا:

- بخير يا عزيزتي مجرد سعال بسيط..

- لا يبدو سعالًا بسيطًا، لكن من الجيد أنك زرت الطبيب، ثمَّ قالت مداعبة: إذًا هذه الزيارة لم تكن خصيصًا لي.

ردَّ بمرحٍ:

- أهكذا تفسد مخططاتي يا هشام

قال هشام مبتسمًا لسارة:

- ينبغي أن تكوني فخورة فقليلون هم من يقلق أبي لأجلهم ويزورهم رغم مرضه هل تعلمين هذا ؟!

ردَّت وهي تنحني نحو عمِّها وتقبِّل رأسها:

- أعلم، ولطالما كنت محظوظة بوجود أبي إلى جانبي، يساندني ويدافع عني.

قال آدم:

- أنت فتاتي المدللة ومتى أساء هشام معاملتك ما عليك سوي إخباري..

ابتسمت له وقالت:

- أنا متأكدة أنَّ هشام صاحب ضمير حيٍّ ولن يكون بحاجة إلى رقيب ليقومَ بواجباته

بان الارتياح على وجه الأب وهو يقوم من مكانه قائلًا:

- أستودعك الله يا بنيتي وحمدًا لله على سلامتك مرة أخرى.

قال هشام بعد أن ابتعد الأب قليلًا:

- سأوصله وأعود

تحولت ابتسامتها إلى برود وقالت بجفاء واضح:

- لا تعود أريد أن انام

اندسَّت سارة في فراشه وهي تتمتم بغلٍّ: الحقير، لن يرى مني ضعفًا بعد اليوم، كيف يستطيع النظر في عيني بعد ما فعله أمس..

انقطع حبل أفكارها عندما تعالى زنين الهاتف ففتحت الخط قائلة:

- مرحبًا

تسلل صوت طارق إلى مسامعها كأعذب الهمسات وهو يقول:

- مساء الخير أرجو ألا أسبب لك إزعاجًا أو حرجًا؟!!

لا حيلة بيدها كل مرة تسمع صوته تتسارع دقات قلبها فرحًا فأخذت نفسًا عميقًا لتقول بصوت هادئ قدر الإمكان: لا إزعاج على الإطلاق، كنت سأتَّصل بك اليوم على كلِّ حال

- ولماذا؟؟

- لأشكرك على تعبك معي البارحة، لقد كنت شهمًا نبيلًا معي

- هذا أقلُّ ما أقدمه، على اعتبار ما سلف بيننا

لم تحرِ جوابًا فعاد يقول:

- كيف حال يدك اليوم...

- بخير، إنَّها تؤلمني قليلًا..

- كلُّ ما تحتاجينه هي الراحة التامة وستكون الأمور بخير.

صمت قليلا ثمَّ قال بتردد:

- لم أكن أعلم أن زوجك بهذه الوسامة

صمتت طويلًا قبل أن تقول:

- وهل كنت أعلم أنا عن قرارك بالتخلي عن حبِّنا وإلقائه ككمٍ مهملٍ؟؟ لكن ما يهمُّ في الزواج الداخل وليس المظهر الخارجي.

- يبدو أنَّك لم تعملي بنصائحي كما يجب...

- أي نصائح؟؟ فأنت كتاب نصائح يمشي على قدمين..

- المتعلقة بحياتك الزوجية

- آه، لا تذكِّرني، هذا الرجل سيدفعني إلى الجنون بتعلُّقه بزوجته الأولى، ألم ترَ كيف كان ثائرًا أمس لأجلها.

- خطأ، لم يكن من أجلها، يا سارة الرجل ممزقٌ بين ولائه القديم لزوجته، وبين مشاعره الجديدة تجاهك..

ردَّت ساخرة:

- وكيف استنتجت كلَّ هذا في لقاء لم يدم سوى دقائق معدودة

- لست بحاجة لأكثر من تلك الدقائق لأرى كيف ينظر إليك وكيف كان الصراع يتفاعل على ملامحه، ثمَّ إنني أعلم أي ساحرة أنت فقط ضاعفي قواك السحرية..

- لمَ يجب أن أناضل لأنال حقوقي؟؟ لمَ يجب أن أتذلل له كي يتكرم ويتفضل علي بما هو حق لي أساسًا؟؟ أنتم أيُّها الرجالُ عديمو الرحمة.

- ليست المسألة مسألة كرامة أو إذلال، فقط لتأخذي يجب أن تهبي، هذه كلُّ المسألة

يا سارة زوجك لديه زوجة لذا هو بحاجة إلى شيء مختلف، فقط كوني على سجيتك ولا تجعلي شيئًا يعوقك، لا تقفي منتظرة، عيشي حياتك يومًا بيوم وكما يقال تؤخذ الدنيا غلابا، وأنا متأكد أن زوجك سيقدِّر مستقبلًا ما ستفعلينه الآن ..

- هل تعلم ما الذي أفكر به الآن؟؟

- ماذا؟؟

- لماذا أجلس وأناقش معك حياتي الخاصة؟

أحس بكلماتها طعنةً في صدره لكنه قال:

- لأنني صديقٌ جيد، والصديق الجيد كنز، وأنت أعظم....

قاطعته بحدة:

- لا تكمل، مع السلامة وأنهت المكالمة.

****

دخلت والدة جوانا غرفة المعيشة بعد عودتها من الزيارة وسألت زوجها: أين جوانا؟؟ هل مازالت في غرفتها؟

- كلَّا، عادت إلى بيت زوجها

قالت بدهشة:

- ماذا؟؟ كيف سمحت له أن يأخذها بهذه السهولة؟؟

- لم يكن لدي مجال لأسمح أو لا أسمح استيقظت من النوم لأجد ورقةً، مكتوب فيها أبي أمي لقد عدت إلى بيتي، دعواتكم لي بالتوفيق

- غبية سأتصل بها.

- لا تتدخلي في حياة الفتاة دعيها تحلُّ مشاكلها بنفسها وتعرف أننا نساندها في أيِّ قرار تتخذه..

- لا أستطيع، أريد أن أطمئن عليها

- إذًا، اتَّصلي دون تدخل

أسرعت تطلب ابنتها التي جاء صوتها مليئًا بالأنسِ وفرحا وهي تقول:

- أهلا ماما، متى عدت؟؟

- للتو يا عزيزتي كيف حالك؟

- آه يا ماما، أنا في غاية السعادة وماهر في غاية اللطف معي، خذي ماهر يريد أن يكلمك..

جاءها صوت ماهر وهو يقول:

- أهلًا عمتي، كيف الحال؟؟

- بخير يا بني، وأنت؟؟

- بخير طالما جوانا معي، لا أعرف كيف أقول هذا، ولكن أنا آسف على كلِّ ما سببته لكم من قلق، وأعدك أن أكون مثالًا للزوج الصالح الذي عهدته، وسأضع جوانا في عيني

- يا بني كلُّ ما نريد أن تكونوا سعداء معًا..

- أعلم يا عمتي، وسأكون عند حسن ظنكم بلغي تحياتي لعمي وطارق..

عادت جوانا تقول:

- ماما نحن ذاهبان لقضاء شهر عسل ثانٍ، أقصد أسبوعَ عسلٍ ثانٍ إلى اللقاء.

****

استيقظت سارة على لمسةِ شفاهٍ رقيقة مسَّت جبينها وهمسه ناعمة باسمها، كانت الحجرة مظلمة إلا من مصباحِ السرير الخافتِ وهشام جالس إلى جوارها على السرير قال مبتسمًا: تستيقظين كقطة.

- هشام ما الذي جاء بك؟؟ كم الساعة الآن؟؟

- إنَّها السادسة، ثمَّ أنني أخبرتك أني سأعود

- وأنا أخبرتك أنني سأنام

- ولذلك عدتُ، أحبُّ رؤيتك نائمة، حالمة، عذبة.

فكرت سارة ربما لاتعدُّ كلماته أن تكون تملقًا، ولكن يجب أن تفتح قلبها له فلن تنجح الأمور بينهما بغير ذلك..

فقالت بابتسامة صادقة:

- شكرًا على الإطراء.

حاولت الجلوس فأسرع يساعدها رفعت حاجبها مستغربة فأمسك بيدها السليمة بين راحتيه وقال بخجلٍ:

- أعلم أنَّك غاضبة مني لموقفي النذل معك أمس، لذا أطلب منك السماح وأعلم أن لا عذر يشفع لي ولكن عبير وشفيقة متى اجتمعتا يوصلانني إلى حافة الجنون..

- وما ذنبي أنا؟ لأولِّ مرة أحتاجك وأجدك بعيدًا بل ونافرًا أيضًا..

- أنت بحاجة إليَّ؟ لا أصدِّق.

- توقف عن السخرية، كنت ضعيفة، متألمة، مشوَّشة، متى سأحتاجك أكثر، إن لم تكن في تلك اللحظة؟

ضمَّها إليه بحنان وهو يقول:

- آسف، آسف جدًّا يا عزيزتي أعدك أنَّ هذا لن يتكرر..

رفع وجهها إليه وهو يكمل:

- ثمَّ إن لم تقدِّر صديقتي ما أمرُّ به، فمن سيفعل؟

افترَّ ثغرها عن ابتسامةٍ مغوية وهي تسأل:

- حقًّا تريدني صديقتك؟

قال بهمسٍ ناعمٍ:

- بالطبع، هيَّا قولي إنك سامحتِني..

اتَّسعت ابتسامتها وهي تقول:

- سامحتك ولكن...

خنق هشام بقية جملتها بقبلة تملّكية عميقة. قطعتها سارة عندما سمعت حركة في الخارج وقالت بحذرٍ:

- ثمة أحد في الخارج؟؟

حكَّ عنقه بارتباك قائلًا:

نسيتُ أن أخبرك مي وإيمي ويزن معي..

- غريبة، كيف سمحت عبير بذلك؟؟

- في الواقع عادت ريما لعادتها القديمة، خرجت فلم أشأ ترك الأطفال بفردهم خاصة أن اليوم عطلة.

ارتسمت تكشيرة على وجهها وقالت:

- إذًا هذا كل ما في الأمر، بما أن عبير ليست هنا دع سارة تشعر ببعض الاهتمام. فما أنا سوى بديلة لك ولأولادك.

قال بانفعال:

- أنت مخطئة يا سارة..كان بإمكاني أخذهم إلى الحديقة أو الملاهي وكان ذلك سيسرهم أكثر، لكنني لن أكون مرتاح البال وأنا أعلم أنَّك غاضبة مني بسبب حماقتي، سارة تروقني صحبتك ولا أحبُّ أن نظلَّ متخاصمين؛ لذا عدت؛ لذا أنا هنا.

أرادت من كلِّ قلبها أن تصدِّقه فقالت بابتسامة:

- أحبُّ أن أصدقك

مرر يده على خدِّها وهو يقول بعذوبةٍ: صدقيني، ثمَّ ألم تلاحظي أنها تركتني لك بكامل إرادتها ألن تستغلي الوضع وتقربيني منك أكثر؟؟

- لتقول إني أمارس عليك ألاعيب النساء

- أقسم أنني لن أقول، أينَ حسِّ التآمر الأنثوي لديك؟

ضحكت وهي تقول:

- أنت أيقظته الآن، ولكن هل تعلم أنَّك رجلٌ شريرٌ؟

- إذا ستستغلين الفرصة، مرحى.

قامت من السرير قائلة: إذًا اخرج لأبدِّل ملابسي فنحن لا نريد أن يضجر الأطفال

نزل خلفها وهو يمرر يده على شعرها البني ويقول:

- ولماذا؟؟ يمكنني أن أساعدك لنخرج إليهم أسرع.

نظرت إليه من خلف كتفِها قائلة بإغواء وهي تخلع بجامتها بحذرٍ:

- وماذا يمكنك أنْ تفعل؟

قال وهو يقترب منها:

- أساعدك في خلعِ ملابسك أو ارتدائها.

خبأ وجهه بين ثنايا شعرها المتناثر مكملًا: _أو في تصفيف هذا الشعر الثائر. وأدارها إليه وأخذ يمرر إصبعه على شفتيها الرقيقة وهو يدنو منها أكثر: أو في تزيين هذه الشفاه الساحرة التي تنادي قبِّلني.

****

دخلت حنينُ غرفة النوم بعد أن اطمأنت على حسَّان وجلست أمام طاولة الزينة تضع كريمات ما قبل النوم وقالت لزوجها:

- حامد ثمة أمر أريد محادثتك به..

- ما الأمر

- ابنك، يحب أن تهتمَّ به أكثر

- استقام جالسًا وقال: ماذا تقصدين؟ إنني أهتمُّ به جيدًا ولا أتركه محتاجًا لشيء

قالت بهدوء:

- لست أقصدُ هذا النوع من الاهتمام، أعرف جيدًا أنك لا تتركه محتاجًا لشيء، إنما قصدت الاهتمام القلبي، أن تقربه منك، وتجعله صديقك.

- هذه سخافات المتعلمين، أمَّا عندي فعلاقة الأب بابنه تسودها الهيبة والصرامة..

- حامد ألم تلاحظ أنه يخاف منك، بل يرتعب منك ويتحاشى التواجد معك بمفرده؟ ألم تلاحظ أنه لا يناديك أبي أو بابا إطلاقًا، إنه ابنك البكر فإن لم تكن له فمن سيكون؟؟

ارتسم التفكير على ملامحه ثمَّ قال:

- في الحقيقة لم ألاحظ ذلك إلا بعد أن جاء إلى هنا، ولا تظني أن الأمر لم يضايقني ولكن لا أظن أنني قادرٌ على تغيير أسلوبي.

- لا أريدك أن تغيِّر أسلوبك، فقط بعض الأشياء الصغيرة التي لن تضر بهيبتك كأب مثل نزهة في السيارة، اشتري له بوظة أو حلوى، شاركه اللعب أو الدراسة، امسح على رأسه، ضمَّه إليك ولو لمرة في العام، هذه الأشياء سيكون لها تأثيرٌ إيجابي، ستسعده وتحطِّم الحواجز بينكما، يا حامد أنت لا تعلم كم هو طفلٌ رائع وسهل الإرضاء.

- ليتك تهتمين بي بنفس الطريقة التي تهتمين بحسَّان.

- أنا لا أهتمُّ بك؟؟

ظللت ملامحه تنظر نظرةً كئيبة قبل أن يقول:

- قد أكون أميًّا، لكنني أستطيع التفريق بين الاهتمام بدافع الواجب والاهتمام بدوافع قلبية

بهتت حنين ولم تستطع أن تحري جوابًا فقال حامد:

- لا داعي لكل هذا الارتباك، كان مجرد كلامٍ عابرٍ.

****

استيقظت سارة على ألمٍ متواصلٍ في يدها حاولت تجاهل الألم والعودة إلى النوم دون جدوى فانسلَّت من السير بحذر حتى لا توقظ هشام وأخذت قرصين من الأقراص المسكنة وأيضًا دون جدوى. أخذت تقلب ألبومات العمل لعلَّها تصرف تفكيرها عن الألم وأخيرًا تكورت على الأريكة حيث وجدها هشام فسألها:

- ما بك؟؟ أسمعك منذ ساعة تجوبين الدار

رفعت رأسها وقالت:

- لا شيء، اتركني وحدي

جلس جوارها على طرف الأريكة ووضع يده على كتفها وقال:

- تعالي معي إلى السرير

أبعدت يده عنها وقالت بحدة:

- ما هذا ألا يمكن أن تفكر في غير هذا؟؟

نظر إليها بحنان وقال:

- أنت متألمة ولا يمكن أن يستغل ألمك إلا حيوان وأنا لست كذلك، كلُّ ما في الحكاية أنَّك لا تدعين فرصة للمسكن كي يعمل بتوترك..

شدَّها كي تقف وعندما أصبحا في غرفة النوم وضعها في السرير ودثرها وسألها:

- كم قرصًا أخذتِ

- اثنين.

ربَّت على شعرها بحنان وقال:

- هذا يكفي، لا داعي للمزيد.

أغمضت عينيها واحست به يضطجع إلى جوارها ويلفُّ ذراعه المريحة حول كتفها ويضمُّها إليه ويضع يده المتألمة فوقه ويشدُّ الأغطية حولها بيده الحرة التي انخفضت واستقرَّت على خصرها وقال بنعومة:

- ستكونين بخير.

تخيَّلتْ أمور كثيرة عن حياتهما معًا، أمَّا أن تكون معه بهذه الصورة الحميمة النابعة عن اهتمامٍ قلبيٍّ صادقٍ. فهذا مالم يخطر لها على بال، أكبرت فيه هذا الموقف ودفنت وجهها في دفئه سعيدة منتشية وبشكلٍ لا يُصدَّق خفَّ الألمُ تدريجيًا ونامت.

****

خرجت جوانا إلى الشرفة حيث يجلس ماهر قائلة:

- صباح الخير يا حبيبي

قام ماهر بسرعة يسحب لها الكرسي وهو يرد:

- صباح الحبِّ يا عمري

وبعد أن جلستْ جلس أمامها يسألها: كيف حالك الآن؟

- أفضل قليلًا.

- تبدين رائعة هذا الصباح.

ابتسمت له وقالت بمرح:

- شكرًا، لكن أعرف جيدًا أنني لست كذلك بهذه الجفون المتورمة والشحوب البالغة.

أمسك بيديها ومسَّهما برقةٍ قائلًا:

- دائمًا وأبدًا ستظلين الأروع بنظري..

- حتى وأنا متضخمة بحملي..

قام من مكانه وركع على الأرض بجوار كرسيها ووضع يده على بطنها وقال:

- دائمًا وأبدًا.. هل تشعرين بحركته؟

- ما زال الأمر مبكرًا ربما بعد شهر أو شهرين

أمسك بيديها يوقفها وهو يقول في مرحٍ: دعينا ننزل إلى الحديقة فهناك جلسات جميلة

- آه، كم أودُّ هذا لكني ما زلتُ أشعر ببعض التوعك. يمكنك الذهاب إن أردت

ترك يديها وقال بفتور: ليس مهمًّا يمكننا الذهاب في وقت آخر..

وعاد يجلس على كرسيه وقد تلاشت ملامح الفرح من وجهه. فقالت بعد لحظات:

- ما بك؟ أصبحت هادئًا فجأة.

نظر إليها للحظات وفي عينيه شيء غريب ثمَّ أشاح ببصره عنها وهو يقول:

- أنت لم تعودي تحبينني..

صرخت: ماذا؟؟ كلُّ هذا لأنني متوعكة ولا أستطيع النزول معك إلى الحديقة؟ هذه حركة صبيانية منك..

عاد ينظر إليها وقال بجدية:

- أتذكرين عندما كنت أتوسل إليك لتعودي إليَّ؟؟ لم تعودي لأنَّك تحبينني ولا تستطيعين العيش بدوني، فقط الشفقة التي جعلتك تعودين..

رددت مندهشة: الشفقة؟!!!

- أذكر جيدًا ما حدث، كنتِ متأثرة ببكائي فسألتني ماذا تريد؟ لاحظي ما أريد أنا لا ما تريدينه أنت.

هبت واقفة بغضب وقالت:

- لو لم أكن أحبك لما عنى بكاؤك لي شيئا، من الطبيعي ألا تثق بمشاعري تجاهك لأنك لا تثق بمشاعرك أصلًا، لكن الأهم ما دخل هذا فيما نحن فيه الآن قبل لحظة كنا سعداء والآن تثير هذه الأوهام؟؟؟

ارتفع صوته قليلًا:

- ألم تلاحظي أنَّه لم تعد تهمُّك مشاعري وسعادتي؟؟

- آه.. عدنا .. أو لسنا هنا من أجل مشاعرنا وسعادتنا، ثمَّ هل تهمك أنت مشاعري وراحتي؟؟

- تعرفين أنني كذلك.

- لم أعد أعرف شيئًا، ولا أعرف لمَ أقف هنا وأتشاجر معك حول أوهام في رأسك؟؟

أمسكت بصدعيها وأكملت في ألم:

- يا إلهي، لقد اشتدَّ صداعي

واستدارت عائدة إلى الحجرة وارتمت على السرير دافئة وجهها في الوسادة. لحقَ بها ماهر وجلس بجوارها على السرير قائلًا بحنان:

- آسف يا حبيبتي أحبك وأريد أن أتأكد أنك تحبينني دائمًا...

أحست بالغثيان لفكرة مواجهة أوهامه ومخاوفه إلى ما لا نهاية ورفعت رأسها قائلة:

- تزعم أنك تحبني وتؤلمني..

انحنى يقبِّل رأسها وقال باستعطاف:

- أرجوك سامحني، فللحب حماقاته.

أمسكت بيده ووضعتها على موضع قلبها وقالت:

- أيها الأحمق، أنت هنا، أحبك وسأحبك دائمًا لكن يجب أن تقدر أنني حامل والأمور تكون مختلفة ومتقلبة وإن لم تقدِّر أنت ذلك فمن سيفعل؟؟

طبع قبلة على خدها ثمَّ على بطنها وقال:

أنا سأفعل ذلك أعدك بهذا والآن عودي إلى الشرفة ريثما أطلب لنا الفطور.

****

عندما همَّ حامد بالخروج عصرًا تذكر نصيحة حنين فنادى ابنه حسان الذي جاء وعلى وجهه القلق فقال له والده اذهب وبدِّل ملابسك سنخرج معًا.

نقل الصبي بصره بين أبيه وحنين بحيرة وقلق فابتسمت له حنين مطمئنة وقالت بمرح:

ستخرجان لساعة أو ساعتين ثمَّ تعودان

اطمأن حسان نوعًا ما وسرع إلى غرفته ليفعل ما أُمر به. ولكن لم تمضِ سوى نصف ساعة حتى عادا وعينا الصبي مغرورقتان بالدموع واتَّجه مباشرة إلى حجرته دون أن يلقي التحية فسألت حنين والده:

- ما الذي حدث؟؟ ماذا فعلت للصبي؟

رد الأبُ مندهشًا:

- لا أدري، كلُّ شيء كان يسير على ما يرام فجأة أصرَّ على العودة إلى البيت

- إلى أين أخذته بالله عليك؟؟

- إلى المنتزه القريب وهناك دخلنا محل الهدايا واشتريت له حقيبة الرجل العنكبوت، التي طلبها وأخذت معها

ساعة تحمل ذات الشعار وعندما حاولت إلباسه إياها تغير وجهه ورفض وأصرَّ على العودة إلى المنزل.

- فقط؟، ألم تعنِّفه؟؟ أو تصرخ في وجهه؟؟

- لم يحدث شيئًا من هذا..

- وأين هي الأشياء؟؟

- ها هي

وناولها مغلفًا بلاستيكيا فأخذته واتَّجهت إلى حجرة حسان حيث وجدته يجلس متكورا حول نفسه وقد لفَّ ذراعيه حول ركبتيه وعى وجهه معالم الحزن والاضطراب فجلست بجواره تداعب شعره الغزير وسألته:

- ما بك يا حبيبي؟؟

- غطَّى وجهه بيديه وقال: لا شيء..

لفَّت ذراعها حول كتفيه وقربته منها قائلة

- بحنان: أليس هذه الحقيبة التي تريدها؟؟

أومأ بالإيجاب فقالت: وهذه الساعة ألا تروق لك؟؟

هزَّ رأسه نافيًا فقبَّلت رأسه وقالت:

- إن كانت لا تروقك فهذا أمرٌ لا يستدعى البكاء غدًا نذهب أنا وأنت وتختار الساعة التي تريدها..

أجهش بالبكاء وصرخ:

- لا أريد ساعة، لا أريد أي شيء يذكرني بتلك الأوقات التي كنت فيها وحيدًا، لا أحد لدي، كلُّ الأطفال لديهم أب وأم إلا أنا دائمًا كنت بفردي.

ولأنها سبق واختبرت هذا الشعور وتعرف جيدًا معنى أن تكون طفل وحيًدا أحسَّت بغصة مؤلمة وحاولت التحدث بأقلِّ قدرٍ من الألم:

- ولكن ما دخل هذه بالساعة؟؟

بدا عليه التوتر البالغ والألم فقالت بتوددٍ: أنت بمأمن معي، أنا أمُّك ويمكنك أن تخبرني..

ازداد لمعان الدموع في عينيه الصغيرتين وقال بصوت متحشرج:

- كانت لدي ساعة سوداء أحبُّها كثيرًا وأرتديها دائمًا وفي ذات صباح بعد أن خرج أبي دخلت الحمام وشعرت بحكَّة في معصمي تحت الساعة فحاولت نزعها من يدي لا أدري كيف حدث هذا لكن حديدة الساعة انغرست في يدي وكان الألم شديدًا لم يكن ثمة أحد معي لألجا إليه فظلَّت مدة طويلة أحاول حتى نزعتها أخيرًا وتركت هذا الأثر.

وأشار إلى أثر جرح في يده لم يكن يتجاوز سنتمتر واحد أو اثنين على الأكثر لكنه ترك في داخله أثرًا عميقًا يوازي طعنة سكين. أمسكت بيده وقبَّلت موضع الجرح وقالت:

- لقد أصبح هذا من الماضي.

لكن الفتى ما زال في جعبته ألم عميق يريد البوح به فقال بصوت تخنقه العبرات:

- ليت الأمر اقتصر على ذلك. فعندما انتهيت وحاولت ارتداء سروالي كنت أخطئ وتدخل الساقان في فتحة واحدة

وأقع على الأرض المبللة ويتكرر ذلك مرارًا حتى نجحت أخيرًا وخرجتُ وكل مكان في جسدي يؤلمني، شعرت وقتها كم أنا مسكين ووحيد ولا أحد لي.

تحشرج صوته أكثر فانطرح على السرير مخبئًا وجهه في الوسادة وهو يبكى بحرقة. اغرورقت عيناها بالدموع ربَّتت على ظهره مهدئة وسألته بعد أن هدأ قليلًا:

- هل تذكر كم كان عمرك آنذاك؟

أجاب دون أن يرفع رأسه:

- أذكر أنه حدث بعد ذهاب أمي وقبل دخولي المدرسة، لا أستطيع تذكر هذا الموقف دون أن أبكي حتى لو كنت وحدي وأساسًا أنا دائمًا وحدي.

رفعت رأسه عن الوسادة ووضعته في حجرها وأخذت تمسِّد على شعره بحنان وقالت: حسَّان أنا أيضًا تطلَّقَ والدي وبقيتُ وحيدة، صحيح ليس كوحدتك فقد كان لديَّ أخي مازن وكانت لي زوجة أب شريرة، لذا أريدك أن تعرف أنني أعرف الألم الذي تحسُّ به.

سقطت دمعة من عينها على جبينه فرفع رأسه مستطلعًا وعندما رأى دموعها قال مندهشًا: أنت تبكين؟؟

حاولتُ الابتسام من بين دموعها وهي تقول:

- وأنتَ كنتَ تبكي؟

عاد يسألها:

- أنت تبكين من أجلي؟؟

وعاد إلى البكاء مجددًا فضمَّته إليها وهي تسأله:

- ما الذي يبكيك الآن؟

- أخاف أن تتركني أنتَ أيضًا..

قبَّلت جبينه وقالت: هذا لن يحدث أبدًا، سأظلُّ معك دائمًا وحتى تتأكد....

أخرجت الساعة وأكملت:

- أنا سألبسك الساعة، وأنا سأخلعها عنك متى شئت، ولن أدع شيئًا يؤذيك يا صغيري

قال بشيء من التردد:

- وعد؟؟؟

ردت بثقة:

- وعد يا عزيزي.

مدَّ يده لها فألبسته الساعة وربَّتت على خده فاحتضنها بقوة بذراعيه الصغيرتين وقال:

- أنت طيبةٌ جدًا..

- وأنت ولدٌ طيب، هيَّا نغسل وجوهنا، ونذهب إلى بابا ونشكره على الهدية.

بدا عليه التردد فأمسكت بوجهه بين يديها وقالت:

- اسمع يا حسان قد يبدو والدك قاسيًا أحيانًا

قاطعها: بل هو قاسٍ دائمًا

- لكنَّه يحبك، ربما لا يظهر حبه لك بطريقة جيدة، لكنه يحبك ويجب أن تعطيه فرصة

بدا عليه عدم الاقتناع فقالت:

- ثق بي، وستثبت لك الأيام صدق كلامي.

وقفت فتبعها إلى الخارج وهو يقول:

- سيحسدني جميع طلاب فصلي من أجل هذه الساعة وتلك الحقيبة.

****

جوانا.. جوانا

همهمت جوانا وهي تسمع نداء زوجها فقال ماهر: هل معك نقود؟؟

ردت دون أن تفتح جفنيها: هناك مئة أو اثنتان في حقيبتي.

- أحتاج أكثر 500 أو 1000

فتحت عينيها قليلًا متسائلة: وما حاجتك إلى كلّ هذا المبلغ؟

- لندفع للفندق

- ماذا؟ وأين ذهبت النقود التي كانت معك؟

- نفدت .. ولكن يمكننا البقاء يوم أو يومين إن شئت

جلست وهي تسأل:

- وكيف سندفع أيها الحبيب؟؟

- أعلم أن رصيد حسابك وافر.

- قبل أن نتحدث عن حسابي، لقد استلمت مرتبك قبل 10 أيام بالضبط فكيف انتهى بهذه السرعة؟؟

- لقد أقرضت نصفه لأخي مروان، قال إنه في مأزق وخجلت أن أردَّه خائبًا.

صرخت: نصف الراتب؟ أمجنون أنت؟ ماهر أريد العودة إلى المنزل حالًا

- كلُّ هذا كي لا تدفعي.

- كلُّ هذا لأنك عديم المسؤولية وضيق الأفق ولم تفكر وأنت تتصرف بهذا الكرم الحاتمي، كيف سنعيش إلى نهاية الشهر؟ والأدهى جعلتنا نقوم بهذه الرحلة العشوائية والآن نحن مفلسون تمامًا فهل يسرك هذا؟؟

قال بخجل: لكن رصيدك وافر.

زفرت في ضيق قائلة:

- عدنا لرصيدي، إن كنت تظن أنني سأصرف رصيدي الذي كان.،، سمعت؟ كان وافرًا على نزواتك فأنت واهمٌ...

- ما معنى كان وافرًا؟؟

- ألم تلاحظ أنَّك لا تترك لي أي مصروف خلال رحلات عملك؟؟ ألم تلاحظ أنني منذ تزوجنا لم أطلب منك قرشًا؟؟ والأهم ألم تلاحظ أنني بدون عمل؟؟ ناهيك عن القول على

أننا مقبلون على مصاريف المستشفى وولادة وتجهيزات أي أنَّ هناك الكثير من الأشياء التي سأصرف فيها أموالي أهمُّ من هذه السفرة الجوفاء.

تركته وبدأت تجمع أغراضها وتضعها في الحقيبة كيفما اتَّفق، بسرعة وغضب فقال:

- ماذا يضرك لو بقينا يومًا أو اثنين؟

أغلقت الحقيبة بقوة وقالت بحدة:

- بالله عليك يا ماهر ارحمني من تساؤلاتك الغبية، الذي ندفعه هنا منزلنا أولى به، ثلاجتنا الفارغة أولى به، هل هذا صعب الفهم؟؟

جلس على طرف السرير وقال بلهجة حزينة:

- تساؤلاتي غبية، سفرتي جوفاء، لا أثق في مشاعري، لم يعد أي شيء يروقك في.. أنت حقا لم تعودي تحبينني..

أمسكت بصدعيها من قوة الألم وهي تقول:

- يا إلهي، ستقتلني قبل أواني، توقَّف عن لعب دور الطفل المدلل فأنا لست أمك، أنت الآن زوج وطفلك في الطريق قف وتصرف كرجل.

قال بتوسل:

- حسنًا لن أتصرف كطفلٍ مدلل، فقط دعينا نبقى يومًا واحدًا لأعرف أنك تحبينني

أحسَّت بقلبها كمرجل على وشك الانفجار من الغيط فقالت:

- أهذا ما تريده؟؟

أومأ براسه بالإيجاب فأكملت:

- حسنًا، إذًا هذا الذي لن يكون أبدًا، وبما أنَّك مصر على البقاء في دور الطفل فسأتولى زمام الأمور، وسنعود إلى المنزل حالًا، وإن كنت ترى أنَّ تصرُّفي دليل عدم حب فأنا لا أحبك، ولتعلم لقد خاب أملي فيك ظننت أنني تزوجت رجلًا حقيقي، لا مراهقًا، مهتزًّا لا يريد سوى ترديد كلمات الحبِّ والغرام على

مسامعه طوال الوقت، والآن هل ستطلب خدمة الغرف لإنزال الحقائب أم يتوجب أنْ أفعل أنا ذلك؟

ظلَّ واقفًا مكانه وفي عينيه نظرة حزن وانكسار والعبرات تنساب على خده فتجاهلتها واتجهت إلى الهاتف وهي تقول بغلٍّ:

- كان يجب أن أعرف أنك ستتخذ الاستعطاف والتذلل وسيلة لك، ولكن لن يوصلك إلى أيِّ مكان معي.

****

استيقظت سارة على حركة ذبابة على ذراعها فذبَّتها دون أن تفتح عينيها لكن الحشرة عادت ملحَّةً على ذراعها مرة أخرى ففتحت عينيها منزعجة لتقابل عيني هشام المبتسمتين وفي يده ريشة فابتسمت لا شعوريًا وقالت:

- أهذا أنت؟

أزاح خصلة من شعرها عن وجهها إلى خلف أذنها وظلَّت يده هناك تداعبها وهو يقول:

- كيف حالك هذا الصباح؟

ردَّت مبتسمة :

- أي صباحٍ معك سيكون الأروع.

أسكتها بعناقٍ لطيفٍ فتلقته كما تتلقى الأرض الجدباء المطر..

- أنت تحبين العناق.

قالها بحنان فأحسَّت بحمرة قانية تغمر بشرتها فعاد يقبِّلها بحنان ثمَّ استقام واقفًا وقال:

- لدي بعض الأعمال التي يتعين عليَّ إنجازها اليوم وسأعود ظهرًا لأصحبك إلى الغداء، كوني مستعدة.

- لكن أمي قالت إنها ستأتي لزيارتي اليوم.

- آه، نسيت هذا، إذًا سأحضر الغداء معي، إلى اللقاء.

- إلى اللقاء..

بالنسبة لسارة أسبوع مرضها كان شهرَ عسلها توطدت أواصر الصداقة بينها وبين هشام خرجا معًا، تحدثا، ضحكا، حاول كلٌّ واحدٍ بصدقٍ أن يعرف شريكه، خرجا بمفردهما مرات عديدة وفي مرة اصطحبا الأطفال معهما. كانت سارة تتساءل في سرِّها متى ستنتبه عبير للغلظة الفظيعة التي ترتكبها بغفلتها وفي نفس الوقت تبتهلُ إلى الله أن تطول غفلتها.

بعد أسبوعٍ كامل من إصابتها زارتها أمها. كان هشام قد عاد، رغم أنَّها الزيارة الأولى لأمها إلا أنها لم تشعر بالسرور على الإطلاق بل بالعكس شعرت بالتوجس والخطر وظلَّت جالسة في مكانها على الأريكة مدعية الإعياء، مريحة يدها على وسادة صغيرة. ولكن هذا البرود من جهة سارة قابله ترحيب حار من جهة هشام الذي قال مداعبًا:

- ماذا يفترض أن أناديك الآن خالتي أم حماتي؟؟ أنا جدًا سعيدٌ بهذه الزيارة، إنَّها المرة الأولى التي تدخلين فيها بيتنا..

ردَّت الأم:

- لا يبدو أن الجميع سعداء بهذه الزيارة

ظلَّت سارة تنظر إلى التلفاز دون أن تجيب فأسرع هشام يقول:

- بالطبع كلُّنا سعداء لكن سارة مريضة كما تعلمين، تعالي لتشاهدي شقتنا.

خرج الاثنان دون أن تفكِّر سارة في مرافقتهما وعندما عادا وقدَّم لها هشام العصير مررت يدها على خشب الطاولة وقالت باشمئزاز:

- ما هذا يا سارة شقتك في غاية القذارة؟

فغرت فاها دهشة، رغم أن هذا هو المتوقع لطالما لم يرق لها أي شيء يتعلق بسارة فقالت بأكبر قدر من الهدوء استطعت أن تستجمعه:

- بالطبع ستكون كذلك فأنا مصابة في يدي اليمنى منذ أسبوع إن كنت لاحظتِ ذلك..

قالت الأم بلامبالاة: آه... نسيت.

ردَّت دون أن تنظر اليها:

- بالطبع ستنسين، فلو كنت لي أمًّا مثل الأمهات الحقيقيات هل ستنسين؟؟ لو أن مها أو مايا مكاني هل ستنسين؟؟ كنت فكرت في إرسال الخدم لمساعدتهن ما لم تفعلي ذلك بنفسك، أمَّا أنا فيكفي زيارتي بعد أسبوع وعلى مضض أليس كذلك؟؟ ولا داعي حتى للاتصال والاطمئنان علي.

ردَّت الأمُّ ببرود:

- لكنَّك أيضًا لا تتصلين أبدًا من أجلي، فقط من أجل عمِّك آدم..

نظرت إلى عينيها مباشرة وقالت:

- لأنِّي أعرف أنَّ لي مكانة لديه، أمَّا عندك فلا.

وقفت أمها وتناولت حقيبة يدها وقالت:

- عمومًا .. قد جئت للاطمئنان عليك، وكما يبدو أنت في أتمِّ صحة، إلى اللقاء.

أفاق هشام من صدمته بما رأى وقال:

- لكن يا خالتي لقد وصلتِ للتو.

تجاهلت كلامه وأكملت طريقها إلى الباب فقال:

- على الأقلِّ دعيني أوصلك..

- لا داعي السائق بانتظاري في الاسفل.

فاستوقفها واضعًا يده على كتفها وقال باحترام:

- أرجو أن تعذريها يا خالتي لابدَّ أن الآلام تؤثر على أعصابها فهي في العادة ليست انفعالية هكذا.

- إنَّها هكذا دائمًا.

وخرجت.

ظلَّ هشام واقفًا في مكانِه يفكِّر كم كان هذا غريبًا، لحظة أخرى وكانا سيتعاركان ماذا دهاهما؟ نفض ذهوله وعاد إلى سارة فوجدها واضعة رأسها على طرف الأريكة وسارحة في البعيد فجلس جوارها وقال:

- لا أدري كيف لم ألاحظ أنك لا تستطيعين القيام بالأعمال المنزلية لكن غدًا سآتي بخادمة تتولى شؤون المنزل.

رفعت رأسها وقالت بغير اهتمام:

- لا داعي، فغدًا أو بعد غدٍ سأنزع الضمادة وسأهتمُّ بأمر المنزل.

- ولو، سآتي بها غدًا، ولماذا غدًا سآتي بها اليوم.

- حسنًا كما تشاء.

تنحنح هشام وقال: لقد كنت قاسية مع.....

هبَّت واقفة بسرعة وهي تقول: أرجوك يا هشام هذا موضوع خاص ولا أحبُّ الخوض فيه مع أحد

وقف هشام بدوره وقال بابتسامة:

- لكنني لست أيَّ أحد، أنا صديقك وزوجك.

قالت بعناد:

- وإن يكن.. مع ذلك تظل داخل الإنسان أماكن لا يحقُّ لأحدٍ الولوج إليها..

فكرت هل يا ترى ستظل تلك الأرض الشائكة داخلها إلى الأبد أم أنها يومًا ما ستزول؟؟؟

وضع هشام يده على كتفيها متسائلًا:

- أين ذهبت؟

ابتسمت له وقالت ممازحة:

- أبدًا، كنت أفكِّر أنك بدأت تعجبني..

ظلَّ مذهولًا للحظة قبل أن يقول ضاحكًا:

- سارة أنت تقلبين جميع الموازين.

****

كان حسان سعيدًا جدًا لأن حنين وعدته بأخذه اليوم إلى منزل أسرتها. أيقظها منذ التاسعة صباحًا وهو يسأل:

- ماما متى سنذهب إلى منزل أسرتك؟؟

ردَّت وهي تعيد اللحاف فوق رأسها:

- مازال الوقت مبكرًا اذهب ونم.

- لن أستطيع النوم وأنا أتوقع حدوثَ شيء مثير، إني أنتظر هذه الزيارة منذ أسبوع

- إذًا اذهب وشاهد التلفاز.

ظلَّ الفتى يحوم حولها حتى استيقظت تمامًا في الساعة الحادية عشر. وبدأت الاستعداد. وما أن وصلت هي وحسان حتى استقبلتها زوجة أبيها وهي تنظر إلى الفتى الذي مدَّ يده مصافحًا فقد كان يعرفها ثمَّ قالت مخاطبة حنين باستهزاء:

- إذًا .. ما قيل عن أن حسَّان يعيش معك صحيح!! يا إلهي، أستغرب كيف استطاع ذاك الجاهل أن يروضك بهذه السرعة؟

التفتت تجاه حسان لترى ردة فعله ولكن لحسن الحظ كان مشغولًا بمتابعة اثنين من إخوانها يركضان وهما يطلقان نارًا

وهمية على بعضهما من مسدسٍ في يده وفي عينيه لهفة حقيقية للمشاركة فنادتهما:

تامر، يزن

أقبل الاثنان يرحبان بها فقالت:

- هذا حسان أريدكما أن تتخذاه صديقًا لكما وإن أحسنتما التصرف سنذهب نحن الأربعة لتناول المثلجات في المساء، موافقان؟؟

هتف الاثنان بحبور: موافقان.

أمسك تامر يد حسان قائلًا بمرح:

- هيَّا لنلعب الكرة

وابتعدوا بسرعة وما استقامت حتى قالت زوجة أبيها:

- يبدو أنَّ التغير شاملٌ، فأنت لم تكوني حنونةً هكذا من قبل مع إخوانك، حقًّا هذا الأمِّيُّ ذو قوة...

قاطعتها حنين:

هذا الأمّيُّ الذي تستخفين به الآن، ألستِ أنت من وضعه في طريقي؟! ألستِ أنت من قلت أن أميته ليست ذات أهمية؟؟ أمْ أنَّ الأمر برمته كان حجةً للتخلُّص مني وتدمير حياتي.

- أيًّا كان الأمر، فبعد كلِّ تلك العنجهية والغرور انتهى بكِ الأمر زوجة لأمّيٍّ، والأدهى جعلك مربية لابنه، حقيقة أنا أرثى لحالك، أتساءل ما الذي سيفعله أكثر؟

احتاجت حنين لقوة أسطورية لتبقي هادئة وترد بكلِّ برودٍ:

- لابدَّ أنك انتظرتِ ردحًا طويلًا لتقولي هذه الكلمات التي تقطر شماتة، فهل قلتِ كلَّ ما في خاطرك؟؟ هل أرضيت زهوك؟؟ والأهم هل استمتعتِ بقولها يا خالتي؟؟؟

احتنقت ملامح المرأة فتركتها حنين تتميز بغيظها ودخلت غرفة المعيشة حيث يجلس أبوها وأخوها مازن اللذان رحبا بها بسرور واضح فسألت أخاها:

- أين ماري ومراد لقد اشتقت إليهما كثيرًا..

- لقد ذهبت إلى السوق وستكون هنا في أيِّ لحظة.

- وأخذت مراد معها؟؟ كانت تكره ذلك..

- ومازالت تكره ذلك لكن أين ستتركه؟ كانت تتركه معك والآن أنت غير متاحة.

تذكرت دور الحاضنة الذي طالما قامت به في سفرتهما ونزهاتهما وحتى في تسوقهما

قال الأب:

- لا ينبغي أن تنقطعي عن زيارتنا كلَّ هذه المدة.

- أنت محقٌّ يا أبي لكنني مشغولة جدًا في عملي الجديد مع سارة نحاول صنع اسم لنا في السوق.

- بالتوفيق يا بنيتي، وكيف حال سارة لقد انقطعت أخبارها تمامًا عنا.

- المسكينة أصيبت في يدها الأسبوع المنصرم.

- ماذا حدث لها؟

روت له ما حدث فقال بأسفٍ:

- حمدًا لله على سلامتها، بلغيها تحياتي وسلامي. وأين زوجك لم لمْ يأتٍ معك؟؟

- قال إنه مشغولٌ هذا النهار

- يجب أن تحثيه على المجيء معك ولا يتخلف عن الزيارة الاسبوعية وإلا كيف ستقوى الروابط الأسرية ونكوِّن علاقة عميقة..

قال مازن باستهتار:

- أنا أفضِّلها سطحية

قالت بانفعالٍ:

- لكنَّه زوجي.

انتبه لمغزى عبارته متأخرًا فقال بلطف:

- لم أقصد أنَّي لا أرحب به، بالعكس العين أوسع له من الدار، لكنِّي لا أجد أي روابط مشتركة بيننا، فلا اهتمامات

تجمعنا، ولا حوارات تقربنا، أفكاره ضحلة، واهتماماته محدودة، إنَّه دون..

أمسك لسانه في اللحظة الأخيرة لكن المغزى كان أكثر من واضح فاغرورقت عيناها بالدموع وقالت بألم:

- ألا يكفي أنني قاسم مشترك بينكما لتحترمه، على الأقلِّ في وجودي

فعض شفته ندما وقال:

- آسف لم أقصد الاساءة.

دون أن ترد قامت من مكانها وخرجت إلى الفناء تراقب الاولاد يلعبون, وعندما عادت ماري من تسوّقها جلست حنين وماري وزوجة أبيها يتفرجن على مشترياتها بينما الأب ومازن يتابعان النشرة الإخبارية. أخرجت ماري كتالوج لأثواب النوم أحضرته من متجرٍ جديدٍ لصديقتها. لم تهتم حنين بالأمر فلم يمضِ على زواجها مدة تذكر وخزانتها مازالت مليئة بالأثواب الجديد التي لم تمس. فقالت ماري:

- أراك غير مهتمة، أم أن زوجك لا يهتم بمثل هذه الأمور؟!

ردَّت وقد بدأت تفقد أعصابها:

- ربما يكون زوجي جاهلًا أميًّا، لكن هذا لا يعني أنه لا يدرك مواطن الجمال ولا يهتمُّ به

بهتت ماري من الحدة في كلام حنين فقالت بتلعثم:

- آسفة لم أقصد الاساءة.

لم تكن حنين تسمع أو ترى فقد بلغ السيل الزبى فقالت موجِّهة كلامها للجميع:

- لا يهمني ما قصدت، ليكن في معلوم الجميع إن كنت سأتلقى الإهانات غير المبررة لأمرٍ يعلم الجميع أني أكرهت عليه إكراهًا، فسأنقطع عن الزيارة في موعد الاجتماع الأسبوعي..

قال مازن مدافعًا عن زوجته:

- لكنَّها لم تكن تقصد..

قاطعته:

- هي لم تقصد، وأنت لم تقصد، وخالتي لم تقصد، لكن هذا لا يهمُّني، إنَّه زوجي وأبو أبنائي مستقبلًا، أهكذا ستعاملونهم بذات الاستخفاف والاحتقار؟ من كان يحبني ولو قليلًا، ولو قليلًا فليتقبَّله كما هو، إنه قدري، كل هذا وأنتم كيف تمَّ تزوجي به، ماذا لو كنت أنا من اختاره وجرى إلى حصنه أكنتم ألقيتم بي خارجًا؟!

نكس الأبُ رأسه حزنًا فقامت إليه وقبَّلت رأسه إجلالًا وقالت والعبرات تخنقها:

- لم أقصد اللوم أو العتب يا أبي لكنهم، لكنهم..

وأجهشت بالبكاء فأجلسها الأب وضمَّها إليه وهي تبكي بحرقة حظَّها العاثر بينما الجميع صامتٌ وكأنَّ على رؤوسهم الطير. أخيرًا قامت وغسلت وجهها واتَّصلت بزوجها ونادت حسان من غرفة الأولاد قائلة:

- هيَّا يا عزيزي سنعود إلى المنزل

- ماذا ؟؟ مازال الوقت مبكرًا..

ابتسمت له وقالت:

- نحن هنا منذ العصر وقد تجاوزت الساعة العاشرة.

بدا على الصبي الامتعاض لكنه ذهبَ يجمعُ حاجياته ويودِّع أصدقاءه

اقترب منها مازن وقال بلطفٍ:

- هل أوصلك؟؟

ردَّت ببرود:

- شكرًا، زوجي سيأتي الآن.

قال بخجلٍ:

- عزيزتي، كان مجرد كلامٍ عابرٍ..

- هل أبدو لك عديمة الإحساس

ضمَّها إليه وقبَّل رأسها وهو يقول:

- أنت شقيقتي الوحيدة وصديقتي وتعلمين كم أحبك، أنا حقًّا آسف لا أعرف كيف تصرفت بهذه الطريقة الرعناء..

- ولأني أحبك وأعلم مبلغ حبك أحزنني ما قلتَه كثيرًا.

- ما حدث أصبح من الماضي.

وعندما وصل زوجها رحبَّ به مازن و أصرَّ عليه أن يدخل ليلقي التحية على أبيها الذي استقبله كما ينبغي وعندما غادروا ظلَّت حنين صامتة رغم ثرثرة حسَّان عن يومه الرائع وأصدقائه الجدد. وما أن وصلوا إلى المنزل حتى بادرها حامد:

- ما بك؟ تبدين منزعجة..

أحسَّت بكرهٍ يملأ قلبها تجاهه، رغم أنَّه لم يسيئ إليها، وغاظه اهتمامه فقالت بلا مبالاة:

- أنا متعبةٌ قليلًا، هل يمكنك أن تتركني أنام بسلام؟

نظر إليها نظرة غريبة وخرج دون أن ينبس ببنت شفة، أحسَّت بشراييينها تكاد تنفجر غيظًا فارتمت على السرير تجهش بالبكاء وتقول:

- تبًّا لهم، لقد أفسدوا كلَّ شيء، كلَّ شيء

****

لحسن الحظ تسلَّم ماهر مأمورة عمل في إحدى القرى المجاورة. الأمر الذي جنَّب جوانا زيادة التوتر بينهما, كانت تحدِّثه يوميًّا لكن كانت أحاديث باردة. وفي إحدى الأمسيات تعالى رنين هاتفها لكنَّها لم تكن في حالةٍ مزاجيةٍ للثرثرة لكن خشيت أن يكون المتصل أمها أو ماهر وهي لا تريد أن يقلقوا عليها لذا التقطت سماعة الهاتف متأففة قائلةً:

- مرحبا.

سمعت صوتًا أنثويًّا عرفته مباشرة وهي تقول:

- مرحبًا بنيتي.. كيف حالك؟؟

إنها والدة ماهر، فردت:

- إنني بخير يا خالتي، كم أنا سعيدة بسماع صوتك.

- لكنَّني لست كذلك، بل ومستاءة جدًّا..

سألت جوانا بدهشة:

- لماذا يا خالتي؟ ما الذي بدر مني لتستائي مني هكذا؟

- ما الذي حدث بينك أنت وماهر؟ لقد بدا تعيسًا جدًّا عندما رأيته آخر مرة قبل أن يسافر.

قالت جوانا في سرِّها: إذًا فقد أسرع إليها يشتكي

سمعت صوت خالتها تقول بلطفٍ: هيَّا أخبريني.

- هل اشتكى لكِ منِّي؟؟

- كلَّا.. إنَّه لم يشتكِ قط، لكنني أعرف ابني جيدًا وأعرف أنه ليس سعيدًا بتاتًا، وأعلم أنَّك سبب تعاسته.

- أنا؟

- نعم أنت، كلانا يعلم أن ماهر يحبك لحدِّ العبادة، ولكن يبدو أن حبه لك لا يعني لك شيئًا؛ لذا هذا الحب يؤرقه..

تمالكت جوانا أعصابها وقالت بهدوء: إنه يعني لي الكثير، لكن آسفة يا خالتي لا أريد التحدث في هذا الموضوع.

اشتطَّت المرأة غضبًا وقالت:

- بمعنى آخر لا دخل لك في حياتنا أيتها العجوز الشمطاء..

- العفو يا خالتي، كلُّ ما في الأمر أنني متعبة وربما...

قاطعتها:

- هراء، أعطيتك ابني أمانة في عنقك وها أنت تحاولين التملص من هذه الأمانة.

- أليس من المتعارف عليه أن الزوجة هي من تكون أمانة في عنق زوجها؟! ثمَّ ماذا أعطيتني؟ أعطيتني طفلًا عديمَ المسؤولية لا يعرف حتى كيف يدير حياته، أعطيتني طفلًا عديم الثقة في نفسه وفي كلِّ من حوله، أعطيتني طفلًا يظنُّ أنَّ

الحبَّ إكسير الحياة وغير ذلك لا يهم، لكن الحياة ليست كذلك.

- كنت أعلم أنك لن تقدِّري ماهر حق قدره، لن تفهمي رومانسيته وحنانه، جوانا يا عزيزتي إنَّه بحاجة إلى حبك وحنانك ويشعر بالخوف من فقدك منذ تركته تلك المرة، فأرجوك أظهري له حبَّك ولو زيفًا، أرجوك.

قالت جوانا وهي تعضُّ على نواجدها من الغيظ:

- شكرًا يا خالتي على النصيحة لكن ما زلتِ مصرَّة أنَّ هذا ليس موضوعًا للنقاش بيننا.. وأنَّ ماهرًا كبيرًا بما يكفي ليتولى رعاية شؤونه بنفسه.

- عندما يولد طفلك ويكبر وترين إحداهن تعبث بمشاعره المرهفة عندها ستعرفين المرارة التي أشعر بها عندما أرى ماهر يتعذَّب على يديك.

- خالتي أنا متعبة حقًّا، وإن كنت لا تمانعين أودُّ إنهاء المكالمة..

بقيت مصرة وهي تقول:

- يا ابنتي، ماهر....

قاطعتها جوانا:

- آسفة يا خالتي، ماهر سيتعلَّم مع الأيام أن الحياة ليست طريقًا ممهدًا، إلى اللقاء يا خالتي.

أسرعت تنهي المكالمة وهي تتنفس الصعداء.

****

بعد عودة سارة وهشام من المستشفى ونزع الضماد عن يدها. أمسك هشام بيدها وأخذ يمرر إصبعه على موضع الجرح قائلًا بلطف:

- يجب إجراء عملية تجميلية لإزالة أثر الجرح.

- لماذا سرعان ما تشفى وتختفي ولا يبقى سوى ندبة بسيطة

- ولو.. أريدها أن تعود كما كانت أنعم وأرق يدٍ رأيتها.

في تلك اللحظة تجسَّد طارق أمامها فأغمضت عينيها تكافح الذكرى بقوة وسمعته يقول وهو يقبِّل راحة يدها:

- هل أنت معي؟؟

ابتسمت له بصعوبة وقالت:

- مازال الوقت مبكرًا للحديث عن الجراحة..

واستجمعت أكبر قدرٍ من شتات ذهنها وأكملت بعذوبة:

- ثمَّ إنَّ هذه الندبة تحمل ذكرى أجمل أيام قضيناها معًا

نظر إلى عينيها مباشرة وقال بلهفةٍ:

- هل كانت كذلك؟؟

- لامجال للشكِّ في ذلك.

كان لايزال ممسكًا بيدها فتلمس خنصرها وقال:

- إذًا ألم يحن الوقت لإسعادي بارتداء خاتمي

لمح التردد في عينيها فهي ما زالت غير واثقة من مشاعره تجاهها ووجود عبير خارج اللعبة يبقيها مترددة فهي تريده لها قلبًا وقالبًا في وجود عبير وعدمه؛ فلم تنبس ببنت شفة فقال:

- حسنًا، لا أريد إفساد سعادتنا اليوم بالإلحاح، لكن يومًا ما سأنال مبتغاي وقريبًا جدًا.

ابتسمت له وقالت:

- أحبُّ رؤيتك واثقًا هكذا، سأذهبُ لأستعدَ قلت إننا سنخرجُ للعشاء أليس كذلك؟؟

- بلى .. هيَّا اذهبي.

بعد خروجها من الحمامِ ملتَّفة بالروب استلقت على السرير تتأمل الخاتم في خنصرها وهي تفكر هل أصبح الحلم حقيقة بهذه السهولة؟ إنَّ قلبها اعتاد انتزاع السعادة من بين أنياب الشقاء انتزاعًا حتى أنه لم يعد يطمئن للنصر السريع. ماذا لو عادت عبير وعاد هشام لسيرته القديمة في التحيز والتذبذب؟؟

قطع حبل أفكارها دخول هشام وارتمائه على السرير بجوارها قائلًا بمرح:

- ألم تجهزي بعد؟؟

نظر إلى صدرها من فتحةِ الروب وقال:

- أم أنَّ لديك أفكارًا أخرى لقضاء السهرة؟!

ابتسمت له وقالت بجرأة:

- يمكن تأجيل الأفكار إلى ما بعد العشاء وأعدك أن أجعلها أفكارًا ممتعة للغاية.

اتَّسعت عيناه دهشة فقال وهو يقترب منها:

- إذًا، أريد دفعة تحت الحساب.

فتحت ذراعيها له وقالت:

- تعال

كانت مبادرة لم يعهدها منها لكنَّه لم يتوانَ عن اقتناص الفرصة فارتمي في حضنها يقبِّلها ويعانقها عناق شغوفٍ متيمٍ حتى أحست بالامتزاج الكامل بينهما، لم تعد تتخيله شخصًا آخر، لم تعد تحلم بشخص آخر.. عادت إلى أرض الواقع على صوتِ رنينِ هاتف هشام فقالت بأنفاسٍ متقطعةٍ: هشام الهاتف.

ردَّ وهو ما زال في حممِ المشاعر:

- أي هاتف؟؟

ضحكت من منظره وقالت:

- هاتفك ألا تسمعه يرن؟!

أحكم ذراعيه حول خصرها قائلًا:

- تجاهليه.

وقبَّل عنقها بحرارةٍ فأمسكت برأسه قالت برقة:

- إنَّ المتَّصل مُصر ربما يكون أبي أو أمي أو حتى أبنائك، ثمَّ إننا لن نحصل على العشاء إن بقينا هنا..

وطبعت قبلةً سريعةً على شفتيه وأكملت:

- ولا على الأفكار الممتعة بعده، هيا أجب ريثما أجهز.

قام على مضض وهو يتمتمُ بكلماتٍ غير مفهومة فتعالتْ ضحكاتها وقامت ترتدي ملابسها وتستعد للخروج وعندما انتهت وخرجت وهي في أبهى حلة وجدته متجهمًا يذرع الغرفة جيئة وذهابًا فبادرته قائلةً:

- ماذا حدث؟؟ من كان المتصل؟؟

زفر بضيق: إنها خادمةٌ تعمل لدينا في منزل عبير.

- خادمة؟ وماذا كانت تريد؟

اتَّصلت تخبرني أن عبير خرجت إلى حفلٍ وستعود متأخرة وأنَّ الأولاد معها.

- ما المشكلة إذًا؟

- المشكلة أن هذه الخادمة تعمل بدوام جزئي ولن يؤخِّرها شيء عن العودة إلى منزلها في الثامنة..

- حاولْ إغرائها بالمال

- آه .. حاولت كثيرًا، لكن جوابها دائمًا أنا أيضًا لدي أطفالٌ يحتاجون إليَّ

- وعبير تعرف كلَّ هذا، وخرجت دون أن تبالي؟!!!

- إنَّها تريد أن تشعرني بالذنب وأنني أهمل أبنائي.

فكرت سارة لبرهة قبل أن تقول في غموض:

- حسنًا، لن نجعلها تفعل ذلك...

- ماذا تقصدين؟

- لنأخذ الأطفال إلى مدينة الألعاب ثمَّ إلى المطعم للعشاء وبذلك نقضي وقتًا ممتعًا لنا وللأطفال وعندما ننتهي أعود إلى منزلي وتذهب أنت مع الأطفال إلى المنزل. أرأيت الحل

سهلًا؟؟ ربما لا تكون الأمسية التي خططنا لها لكن ستكون أمسيةً جميلةً.

فغر فاه غير مصدقٍ ثمَّ قال بحذرٍ:

- أتقصدين أنَّك لا تمانعين من ذهاب الأطفال معنا.

- ولمَ أمانع؟؟ أطفالك لطفاء وأنا أحبهم

أمسك بيديها وقبَّلهما في امتنانٍ وقال: تعلمين لقد راودتني ذات الفكرة، لكن خشيت أن تقولي إنني أتعمد إفساد أمسيتنا التي وعدتك بها.

ردت بابتسامة مشرقة:

- يا عزيزي هناك من يحاول إفساد أمسيتنا، لكنَّني لن أمنحه هذه الفرصة، هيَّا اتَّصل بالخادمة لتجهِّز الأطفال للخروج، ريثما أغير ثوبي بطقم مناسب.

****

وصل طارق إلى منزل أخته بسرعة بعد أن اتصلت به وطلبت مجيئه لأمرٍ ملحٍّ. فتحت له الباب بعينين دامعتين وأنفٍ محمرٍ فقال مذعورًا:

- ما بك؟؟ ما الذي حدث؟؟

ردَّت بصوت خافتٍ: لم يحصل شيء.

أمسك بها وقادها إلى الأريكة وقال بلطف: إذًا ما الذي يبكيك هكذا؟

فقالت من بين دموعها:

- أريد الطلاق من ماهر.

هتف بفزع:

- ماذا؟؟

ثمَّ حاول تمالك نفسه وقال:

- ما الذي دفع بالأمور بينكما إلى هذا الحد؟

روت له ما كان من أمر تلك الرحلة وحديثها مع أمه وختمت كلامها:

- هكذا ترى أنني تزوجتُ طفلًا سأظلُّ أنتظر طوال عمري أن ينضج، لكن هذا لن يحدث أبدًا، والأدهى أنه لا هو ولا أمه يثقان في حبِّي لماهر.

صمت طارق برهة وحكَّ ذقنه مفكرًا ثمَّ قال:

- مما لاشك فيه أن تصرفانه صبيانية ومثيرة للغيظ ولا سيما بالنسبة لامرأة حامل.

تنهَّدت بارتياح لتفهمه موقفها لكنَّه أكمل:

- لكن يا عزيزتي أنت لست طفلة.

فغرت فاها دهشة وقالت:

- ماذا تقصد؟؟

قال بلطفٍ:

- أقصد أنَّكِ لم تعودي طفلةً بحاجة للحماية والرعاية والتدليل، أنتِ الآن امرأةٌ متزوجة ومسؤولة.

رفعت حاجبها متسائلة:

- وما دخل هذا في موضوعنا؟

- دخله أنَّ كلَّ واحد منكما يريد من الآخر أن يتصرف بطريقة معينة دون أن ينظر إلى نفسه أو يحاول تغيير شيء في ذاته، هو يريد أن تدليليه وتحني عليه كما اعتاد من والدته وأخواته بصفته آخر العنقود دون أن يتحمل المسؤولية التي اعتاد إلقاءها على الآخرين وتركهم يقودون المركب، وأنت تريدينه أن يكون كما كنَّا نحن لك نحنو ونعطف ونحمي ونتحمل عصبيتك تريدينه صورة منَّا لكنه ليس كذلك، وعندما لم يحصل كلاكما على ما يريد أحس بالخطر وكشر عن أنيابه واستعد لتجريح الطرف، الآخر وإظهار عيوبه ومثالبه في محاولة للتخلص من الشعور بخيبة الأمل، متناسين أهم شيء جمعكما ألا وهو حبكما.

- قبل سويعات كانت متيقنة وواثقة أنها على صواب 100% لكن كلمات أخيها جعلت ثقتها تتزعزع ومع ذلك لم تشأ أن تكافح من أجل أمل ضعيف فقالت:

- حسنًا أعترف أنني أتحمَّل جزءًا من الخطأ ومع ذلك ما زلت أريد الطلاق

زفر طارق في ضيق:

- يبدو أنك لم تعي شيئًا مما قلت..

- بل سمعت ووعيت جيدًا كلَّ كلمة قلتها وأدركت أنني لم أكن على قدر المسؤولية، لذا أريد الطلاق..

- وماذا ستقولين لابنك أو ابنتك عندما يسألك غدًا عن سببِ طلاقكما؟؟ .. هل ستقولين تركته لأنه كان طفلًا؟ أم لأنَّه كان متلهفًا على حبي أكثر مما يجب؟ أم لأنه كان لا يحسن تنظيم ميزانية المنزل؟ لم يكن سكيرًا، لم يكن سيئ الطباع، لم يكن بخيلًا، فقط لم يكن يحسن التصرف، فقط كان مدللًا، بالله عليك على من سيقع اللوم اليوم وغدًا؟؟ أنت، أنت فقط

لأنك عندما تزوجته كنت تعرفين تمامًا كم هو مدللًا وأخرق أيضًا..

بدأت في البكاء من جديد وهي تقول:

- نعم، كنتُ أعرف وأعرف جيدًا أنه لن يتغير وسيظلُّ للأبدِ ماهر آخر العنقود.

- هذا لأنك تعاملينه على هذا الأساس وقد قطعت حبل الرجاء منه تمامًا ولا تعطينه أيَّ فرصة ليحاول أن يكون غير ذلك فعند أي خطأ تبادرين باستلام الدفة وإدارة الأمور والثورة والغضب دعيه يحاول قد يفشل مرة أو اثنتين أو حتى عشرة لكنه في النهاية سيتعلم وينجح متى شعر بحبك غير المشروط ودعمك المعنوية وتوجهاتك اللطيفة، ما يحدث الآن أنَّه يحاول ويفشل فيرى ثورتك وغضبك ويشعر أنه يفقد ثقتك وحبك فيزداد خوفًا وفشلًا، فقط دعيه يحاول.

- إن تركتِ الأمر بين يديه سينتهي الأمر بمصيبة.

- وإن تطلَّقتِ منه بهذه السرعة سيكون الأمر كارثة لك وله وللطفل البائس.

- بالعكس أنا أحاول أن أضع حدًا للكارثة، أليس لهذا شُرع الطلاق؟

- أي كارثة يا جوانا؟؟ يا عزيزتي في أيِّ زواجٍ هناك أمور ممكنة التغيير فيكافح الزوجان لتغييرها، وأمور لا تقبل التغيير وأيضًا يكافح الزوجان للصبر عليها، وأموركما من النوع الأول... ثمَّ احمدي الله أنَّك لا تكافحين مع زوجٍ كارهًا لك أو ضرة تنغص حياتك مثل سارة، أو زواج غير متكافئ مثل حنين، أليس من العار أن تتخاذلي وتتطلقي بينما سارة وحنين صامدتان وتكافحان في ظروفٍ أسوأ، ثمَّ إنَّ ماهر ليس بهذا السوء إنه يحبك بل يحبك بجنون.

- ربما هذا ما يعقِّد الأمور أكثر، لا أظنني قادرة على الاحتمال أكثر.

أمسك بيدها وابتسم وقال:

- الآن من الأكثر دلالًا أنت أم هو؟ من الذي تخلَّى أولًا أنت أم هو..

بهتت جوانا فأكمل:

- كفاك عنادا، وحاولي من أجلك، من أجل ماهر، ومن أجل هذا الطفل البريء، ألا تذكرين كم كنتما شغوفين ببعضكما؟

ردَّت بابتسامة باهتة:

- وما زلنا إلى الآن.

- إذًا الأمر يستحقُّ عناء المحاولة، لا تعلمين كم ستكون مرارتك عظيمة إن تركتِ هذا الحب يتسلل من بين يديك.

وارتسمت نظرة حزينة في عينيه فربَّتت جوانا على يده برفق فقال:

- هيَّا لا تتخاذلي وأعدك إن لم ينجح الأمر سأكون أول من يدعمك في طلب الطلاق، عديني بذلك

بدت لها كلمة الطلاق مستهجنة الآن فقالت:

- أعدك

استقام واقفًا وقال:

- سينجح الأمر، والآن ادخلي وحاولي أن ترتاحي قليلًا فأنا أريد أن يكون ابن أختي موفور الصحة قوي البنية مثلي..

- أنا آسفة حقًّا لقد شغلنا الحديث ولم أقدِّم لك حتى كوب عصير..

- لا بأس سأعوِّضها بوجبة عشاء بعد عودة ماهر.

****

أثناء خروج طارق من منزل أخته خطر له أن يتَّصل بسارة ليطمئن عليها، ويرى كيف تسير أمورها مباشرة دون تفكير أخرج هاتفه واتَّصل بها، مرت لحظات الرنين كالساعات من لهفته لسماع صوتها وعندما ردت قالت بثبات:

- أهلًا جوانا كيف حالك؟

أدرك أنَّها في وضع لا يتيح لها التحدث فقال:

- آسف على الإزعاج، يبدو أنَّك مشغولة..

ردَّت بمرحٍ: لقد اخترتِ أسوأ وقتٍ للاتصال، فأنا على وشك الخروج مع زوجي للعشاء

بدت سعيدة، ورغم أن هذا ما يتمناه لها إلا أنَّه أحسَّ بقبضةٍ تعتصر قلبه، استغرق الأمر ثواني ليدرك أنها الغيرة فقال محاولًا تجاهل ألمه:

- إذًا أتمنى لكِ أمسيةً سعيدةً، دعيني أعرف كيف تسير أمورك؟؟

- ألا تعلمين أنَّ الفضول قتل الهرة الصغيرة إلى اللقاء، سأتَّصل لاحقًا.

وأنهت المكالمة. اجتاحه ندمًا عارمًا لاتصاله بها، أليس هذا ما كان يحثُّها عليه، أقرَّ بذلك ومع ذلك ظلَّ الألم يراوح مكانه، كانت حبيبته والآن حبيبة غيره يعلم يقينًا أن طريقهما افترق وربما لن يجمعهما درب مجددًا، لكنه لا يستطيع سوى أن يغار ويتألم لذلك.

****

وصل هشام إلى منزله الآخر فنزل لاستعجال الأطفال فأخذت سارة نفسًا عميقًا للتشفِّي من صدمة اتصال طارق بها وهي بجوار زوجها وابتسمتْ في خبثٍ أنثوي قائلة في سرِّها: لابدَّ أن الغيرة تنهشه الآن.

المرأة هي المرأة يلذُّ لها أن تعرف أن هناك من يحبُّها ويتلوى بهذا الحبِّ متزوجة أم عزباء، تحبه أو لا تحبه. دائمًا تظلُّ تلك المعرفة تخلق لذة خفيَّة مثيرة، لكن الاستجابة لهذا الحبِّ أو رفضه هو ما يميِّزُ الشريفة من الوضيعة.

قطع حبلُ أفكارها صوتَ رنين هاتفها مجددًا فانتفضت أيعقل أن يكون اتَّصل مجددًا. لكنَّها شعرت بالارتياح عندما رأت رقم البيت الكبير فردَّت مرحبة لينساب صوت أمها بسعادة قائلة:

- لقد وضعت مها فتاة رائعة الحسن.

قالت في سرِّها طبعًا كلُّ ما له صلة بمها لابدَّ أن يكون رائعًا.

قالت لأمِّها: حمدًا لله على سلامتها، أين هي الآن؟؟

- مازالت في المستشفى، أريدك أن تحزمي أغراضك وتأتي إلى هنا لبضعة أيام

سألت بحذر: ولماذا؟؟

- لتساعديني في رعاية أختك وأطفالها

- لا أذكر أنك سبق وأن طلبت من إحداهن ترك بيتها عند ولادة الأخرى

- أولًا هذا أقلُّ ما تقدمينه لهما مقابل رعاية والدهما لك كل هذه السنين، ثانيًا: أزواجهما أغراب أمَّا زوجك فهو أخوها ولا أظنُّ أنَّه سيمانع إن بقيت عدة أيام لرعاية أخته

- ماذا عني أنا؟ ربما أمانع فأنا لن أقبل أن أعطي هكذا دون مقابل.

- انتظري حتى تلدي ثمَّ تحدثي عن المقابل...

- ماذا عن أيام زواجي، وأيام مرضي أم أنَّك لا تذكرين أنهما كانتا مشغولتين؟ وستظلان هكذا للأبد.

زفرت الأم بضيقٍ وقالت بحدة:

- كنت أعلم أنَّه لا خير يرجى منك، على الدوام أنانية وحقودة الله الغني عنك..

- أخذت نفسًا عميقًا وقالت: حسنًا لن نبدأ الشجار، عندما تخرج من المستشفى سأكون....

وضعت أمها السماعة بقوة دون أن تترك لها مجالًا لإكمال حديثها فألقت الهاتف في حقيبتها بغيظ وقالت:

- اللعنة الكلُّ يحاول إفساد هذه الأمسية.

انتبهت لصوت هشام والأطفال مي ومايا ويزن يدخلون السيارة وهو يقول:

هل تأخرنا؟!!

ردت: قليلًا.

لاحظ تجهمها فسألها: ما بك؟

ظنًّا منه أنَّها قد تكون غيرت رأيها في موضوع اصطحاب الأطفال، رسمت ابتسامةً على وجهها وقالت:

- لا شيء

والتفَّت إلى الأطفال ترحب بهم. رحب بها مايا ويزن بحرارة في حين بقيت مي الكبرى منزوية بعض الشيء كما في المرات السابقة فقد كانت في العاشرة ومن الطبيعي أن تنحاز إلى أمها فهي في سنٍّ يؤهلها لاستيعاب مثل هذه الأمور. أما الصغيران فكانا دون السابعة فأخذت تثرثر معهما.

****

بقيت حنين في ذات المزاج السوداوي رغم مرور عدة أيام على تلك الزيارة. وعلى مائدة العشاء قال حامد:

- ترغب زينب في زيارتك.

رفعت بصرها من طبقها متسائلة:

- من زينب؟؟

- زينب زوجتي.

سألت مستغربة:

- ولماذا ترغب زوجتك في زيارتي؟؟

- في الحقيقة أحب أن تظلا على علاقة حسنة وتتزاورا فأبناؤها وأبناؤك مستقبلًا إخوة.

نظرت إليه للحظات ثمَّ قالت:

- هذا عنكَ، ماذا عنها؟؟ ما هدفها من الزيارة؟؟

قال بفخر:

- ربما لترى الفتاة الأسطورية التي ظللتُ أطاردها لسنوات ولا أبغي لها بدلًا.

كان من المفترض أن يشعرها هذا الكلام بالفخر والسرور ولكن هذا آخر ما يمكن أن تشعر به بل العكس تملكها الغيظ والحنق وهي تتذكر كيف ظلَّ لحوحًا مصرًا بعنادٍ فقالت بتهكمٍ:

- لترى إن كنتُ فعلًا أستحقُّ هذا العناء، آه أو لترى إن كنت منحتك السعادة التي تستحقها جائزة على إصرارك.

أخذت نفسًا عميقًا كي لا يستفحل غضبها ثمَّ قالت:

- أرجوك يا حامد أجِّل هذه الزيارة لما بعد، فلستُ بحالةٍ تسمح أن أُوضع تحت المجهر.

حملت الأطباق واتَّجهت إلى المطبخ فتبعها حامد وقال: ما بك؟؟ ما الذي يضايقك؟؟

ردت دون أن تستدير:

- لا شيء.. فقط بعض الضغوط في العمل.

وضع يده على كتفها بلطفٍ وقال:

- قد أكون جاهلًا، أميًّا لا يفقه شيئًا في نظرك لكنني في النهاية إنسان وأفهم الإنسان جيدًا، وأعلم أنَّ هناك ما يضايقك منذ عدتِ من زيارة أهلك وهو يضايقك بشدة وله علاقة بي، لأنك بت لا تطيقين حتى النظر إليَّ.

استدارت تنظر إليه مندهشة ومع ذلك ظلَّ الغيظُ ينتابها تجاه فلولاه لكانت الآن في منزل أبيها تنعم بحريتها، أو زوجة لرجل لائقٍ بها، أو ربما كانت ترفل في أغلال أبيها وإخوانها الصغير قبل الكبير. فقالت في سرِّها: آه.. من يدري ربما يكمن الخير فيما نظنه شرًّا.

فاستجمعت ما لديها من تعقل وقالت:

- أنا آسفة إن كنتُ أوحيت لك بذلك، صحيح أنني متضايقة، ولكن ليس للأمر علاقة بك

قال غير مصدق:

- حقًّا؟

ردَّت بطيفِ ابتسامة:

- حقًّا.

ظلَّ ينظر إليها وفي عينيه شيء بالغ الغرابة لم يسبق أن رأته من قبل، هل هو مهتم حقًّا؟؟ أم يحاول أن يكون كذلك؟؟

قال: سأنتظر إبريق الشاي.

وخرج فعاد غضبها للتصاعد مجددًا.

****

في طريق العودة قال يزن وهو يجلس بين مقعدي سارة وهشام:

أنا سعيدٌ جدًا، نبدو كأسرة حقيقية

ربتت سارة على خده قائلة: لكنَّنا فعلًا أسرة حقيقية..

قالت مايا: لكن ماما لا تذهب معنا إلى مدينة الالعاب أبدًا

سألت سارة: ولماذا؟؟

ردت مايا: تقول إنها كبيرة بما يكفي لتتوقف عن الذهاب لمدينة الألعاب.

قالت سارة بمرح: آه... إذًا لابد أنني بدوت غبية وأنا في مدينة الألعاب؟!!

رد يزن: لقد كنتُ رائعة.

قالت وهي تنظر إلى ثلاثتهم: لا أدري عنكم، لكنني كنت سعيدة جدًّا معكم، مرَّ وقتٌ طويلٌ منذ ذهبت آخر مرة لمدينة الألعاب، أتمنى أن نفعلها مجددًا

ردت مايا: نحن أيضًا كنَّا سعداء معك، أليس كذلك يا مي؟؟

ردَّت وقد بدأت تتخلى عن حذرها: نعم، لقد كان يومًا سعيدًا

انبرى يزن قائلًا: هل ستبقين طيبة هكذا دائمًا؟؟

قال هشام: لا يحق لك.....

قاطعته سارة : دعه يا هشام

وداعبت شعر الصغير قائلة: إن كنت تحبَّني فسأبقى طيبة، فهل تحبني؟

قال دون تردد: بالطبع أحبُّك .. وكلنا نحبُّك.. حتى أبي يحبُّك

قال هشام ضاحكًا: لقد استوليتِ على الصغار تمامًا.

ضحكت بسعادة وقالت ليزن: إجابة رائعة .. تستحقُّ قبلةً.

وقبلته فأسرعت شقيقته الصغرى تقول: أنا أيضًا أريد قبلةً.

ردت سارة: تعالي يا حبيبتي. وقبَّلتها

أوقف هشام السيارة أمام بنايتها فقالت: لقد نسيت مفاتيحي، هلَّا نزلت معي؟

نزل هشام دون أن ينبس ببنت شفة وفي المصعد سألها: أمتأكدة أنكِ نسيتِ مفاتيحك؟؟

ابتسمت دون أن تجيب فأكمل:

لكنكِ أنقذتني فقد كنت طوال الوقت أفكِّر في حجة للصعود معك

وصل المصعد فتقدمت باتجاه الشقة وهي تقول: ولماذا؟

فتح لها الباب فدخلت ودخل خلفها وقال وهو يديرها إليه وينظر إليها بحنان:

- ربما لم تكن الأمسية التي خططنا لها، ربما كانت صاخبة بعض الشيء لكنني كنت سعيد جدًا بوجودك معي، سعيد لكل مرة رأيت فيها الابتسامة تلوح على شفتيك مرفرفة بسعادة، سعيد بكل مرة سمعت فيها ضحكتك ترن فرحا لذا أردت شكرك على كلّ تلك السعادة.

وطبع قبلة سريعة على شفتيها ثمَّ قال:

- إلى اللقاء.

وعندما استدار هتفت:

- هشام.

فعاد ينظر إليها رفعت نفسها على أطراف أصابع قدميها وطبعت قبلة على خده وقالت بحبور: أنا أيضًا كنت سعيدة بكلّ لحظة وأنا معك هذه الليلة.

ضمَّها إليه بقوة وهو يقول:

- آه ... يا سارة من تكونين؟!!

قالت وهي تبعده عنها بلطف:

هيَّا ... لا تستطيع البقاء طويلًا فالأطفال ينتظرونك في الخارج.

استيقظت سارة صباحًا على صوت رنين هاتفها فردَّت بصوت ناعس: الووو...

- إنه أنا يا عزيزتي.. كيف أصبحت؟؟

قالت بنعومة: وهل ثمة ما هو أروع من صباح أستقبله بصوتك؟!

قال بسعادة: يا لعذوبة كلماتك، أين كانت كلُّ هذه الرومانسية؟

قالت بدلالٍ: كانت تنتظر من يخرجها.

- اسمعي، عرفان بجميلك ليلة أمس وتعويضًا عنها خططت لرحلة برية لي ولك فقط، وأعدك أنك لن تنسيها أبدًا.

- لا شيء أحب إليَّ من أن اكون معك.

- سارة .. هل لي أن أطلب منك أمرًا؟؟

- ليس لك إلا أن تأمر

- أرجو أن تخففي من هجماتك على قلبي فهو لم يعتد هذا القدر من الرومانسية، فهل يمكنك ذلك؟؟

ضحكت سارة من أعماق قلبها شاعرة بسعادة لا تضاهي ثمَّ قالت بعذوبة:

- كان يجدر بي أنا أن أطلب هذا...

هتف بسعادة:

- حقًّا

- حقًّا يا عزيزي

- استعدِّي سأكون عندك في غضون...

- آه يا الهي، كيف نسيت هذا؟؟

- ما الذي نسيته؟؟

- لا بدَّ أنك تعلم أنَّ مها وضعت مولودتها ليلة أمس، وستقتلني أمي إن لم أذهب إليها اليوم

- خسارة .. كنت أنوي جعل اليوم ذكرى لا تُنسى..

- لا تقلق يا عزيزي، أمامنا العمر كله لخلق ذكريات كثيرة..

- اسمعي، لن يعيقنا شيء، سآتي لأصحبك إلى المستشفى وبذلك يمكننا اختلاس بضع دقائق لأنفسنا.

- وعبير.. ألن تذهب؟؟

- سأذهب بها ثمَّ أعود لآخذك.. موافقة؟؟

- بالطبع.. وهل يُرد لمثلك أمر؟!!

- سارة أنت امرأة مدمرة، كوني جاهزة، آه .. كلَّا انتظري حتى آتي لمساعدتك.

****

حاولت حنين التخلص من الكآبة المسيطرة على روحها بالتأنق قبل خروجها إلى العمل. وكانت خطة العمل تقتضي إشرافها على مواقع العمل ومتابعة ما تمَّ فيها. فاتَّصلت بسارة لتخبرها لتتجنب عناء المرور بالمكتب لإخبارها فقالت:

- صباح الخير

ردَّت سارة بحبور:

- أهلًا عزيزتي، صباح النور

- أنا ذاهبة للقصر للإشراف على وصول الأثاث وترتيبه. هل ستلحقين بي هناك؟ أم ستبقين في المكتب؟؟

- آه...يا حنين لقد نسيت تمامًا أنَّ هناك ما يسمى عمل، هل هناك الكثير من العمل في المكتب؟

- أبدًا لم أتوقع أن تكوني أنت من يتهرب من العمل، توقعت أن أتهرب أنا أمَّا أنت فقد كان في ظني من المستحيلات.

- لأنني أعرف أنني يمكنني الاعتماد عليك، ويمكنك أخذ راحة متى تشائين.

- وما السر وراء ذلك فأنت تبدين في أحسن أحوالك؟؟

- وأنت تبدين في أسوأ أحوالك، ما الذي حدث؟؟

زفرت حنين في ضيق وقالت:

- لنأجل الحديث في هذا الموضوع إلى ما بعد، أخبريني ماذا تفعلين الآن؟؟

_ أرتدي الثوب الذي ابتعته من شانيل الأسود ذا الدانتيل والشيفون هل تذكرينه؟؟

- بالطبع، فقد كانت هذه القطعة تحفة في جهازك، لابد أنَّك تبدين مثيرة فيه، إذًا أنت وزوجك على وفاق؟؟

- آه يا حنين، أكثر مما تتصورين

- حسنًا لقد تأخرت، سأذهب قبل أن يصل العمال، وللحديث بقية..

- إلى اللقاء، يا حنين لن أنسى مواقفك معي

- ما الداعي لمثل هذا الكلام، نحن أخوات، إلى اللقاء

وضعت الهاتف والتفَّت إلى المرآة لإكمال زينتها على عجل عندها تعالت طرقات خفيفة على الباب فالتفَّت فإذا هو حسان يقف على الباب باستحياء فقالت وهي تبتسم له:

- ادخل يا حبيبي.

دخل الصبي وهو يقدم رجلًا ويؤخر أخرى في تردد فسألته: ما بك؟؟

نظر إليها في عينيه قلق وخوف وقال: هل ستتركيننا؟؟

ردت باستنكار:

- أترككما ؟ لمَ تقول هذا؟؟

- لا أدري، أنت غير سعيدة، وأبي كذلك صحيح أنَّه لا يصرخ ولا يعلو صوته مثل ذي قبل لكنَّه غير سعيد وأنا خائف من أن تتركينا لذا أنا أيضًا غير سعيد.

أحسَّت أنَّها خيبت أمل الصبي، وأنها كانت أنانية حينما لم تفكِّر سوى في مشاعرها متناسية مشاعر أسرتها الصغيرة فقرَّبته إليها وقالت: أنا آسفة يا صغيري، لكنني لن أتركك أبدًا، هل سمعت عن أمٍّ تترك ابنها؟!

- أمي تركتني، وأنت ستتركنني يومًا ما.

غمرته بحنان دافق وقالت بثقة:

- كن متأكدًا أنَّ هذا لن يحدث أبدًا، ثقْ بي.

- وهل سنعود سعداء من جديد؟؟؟

- بالطبع يا حبيبي سنعود، كنت متوعكة الفترة الماضية لكن الآن كلَّ شيء سيعود كما كان. هل أنت سعيد؟

طوَّقها بذراعيه بفرحة عامرة وقال:

- أحبك كثيرًا يا ماما.

ضمته إليها أكثر شاعرة أن قسمًا كبيرًا من كآبتها قد تلاشت.

****

استيقظت جوانا وسارعت لتحضير الإفطار لزوجها الذي عاد من مأمورة العمل في وقتٍ متأخر من الليل وهو في غاية التعب فدخل إلى الفراش مباشرة دون حتى أن يغيِّر ملابسه وعندما عادت إلى الغرفة كان قد استيقظ واستحمَّ وجلس في الشرفة سارحًا في ملكوت الله فوضعت الصينية أمامه وعليها كلُّ ما لذَّ وطاب وهي تقول في حبور:

- صباح الخير حبي.

وطبعت قبلة على خدِّه فرد:

- صباح النور.

وقبَّلها وقبل بطنها المتكورة الصغيرة وهو يتابع: تبدين متألقة هذا الصباح

جلست على الكرسي المجاور وقالت: ربما لأنَّه أول صباح لك في البيت منذ أسبوع.

رفع حاجبه دلالة عدم التصديق فقالت بابتسامةٍ عذبةٍ:

- منذ متى لم أقل لك إني أحبك.

ضاقت عيناه وقال وهو يشيحُ ببصره عنها:

وهل تحبيني أصلًا؟؟

صدمتها الحرارة في كلماته فقد بدت نابعة من أعماقه فأمسكت بوجهه تديره اليه وتقول برقة:

- أي قول هذا الذي أسمعه؟؟ تعرف جيدًا أني أحبك وإلا لما كنت في بيتك وأحمل طفلك أيضًا.

قال وهو يتحاشى النظر إليها: ربما زوجك بي لا يعدو عن كوني دمية مسلية لك، أو ربما كلُّ ما في الأمر الهرب من شبح العنوسة..

أحسَّت ببرودة تشلُّ أطرافها وألم كنصلِ سكينة حادة تغرز في قلبها فأغمضت عينيها تكافح الألم وحاولت أخذ نفسٍ عميقٍ ثمَّ قالت بعد لحظات:

- كان من المفترض أن يثيرني هذا الكلام فأبدأ بالصياح والشجار مما يؤهلك للهرب إلى حيث تريد، هذا لن يحدث، إذًا دع منطق العقل يتكلم وذكرني هل أجبرتك على الزواج بي؟ هل

سعيت خلفك لأجله؟ هل فتحت لك في يوم موضوع ارتباطنا؟ ثمَّ من الذي تقدم لي بدل المرة مرتين؟ من الذي حاول الانتحار عندما رفضت الارتباط به؟ ها ذكِّرني من؟؟؟

بدا عليه الخجل والارتباك وهو يقول:

- أعرف أنني أنا الذي كنت سأجنُّ إن لم تتزوجيني..

- جيد أنَّك تذكر، أما بالنسبة لشبح العنوسة، لابدَّ أنك لم تنسَ ابن عمي مصطفى الذي كان متيمًا بي بقدرك وربما أكثر فقد كنت حب الطفولة والصبا له لكنني فضلتك عليه فترك البلدة من حينها، وربما تذكر مؤيد صديق طارق الذي تقدَّم لي أيضًا وغيره وغيره..

قال والغيرة تلمع في عينيه:

- نعم أعرف كلَّ هذا

- إذًا تسقط حجتك الأولى، أما بالنسبة لكونك دمية مسلية، يا عزيزي أنا كنت في بيت أبي أميرة، كلُّ ما أريده مجاب، والخدم تحت أمري فإن كان هناك ما دفعني لترك كلِّ

هذا والبدء معك من الصفر فهو الحبُّ، الحبُّ فقط لا غير، أعرف أنَّ هذه ليست كلماتك ولكن كيف آمنت بها بهذه السهولة؟

طأطأ رأسه خجلًا فقامت من مكانها وهي تقول:

- تناول فطورك وإياك أن تردد كلامًا لم تفكر به جيدًا لأنك سرعان ما تساقط قشور الكلمات وتتعرى أمام محدثك.

شعر ماهر كم يبدو أحمقَ للغاية فأسرع خلفها وهو ينادي:

- جوانا .. اسمعيني..

وقفت دون أن تستدير فأكمل وهو يضع يده على كتفها: سامحيني يا حبِّي لا أعرف كيف خرجت تلك الكلمات الغبية من فمي، أنا آسف حقًا.

ولأنها سبق وقررت عدم الشجار معه فقد تركت الأمر يمرُّ بسلام وابتسمت له قائلة:

- سأسامحك فقط لأنِّي أحبك.

رفع أنامله إلى شفتيها وقبَّلها وقال:

- وأنا أيضًا أحبك يا حبي الأبدي، هيَّا تعالي نأكل أكاد أموت جوعًا والطعام بدونك كالرماد.

وعلى مائدة الإفطار سألته:

- إنَّه يوم إجازتك فماذا خططت لنا؟؟

تنحنح في حرجٍ وقال:

- لنا؟ في الحقيقة أنا ذاهب للتسوق مع أمي..

قالت بدلال:

- وتتركني وحيدة أحادث الحيطان.

- عندما مررت بأمي قبل العودة إلى هنا كانت تشتكي من نقص المونة فوعدتها بإحضار كلّ ما ينقصها.

اتَّسعت ابتسامتها وهي تقول:

- بسيطة نذهب أنا وأنت ونتسوق لنا ولها .. ويمكننا أن نقصد أيِّ مكان لتناول الغداء.

فكَّر قليلا ثمَّ قال: حسنًا

قامت بسرعة كي لا تترك له مجال للتردد وهي تقول: سأجهِّز نفسي لنذهب قبل أن تزدحم الأسواق.

وعندما عادت رأت على وجهه طيف ابتسامة ساخرة...

فسألت بعفوية: هل لي أن أعرف سرَّ هذه الابتسامة؟؟

قال متذاكيًا: لا شيء، فقط تذكرت كلام أمي، إنك لن تلبثي أن تحاولي إبعادي عنهم، وقد بدأت تصدق كلماتها سريعًا.

سقطت على المقعد من هول الصدمة فقد بلغ السيل الزبى من هذا الفتى فقالت وهي تحاول ألا تصرخ:

- قبل قليل كنت أريدك دمية لي والآن أحاول التفريق بينك وبين أسرتك، ماذا أيضًا؟؟ أتحفني.

- ليس الأمر كما تتصورين، كان مجرد حديثٍ عابرٍ.

- لا يهمني ما يظنه الآخرين عنِّي أو عن علاقتنا، لكن ما يؤلم حقًّا أنَّك تصدِّق كل ما يقال وبل وتأتي بكلِّ حماقة وصفاقة وتردد تلك الكلمات القاسية أمامي مدعيًّا السذاجة حسنا لا تدعني أُعيقك واذهب وتسوَّق أنت وأمك..

وأخذت حقيبة يدها الساقطة ارضا وهبت واقفة فأمسك ماهر بذراعها فانتزعتها بقوة فقال بتوسل: - لكنني أريدك أن تذهبي أنت معي.

- حقًّا؟ إذًا لن أذهب.

- أرجوك، لا تفسدي صباحنا، هيَّا.

- أنا من يفسد صباحنا؟ حسنًا سأفسده، ولن أذهب..

- لا تذهبي من أجلي، من أجل مؤونة المنزل

- قلت لا، فأيِّ جزء من كلمة "لا"، لا تفهمه

وتركت له الشرفة وهي تغلي غضبًا

****

قالت سارة لزوجها المستلقي على السرير باسترخاء وهي تجفف شعرها بعد أن غسلته:

- ألن تبدأ بارتداء ملابسك .. لقد تأخرنا

ابتسم لها وهو يقول بتكاسلٍ: حقًّا؟؟ بالنسبة لي مرَّ الوقت كالثواني.

- هيَّا .. سيعلم الجميع لمَ تأخرنا

وقف وقال:

- خصوصًا إذا ذهبتِ بشعرك المبتلِّ هذا..

ضحكت قائلة:

- هأنذا أحاول أن أخفي آثار الجريمة

وصل إليها وضمَّها إليه من الخلف ودفن وجهه في طيَّات شعرها قال بنشوةٍ:

- جريمتك أنَّك ساحرة، ساحرة وجميلة بشكل لا يصدَّق..

أحسَّت بكلماته كالنشوة تسري في عروقها وارتسمت السعادة على محياها فأيقظها من نشوتِها تلك وهو يقول:

- ألم يحن الوقت بعد لإسعادي بارتداء خاتمي؟؟

ورفع يدها إلى فمه يلثمها بحرارة. ظلت صامتة فقال بابتسامته المحببة:

- لن أقبل الرفض، سأظلُّ مصرًا حتى تقبلي.

لم يعد في داخلها شكٌّ أنه يريدها وقبل أن تجيب تعالى رنين هاتفها نظرت فوجدت المتصل أمها فأسرعت تلتقط الهاتف قائلة بامتعاض:

- إنَّها أمي.

ظلَّ كما هو واضعًا ذراعيه حول خصرها مسندًا ذقنه على كتفها مغمضًا عينيه بارتياح وبمجرد أن ردَّت بدأت أمها بالتقريع:

- ما هذا الاستهتار؟ الكلُّ وصل ما عداك..

ردَّت بسرعة:

- كنت أنتظر هشام وها قد وصل، دقائق وأكون عندكم..

- كلام فارغ، لو أردتِ الحضور حقًّا لكان بإمكانك طلب السائق أو حتى سيارة اجرة.. لكنك تفعلين هذا متعمدة، ماذا سيكون شعور أختك وهي تراك غير مبالية وآخر الواصلين؟

حاولت تمالك أعصابها وهي تقول:

- أشكُّ أن تلاحظ غيابي وهي محاطة بهذا الجمع الغفير، فما أنا بالنسبة لها سوى وصيفة اعتادت عليها.

- هراء، هل تظنينها عديمة الإحساس مثلك؟؟

أمسكت لسانها عن ردٍّ قاسٍ وأخذت نفسًا عميقًا تعيد الهدوء لنفسها ثمَّ قالت:

- لا حسنًا لا داعي لكلِّ هذا التجريح قلت إنني سأكون هناك خلال....

كالعادة قبل أن تكمل حديثها وضعت أمها السماعة فألقت الجهاز على المقعد المجاور في غلٍّ قائلة من بين أسنانها بغيظ: تبًّا.

قال هشام وهو يديرها إليه:

- لمَ كلُّ هذا الاستياء؟؟ لست مرغمة على الذهاب مالم تكوني راغبة

- ليست هذه المسألة إنها أختي وأحبُّها وأحبُّ رؤيتها ورؤية صغيرتها، فقط أسلوب أمي في اعتبارهن من ذوات الدماء الزرقاء وأنا من عامة الشعب هو ما يستفزني..

أمسك بذقنها يرفع وجهها إليه قائلًا:

- اسمعي إمَّا أن تفعلي ذلك بقلبٍ صافٍ أو لا تفعليه إن كان هذا يريحك.

فكَّرت للحظة ثمَّ قالت بابتسامة صغيرة:

- ألن تستاء إن اخترت الخيار الثاني؟؟

ابتسم بدوره وقال:

- ولماذا أستاء إنَّها حياتك وأنت حرة وتلك مسألة بينك أنت وأختك

- وهي أختك أيضًا

ربَّت على خدِّها بنعومة وتابع:

- نعم .. لكن أنت الأهمُّ في حياتي

اتسعت عينيها في سعادة غامرة ولا شعوريًا طوقت عنقه بذراعيها وهي تقول:

- أنت أروع زوج

أمسك بذراعيها ناظرًا إلى عينيها بغرابة وقال:

- أبدًا لم أتوقع، وصمت.

قالت تستحثه:

- تتوقع ماذا؟؟

- لا شيء.. هيَّا دعيني أساعدك في ارتداء ملابسك فقد أتيت خصيصًا من أجل ذلك...

****

وصلت سارة وهشام إلى البيت الكبير فوجدا الجميع مجتمعين وما إن وصلت والبشر مرتسم على محياها إلى سرير مها، حتى بادرتها أختها ممازحة: كنت سأسميها سارة ولكن بما أنك آخر الواصلين فقد غيَّرت رأيي.

ضحكت سارة قائلة:

- أنا متأكدة أنَّك لن تجازفي بإغضاب العائلة وإيجاد سارة أخرى، ثمَّ إنَّ الصغيرة أجمل من أن تحمل لعنة سارة...

ثمَّ اتَّجهت لمهدِ الصغيرة تحملها وتضمها إليه وسرعان ما وصل هشام وألقي التحية على أخته وبارك لها وانضمَّ إلى سارة عند مهدِ الصغيرة وهمس في أذنها: منظرك وأنت تحملين الصغيرة صورة مجسدة للأمومة..

- هشام، لقد أخافتني..

- ألا يثير منظر الطفلة مكامنَ الشوق في قلبك إلى طفلة لك..

- وأي فتاة لا تثيرها هذه الأمور، طفلة لي ما أروع هذا، هيا ابتعد قبل أن نصبح حديث المجلس.

وضع يده تحت يدها الممسكة برأس الطفلة وقال بحنانٍ:

- أنت تحبين الأطفال، حتى أطفالي فلمَ لا تريدين أن يكون لك أطفالٌ مني؟؟

- كنت خائفة.

- كنتِ؟ والآن؟

شدَّ انتباهها منظر شفيقة تدخل الحجرة ساحبة عبير من يدها فتجاهلت المنظر وعادت ببصرها إلى الصغيرة وهشام.

قالت شفيقة:

- تعالي وانظري، أين أنت عن كلّ هذا؟؟

هتفت عبير بغلٍّ:

- اللعينة تغازل زوجي على الملأ...

- أين أنت عنهما؟ تحولا إلى كناري حبٍّ وأنت غافلة..

- كنت أتبع نصائحك، ألم تقولي اتركيه وابتعدي عنه ليشعر بقيمتك..

لطمت شفيقة خدها وقالت:

- أيتها الغبية الرعناء فتركته تمامًا، تركته فأسرع إلى حضنِ تلك الشمطاء، أي امرأة انت؟؟ أليس لك قلب؟؟ انظري كيف استولت عليه.

- تهدَّج صوت عبير وهي تقول: ألم تكن تلك نصيحتك...

- يا صاحبة العقلِ الصغير، عندما قلت ابتعدي قصدت التمنع والتغلي على أن تظلي موجودة في حياته مهيمنة عليه..

اغرورقت عينا عبير بالدموع وهي تقول:

- يا إلهي ارتكبتُ غلطة فادحة.

من يرى شفيقة وهي تتميز غيظًا من تقارب سارة وهشام يظن أنَّها تتحدث عن زوجها لا زوج عبير فقد كانت عيناها تقدح شررًا وهي تقول: وتلك اللعينة أحسنت استغلال الوضع، أين كنت؟ في غيبوبة؟ ماز لت واقفة اذهبي وانهي تلك المهزلة.

كانت سارة تتحدث مع هشام بنصفِ عقلٍ بينما النصف الآخر مع عبير وشفيقة وعندما رأت عبير مقبلة وضعت الطفلة في مهدها وهي تقول لهشام:

- عبير تتجه إلينا ويبدو أنها نالت من التقريع من شفيقة ما الله به عليم فهي تكاد تتفجر غيظًا فقال هشام بخبث: تصرفي وكأنك لا تعرفين شيئًا مما حدث.

ضحكت سارة وقالت:

- أنتم الرجال...

ووصلت عبير التي قالت بعنف:

- يبدو أنكما تريدان الاستئثار بكلِّ شيء...

قال هشام:

- ماذا تقصدين؟

ردت : أريد رؤية الطفلة

تنحَّت سارة عن طريقه قائلة: إنها لك.

ثمَّ نظرت إلى هشام وقالت بدلالٍ: سأذهب لرؤية أبي فقد استثرت بوقتي كلَّه منذ وصلت

وتحركت لكن هشام ظل يتابعها ببصره حتى غادرت الحجرة وغابت عن ناظريه فوكزته عبير قائلة بغلٍّ: لم ما زلت واقفًا هنا، هيَّا اتبعها، تكاد تلتهمها بعينيك

أعاد بصره إليها وقال بسخرية:

- لا أدري إن كنت لاحظتِ أنني لم أراكِ منذ ثلاثة أيام رغم أننا نقيم في ذات المنزل فما الذي تريدينه الآن؟

- ما الذي يحدث بينك وبين تلك العجوز المتصابة؟؟

- تلك العجوز المتصابة زوجتي، ماذا تتوقعين أن يحدث؟!

تأجج غضبها من برودِه فهتفت بغضب:

- هشام لقد وعدتني أنَّها لن تظل...

قاطعها هشام وهو يمسك بيدها بحنان: ما الذي حصل لكِ يا عبير؟ كنت على الدوام امرأة مملؤة دفئًا وحبًّا، كيف تحوَّلتِ إلى امرأة خلاقة للنكد والشجار؟

ألجم أسلوبه لسانها فأشاحت بوجهها عنه فقال بنعومةٍ:

- لابدَّ أنَّك اشتقت إلي، وإن كنتِ ما زلتِ تريدين الشجار عودي معي إلى المنزل فنحن لا نريد إفساد نهار الجميع.

قالها وهو متيقن أنَّها لن تضحي بمثلِ هذه الجمعة العائلية وجلسات النميمة النسائية مهما كانت المغريات وبالفعل ظلَّت تنظر إليه غير عارفة كيف تخرج من هذا المأزق تحت نادتها إحداهن فانصرفت مسرعة.

****

جلست سارة مع عمها تتحدثان والسعادة واضحة على محياها فقال لها في حبور:

- من الواضح أنَك تحرزين تقدمًا ملموسًا، فلمَ أراك سعيدة هكذا منذ زمن.

أومأت برأسها دلالة الإيجاب فاستطرد قائلا":

- لكن لا تدعي هذا النصر الصغير يغريك..

ارتسم القلق في عينيها وقالت:

- لماذا تقول هذا يا أبي؟ أليس لك ثقة في؟ أم أن الأمر ميؤوس منه..

- لم أقصد شيئًا من هذا، ولي مليء الثقة بك.. وأعلم أنك قادرة على سلبه من زوجته وأولاده تمامًا متى أردت ذلك

- سلبه؟؟؟... آه حتى أنت يا أبي تصورني كسارقة أزواج، هو من سعى إلي، ولست أنا.

- تعرفين أني لم أقصد المعنى الذي تبادر إلى ذهنك، ولكن أليس أخذ نصيب أكبر من نصيب يعد سلبًا، ما أردت قوله لا تجعلي هذا النصر يغريك فتتقاعسي عن إكمال ما

بدأته, الزواج يا بنيتي مثل العمل في المزرعة كلُّ صباح عليك البدء من جديد، وأنا متأكد أنك عاملة مجدة..

قبَّلت رأسه وقالت وهي تمسك بيده: ادعُ لي يا أبي، لدي أملٌ أننا سننجح، وأنَّه سيحبني

ابتسم لها وقال: مادام لديك أمل فقد أحببته.

خفضت بصرها في استحياء وقبل أن تتكلم جاء جهاد ابن اختها قائلًا:

- خالة سارة جدتي تريدك في المطبخ حالًا

ضربت جبهتها بقوة وصرخت:

يا إلهي، ستقتلني أمي اليوم، إلى اللقاء في جنات الخلد.

وأسرعت إلى المطبخ.

****

عاد حامد إلى منزله ليجد الجوَّ مختلفًا عمَّا اعتاده في الأيام الماضية، رائحة البخور تعبق بالمنزل، والمائدة عامرة بالطيبات، وحنين في أبهى حلة تستقبله بابتسامة مشرقة قائلة:

- أهلًا وصلت في الوقت المناسب.

- هل دعوتِ أحدًا إلى الغداء؟؟

- كلَّا عدت مبكرًا من العمل لأعدَّ لكم ما تحبون من الطعام، هيَّا قبل أن يبرد الطعام..

ثمَّ نادت حسان:

- هيَّا يا حبيبي لقد وصل بابا، هيَّا وإلا ستفوتك كعكة الشوكولاتة..

مرَّت فترة الغداء سريعة وهم في مرح وسعادة فقالت وهي تبتسم لهما بصدق:

- أرجو أن يكون الغداء قد راق لكما..

رد حامد: كان ممتازًا

حرَّك حسان يده وهو يحشو فمه بقطعة أخرى من الكعكة:

- لا مجال.. كان رائعًا.

قالت:

- هذا اعتذاري لما سببته لكما من بؤسٍ طوال الأسبوع المنصرم، كنت متضايقة لأمرٍ خاصٍّ.

ضحك حسان قائلًا:

- مصالحة بطعم الشوكولاتة ما أروع هذا..

قال الأب مبتسمًا:

- يا لكِ من شره، فمهما كان الغذاء رائعًا لا يقارن بالتعاسة التي نشعر بها من دونها.

مسح حسّان يديه بالفوطة ونزل من كرسيه وطوق عنقها بذراعيه قائلًا بسعادة:

- لكننا الآن سعداء جدًّا، أليس كذلك؟؟

ضمَّته إليها وقالت وهي تنظر إلى حامد:

- بالطبع نحن سعداء

ابتسم لها حامد في حين تركها حسان وقال:

- ما رأيكم بمناسبة عودتنا أسرة سعيدة أن نخرج معًا هذا المساء؟؟؟

- أنا مشغولة جدًا هذا المساء، ولكن يمكنكما الذهاب معًا.

بدأ التردد على حسَّان فقال الأب:

- فكرة جيدة، إلى أين تريد الذهاب؟

ردَّ بسرعة: إلى مدينة الألعاب

- مع أني لم أفعلها من قبل لكنني سآخذك إلى هناك، هل أنت مسرور؟؟

- نعم، متى سنذهب؟؟

نظر إلى ساعته وقال: سآخذ قيلولة لمدة ساعتين ثمَّ نذهب.

- إذًا سأذهب وأستعد.

وأسرع إلى حجرته، أمسك حامد بيدها وهي تقف وقال: لطالما ظننت أنك متعجرفة لدرجة أنك غير قادرة على الاعتذار.

كلاهما يعتقد في الآخر الأسوأ فقالت ببساطة:

- لكنني لست كذلك.

وبينما هي تتحدث انتابها دوارٌ فأمسكت بصدعيها وهي تتهاوى على كرسيها من جديد. بدا على حامد القلق بصورة لم تتصورها وهو يسأل:

- ما بك؟؟ ما الذي أصابك؟؟

ردت وهي تحاول الوقوف:

- لا شيء، مجرد دوار بسيط، لا بدَّ أني أجهدت نفسي في العمل اليوم..

- إذًا اذهبي وارتاحي..

- سأرفع المائدة وأرتاح

أمسك بيده قائلًا بحنان:

- اتركي كلَّ شيء، أنا سأهتمُّ بأمر المائدة، هيَّا اذهبي وارتاحي..

وقادها إلى حجرةِ النوم وهي ما تزال ذاهلة من تصرُّفِه.

****

خرجت سارة من المطبخ بعد أن انتهت من الإشراف على الخادمات في أعمال التنظيف والترتيب فوجدت الكل مجتمعين في غرفة مها بما فيهم العم آدم. فانضمت اليهم وما أن رآها عمها حتى ابتسم لها قائلًا: سلمت يداك على هذا الغداء اللذيذ

ردت بحبور:

- شكرًا، هذا من ذوقك.

قال هشام:

- أهذا أنت؟؟ لقد تفوقت على نفسك اليوم في الطبخ.

وبما أنه لا مكان شاغر جلست على ذراع مقعده واضعة ذراعها على كتفه فأحاط خصرها بذراعه لا شعوريًا غير فاطنين للنظرات المحدقة بهما. وما أن دخلت عبير ورأتهما حتى قالت بحدة مخاطبة هشام:

- ما هذا الاستهتار وقلة الاحترام التي تبديانها أمام الجميع؟!

بهت هشام من هذه الهجمة المباغتة فسأل متعجبًا:

- ما الذي حدث؟؟

أشارت إليه وإلى سارة وقالت باشمئزاز:

- كيف تضمُّها إليك هكذا على الملأ؟ ألم يعد ثمة حياء لديك؟ على الأقل احترم وجود عمي، إن لم تراعِ مشاعري قيد أنملة.

انبرت شفيقة تقول:

- لقد ذهبت الثانية بعقله، ألم تلاحظي؟؟

تعالت الهمهمات بين الحضور في حين رسمت عبير معالم البؤس والحزن على محياها. ظلَّ هشام صامتًا فقالت سارة:

- يا عزيزتي، أنا لن أقع في ذات الفخِّ مرتين، فلا تحاولي كسب تعاطف الجميع وتحويلي إلى شريرة القوم. كلَّ ما في الأمر أن المقاعد ممتلئة فجلست هنا وأنا آسفة أني لم أفكر في مشاعرك وغيرتك ولكن ما حدث كان عفويًّا غير مقصود مع أني متأكدة أنك لو كنتِ مكاني لم فكرت في مشاعري لثانية ... ثمَّ إنه حان الوقت لتتقبلي حقيقة أن هشام زوجي أيضًا وسواء راق لك الأمر أم لا فإنه يعود إلى حضني و فراشي ليلًا، فلا داعي لإفساد نهار الجميع كلَّما حدث واجتمعنا.

وأبعدت ذراع هشام عن خصرها لكن بقيت على ذراع المقعد وأكملت:

- هل أنت راضية الآن؟؟

لم تنبس ببنت شفة واستدارت إلى حيث تجلس شفيقة وحشرت جسدها الضئيل بجوارها بينما نظراتها تقدح شررًا.

وبعد فترة قالت سارة:

- أريد المغادرة، هل السائق موجود؟؟

ردَّ هشام:

ولمَ السائق؟ أنا أيضًا مغادرٌ.

قالت عبير وقد اشتعلت الغيرة في عينيها:

- أنت لم تذهب إلى العمل اليوم إن كنت لا حظتَ ذلك

ابتسم لها قائلًا: من الجيد أن يكون الإنسان مديرًا بعض الاحيان، هل تريدين الذهاب؟؟

ردت:

- لا.. سأبقى حتى المساء

قال مخاطبًا سارة:

- أنا في السيارة بانتظارك.

وخرج، وقبَّلت رأس عمِّها وودعت الحاضرين وأسرعت إلى حجرتها تجمع حاجياتها وفي طريقها إلى الخارج رأتها امها فسألتها مستغربة:

- إلى أين؟ أظن أنني قلت احزمي أمتعتك لعدة أيام.

- لدي عمل يجب أن أنجزه اليوم، سأعود لاحقًا بمجرد أن انتهي.

- وما دخلي أنا في عملك؟ طلبت منك البقاء ويجب أن تبقي..

- آسفة يا أمي الوضع الآن مختلف، لدي زوج وعمل ولهما الأولوية، ولن أجعل أيَّ شيء يعوقني في الاهتمام بهما.

- أي شيء؟ هل ولادة أختك أي شيء؟ ماذا ستظن أختك؟

- لا يهمني ما تظنه، سأفعل ما في وسعي لها، لكني أمرُّ بمرحلة انتقالية في زواجي وعملي فإن كنتما تريان أن هذا لا شيء ولا يجدر بي الاهتمام به، فولادتها أيضًا لا شيء...

- كلُّ هذا هراء، هشام من أطيب الناس، وأنت لم تأتِ يومًا شاكية

ضاقت عيناها في ألم وهي تقول:

- لوكنت مهتمة حقًّا لما تركت المظاهر تخدعك، فقد مررت بأوقات عصيبة، آه، لم أتكلم أنا أعرف أنك لم ولن تهتمي، إلى اللقاء قبل أن يتحول الأمر إلى شجار كالعادة.

خرجت مسرعة إلى السيارة ووجهها متجهم، فسألها هشام:

- ما بك ؟ لم أنت متجهمة هكذا؟

أقسرت نفسها على الابتسام وقالت:

- لا شيء.

انطلق بالسيارة ثمَّ عاد يسألها:

- ما بكِ حقيقة؟ هل أثَّر بك كلام عبير؟

هزَّت رأسها نافية ثمَّ قالت:

- لست أنا، توقعت أن يؤثر بك أنت؟

اتَّسعت ابتسامته وقال:

- هل أبدو لك إمعة لهذه الدرجة؟ رفعت حاجبها ساخرة:

- لا أدري، فقد كان هناك من يدفعه وجود عبير وشفيقة إلى الجنون..

أمسك بيدها وقبَّل راحتها وقال بهمسٍ:

- كان هذا قبل أن أكتشفك...

أحاطت كفَّه بيديها وقالت:

- أخشى أن أسمع كلامًا مغايرًا فيما بعد.

- آه، يا سارة إن من يعرفك لن يتركك أبدًا.

****

- هل أنت متأكدة أنك بخيرٍ؟

قال حامد للمرة العاشرة فردَّت مطمئنة إياه:

- إنني بخير، لا تقلق كان مجرد دوارٍ بسيطٍ..

- لا يعجبني ذهابك إلى العمل وأنت بهذه الحالة

- إنَّ عملي اليوم مكتبي فكن مطمئنًا.

نزلت من السيارة وأرسلت قبلة في الهواء لحسان قائلة:

- استمتعا بوقتكما.

كانت أول الواصلين فجلست تراجع الكشوفات النهائية قبل تسليم قصر التلة.

دخلت سارة قائلة بابتهاجٍ:

- رائع، بل أكثر من رائع، إنَّ ما قمتِ به في القصر تحفَة فنية. لقد كنت هناك ستجن صاحبته حبورًا عندما تراه، هل عرفت الآن سرَّ إصراري على مشاركتك..

ابتسمت بخجلٍ وردت:

- شكرًا على الإطراء سيدتي السعيدة..

نظر إلى عينيي سارة وقالت:

- لا أذكر متى رأيتك متألقة وسعيدة هكذا، ماذا حدث هذا الصباح؟

- دعك مما حصل، أنت ما الذي يحدث معك؟ بصراحة تبدين أقل بؤسًا مما بدا على صوتك صباحًا.

تنهدت حنين ثمَّ قالت:

- هذا لأنِّي تصالحت معه أثناء الغداء رأفة بحسان.

- تصالحت؟ ما الذي حدث أساسًا؟ يبدو أنني كنت مشغولة حقًّا.

روت لها ما حدث في تلك الزيارة المشؤومة وختمت حديثها:

- من ذلك اليوم مهما فعل أو أبدى من لطف وحنان فإنَّه لا يروق لي

بقيت سارة صامتة لفترة قبل أن تقول:

- بإمكاني الجلوس إلى جانبك ومشاركتك ندب حظك العاثر الذي أوقعك في رجل ليس لائقًا بك لكن هذا لن يغير من الواقع شيئًا، حنين أنا صديقتك وإن لم أخبرك أنا بالحقيقة فلن يفعل ذلك شخص آخر، بصراحة لقد خيبتِ أملي، لطالما ظننت أنَّك أقدرنا على خوض معارك الحياة ولكن عندما تحوَّل الأمر إلى واقع أشعر أنَّك واختنقتِ قبل الغاز.. مت قبل الرصاصة خذلت حنين القوية، رميتِ بأحلامها ككم مهمل من النافذة، خذلتِ كلَّ مبادئها التي طالما آمنت بها...

اتَّسعت عيناها استنكارًا وقالت بحدة:

- ما الذي يتوجب عليَّ فعله أكثر؟ سلَّمت له الراية وعاملته أحسن معاملة، بل واحتويت ابنه وكأنَّه ابني.

أرادت سارة أن تكون حازمة معها فقالت: كلُّ هذا تشكرين عليه، لكن الأهمَّ هنا..

وأشارت إلى صدرها وأكملت:

- هنا، في القلب، لا بدَّ أن يكون التغيَّر هنا، التقبُّل هنا، لابد أن تفتحي قلبك له بل وتحاولي اقتحام قلبه، عندها فقط لن يشكِّل كونه أمِّيًّا أو جاهلًا أي فرق لديك، عندها لن تضايقك أيُّ كلمة نقد أو سخرية عنه فستسمعين من هذا الكثير من القريب قبل البعيد، من الصغير قبل الكبير، من القاصي والداني، إن تقبلته هنا لن يشكل النقد مصدر إزعاج وشقاء لك.

- آه .. يا سارة لماذا يجب أن أتقبله كما هو؟ لم لا يتغير من أجلي؟

- كلُّنا يا عزيزتي نريد أن يحبُّنا الآخرين كما نحنُ لا لشيءٍ فقط لأنَّ هذا هو جوهر الحب "أحبك كما أنت بكلِّ عيوبك ومزاياك". فإذا شعر بحبك صدقيني سيتغير من تلقاءِ نفسه ليكون لائقًا بهذا الحب.

تراجعت سارة إلى الخلف وأسندت ظهرها إلى المقعد ثمَّ أكلمت:

- بصراحة من حديثك عن في الماضي توقَّعتُ لك بعد الزواج حياةً مملؤة بالبؤس والشقاء لكن الرجل أظهر معدنًا طيبًا. ألا ينبئك هذا بشيء؟! إنه يحمل لك قدرًا من الحبِّ وإلا لما توانى عن إذلالك ليل نهار، إن كان مجروحًا الكبرياء كما كنت تظننين...

- هذا لأنِّي لا أترك له فرصة لذلك..

- هذا ما تظنينه، لكن للرجال أساليبهم التي لا يعجزها شيء في اختلاق المشاكل..

- سارة ما تطلبينه مستحيلًا، كيف أحبُّ رجلًا لا أطيقه أصلًا؟ كيف أخلق مشاعر لم توجد يومًا؟؟

- إذًا حان الوقت لخلقها، اسمعي يا حنين أنا خبرت فلا يغرنك الحبُّ الهوليدي وكأنه شرارة تمسك دون حول لك أو قوة. أنا خبرت الحبَّ وجربته وأعلم أن وجود الرغبة الصادقة كفيلة بإيجاده، افتحي قلبك، شاركيه الحياة وسينجح الأمر،

ربما لن تنشأ تلك العواطف الملتهبة لكن على الأقل ستكون هناك المحبة اللطيفة والألفة والتفاهم وكلُّ هذا سيشكل أرضية مشتركة للمضي في الحياة بسلام، أين ذهبت روحك القتالية، ومواعظك الرنانة؟؟

ابتسمت في خجلٍ وقالت:

- عندما تكونين أنت المعنية ستدركين كم هو صعب تحويل الكلام إلى واقع.

- فقط انفضي عنك هذه الروح الانهزامية، افعلي هذا من أجلك حتى نراك سعيدة مجددًا، ثمَّ كيف سأستمتع بنجاحي وأنا أراك بهذا البؤس.

- على ذكر النجاح، ما سرُّ هذه القفزات في حياتك؟

- اكتشفتُ سلاحًا أو بالأحرى أتقنت استخدامًا لا يخيب أبدًا مع الرجال

- ما هو؟

- أستغربُ كيف تعلّمنا أمهاتنا الطبخ والكنس والتنظيف وإدارة شؤون المنزل ويغفلن عن هذا السر الخطير؟

- لقد ألهبتِ فضولي، ما هو؟

قالت بهمسٍ ناعم:

- العلاقات الحميمة

احمَّر وجه حنين فضحكت سارة قائلة:

- أرأيتِ؟ إنك تحمرين خجلًا لمجرد ذكر الأمر دون الخوض في التفاصيل.

- ليس الأمر كذلك، لكننا اعتدنا أنَّ مجرد الخوض هي هذا الموضوع من قبيل ترك الأدب وسوء الخلق.

- لمَ؟؟ مع أنَّ الدافع ل98% من الرجال للزواج هي العلاقات الحميمة.

- أعلمُ هذا، ولكن لا أدري ماذا أقول هكذا نشأنا..

- والذي قد لا تعلمينه أنَّ الرجل يفقد صوابه عندما تبادر المرأة من حين لآخر إظهار شوقها إليه ورغبتها فيه فذلك يشعره برجولته وفحولته ويستمتع أيَّما استمتاع.

- يا إلهي، لا أتخيَّل أنِّي أفعل شيئًا من ذلك، سأموت خجلًا، المرة الوحيدة التي شعرت فيها برغبة في تقبيله طلبت منه أن يغمض عينيه.

ضحكت سارة من سذاجتها ثمَّ قالت:

- يا عزيزتي نصف الحياة الزوجية الأجمل يفوتك، آه لن تذهبي إلى تلك الجنة أبدًا إن بقيت خجلة، لن تشعري بلذة إثارته والتلاعب بعواطفه، لن تري أبدًا نظراته المثقلة بالرغبة والخنوع تلاحقك.

- كيف أتتك الجرأة لذلك؟

- إنَّه زوجي، وإن لم أستمتع معه فمع من سأفعل؟!، لست خجولة بطبعي لكن سرور هشام بما أفعله واستجابته زادت دوافعي وشيئًا فشيئًا صرت أتفنن في الأمر والآن، لا أبالغ إنْ قلتُ إنَّ هشام يعشق الأرض التي أسير عليها.

- ولكن ماذا لو خبتِ الرغبة لأي سبب؟

- يا عزيزتي العلاقات جسر للوصول إلى قلبه وعقله والاستيلاء عليهما عندها حتى لو خبتِ الرغبة تكونين قد استوطنت القلب والوجدان..

- وهل بدأت عملية الاجتياح والاستيلاء؟

- عيب عليك أن تسألي، هل تظننين أني كنت ألعب هذا الصباح؟! فبعد غارة واحدة عاصفة وقف هشام لأولّ مرة على الحياد بيني و بين عبير.

- متى حدث هذا؟؟

روت لها ما حدث بعد الغداء اليوم ثمَّ سألت:

- ما رأيك؟؟

ابتسمت حنين وقالت:

- ماذا أقول؟ أبهذه السرعة؟ أهنئك.

- ليس الآن، حتَّى يتمُّ الاجتياح الكامل، هيَّا انطلقي أنت أيضًا، بالمناسبة كيف تسير أمور جوانا؟؟؟

- ليست على ما يرام أبدًا تحدثت معها اليوم وكانت في غاية البؤس، المسكينة.

قالت سارة بعد أنْ سمعت ما حدث:

- كنت متأكدة أنه لن يسعدها، فتى أحمق لكن مرآة الحب عمياء.

قالت حنين وهي تخفض بصرها في خجل:

- أحبُّ أن تعلمي قبل الجميع، ربما أكون حاملًا.

جمدت ملامح سارة للحظة ثمَّ قالت بابتسامة خفيفة:

- وتقولين إنك خجلة؟؟ مبروك يا عزيزتي وهذا سبب إضافي لتقاتلي بعزم أكبر

سرحت للحظة ثمَّ تابعت:

- يبدو أنني سأكون في ذيل القائمة هذه المرة أيضًا..

- لا يجب أن تغاري، إنَّها أقدار..

ردَّت بسخرية:

- لا يجب أن تغاري، تتحدثين عن الغيرة وكأنَّها نقيصة، إنَّها شعورٌ طبيعي، أنا لا أحسدك، لا أكره الخير لك، لكن أريد أن يكون لي ما للأخريات.

قالت حنين معترفة:

- أنا أيضًا كنت من الغيرة منك ومن جوانا بعد زواجكما بحيث لم أكن أطيق حتى النظر إليكما.

ضحكت سارة وقالت:

- أعلم لقد رأيت ذلك جليًّا في عينيك تلك الأيام. على فكرة هل بقي بعض الدهان من العمل في القصر؟

- أظنُّ ذلك، ما حاجتك إليها؟ هل من مشروع جديد؟

- ثمَّة بعض الطلبات غير المؤكدة، ولكن ليس هذا ما سألت لأجله، وأنا في سوقٍ رأيت ورقَ حائطٍ تمثل حديقة

وأطفال يلعبون تحت شجرة صفصاف ففكرت، وأرجو أن لا يضايقك هذا، إنَّها ستكون مناسبة لغرفة حسان ونحتاج الدهان لبقية الحيطان..

شهقت حنين بسعادة:

- آه يا سارة، أنت رائعة، كيف لم أفكر في هذا من قبل؟؟ بصراحة لم أتوقع منك أن تولي حسان مثل هذا الاهتمام.

- آه.. لقد صدمتني هل أبدو قاسية لهذا الحدِّ؟؟

- أعرف أنَّك طيبة القلب لكن تكرهين إظهار ذلك

- حسنًا لنباشر العمل فيها من الغد.

****

قضى ماهر كلَّ يومه في الخارج وعندما عاد كانت جوانا نائمة على الأريكية فأيقظها بهزةٍ من يده وهو يهمس:

- جوانا

فتحت عيناها وقالت بابتسامة:

- أهلًا ماهر، متى عدت؟

- للتو وجائعٌ جدًّا ومشتاق إلى طعامك، ماذا أعددت لنا؟؟

نظرت إليه برهة ثمَّ قالت في أسفٍ مصطنع: آسفة يا حبيبي، لكني لم أعدُّ شيئًا.

- ماذا؟؟ أهذا عقاب لأنِّي خرجت مع أمي وتركتك..

- تصحيح أنا من رفض الخروج معك، كلُّ ما في الأمر أنه عندما حلَّ المساء ولم تعد، ولم تتصل ظننت أنَّك ستتناول العشاء هناك.

- كالعادة تفكرين و تقررين دون الرجوع إلي لمَ لمْ تتصلي وتسألي؟

- وأخاطر بأن أتَّهم أني أحاول التفريق بينكما..

- لا شيء يجدي معك، لا شيء يرضيك

قامت من مكانِها وقالت:

- سأجهِّز لك وجبةً سريعة.

وبعد مدة نادته إلى المائدة وعندما جلس استدارت عائدة إلى عرفتها فقال:

- ألن تأكلي؟

- لا أشعر بالجوع..

ودخلت غرفتها واستلقتْ على السرير فاصطدم بصرها بصورة لها ولطارق مع والديهما على المنضدة فأمسكت الصورة تضمُّها إليها. سالت دمعة من عينيها وهي تتذكر تلك الأيام السعيدة فقالت بحرقةٍ:

- من قال إن الزواج هو واحةُ الأمان؟

مسح ماهر دمعتها وهو يجلس إلى جوارها ويسألها:

- ما بك؟ ما الذي يبكيك؟

فتحت عيناها مندهشة فهي لم تشعر بدخوله وقالت:

- لا شيء.. فقط متعبة.

أمسك بيدها يجلسها وهو يقول:

- كلَّا .. تبدين تعيسة

قررت استعمال سلاح النساء الأقوى فأطلقت لدموعها العنان وهي تقول بوهن:

- ماهر أكره أن أكون على خلاف معكٍ فحياتي مظلمة من دونك

وتعالى صوت بكائها فتأثَّر بشدة وأخذ يمسح دموعها ويقول:

- لا تبكي يا حبيبتي، لا تبكي أرجوك فأنا أحبك ولا أحتمل رؤية دموعك.

قالت من بين دموعها:

- أحقًّا تحبني يا ماهر؟

ضمَّها إليه وهول يقول بعذوبةٍ:

- بالطبع أحبك، قد نختلف أحيانًا لكن لا تشكِّي أبدًا في حبِّي يا حبِّي الأبدي...

****

دخلت حنين غرفة المعيشة وقد تزينت وتعطَّرت وجلست بجوار حامد على ذات الأريكة بخلاف المعتاد وأخذت تتابع معه فيلم الأسبوع الذي يشاهده وأخذت تحدث نفسها "هيَّا يا حنين تشجعي، لن تذهبي إلى تلك الجنة إن ظللتِ خجلة هكذا" واستجمعت شجاعتها وتثاءبت في تكاسل وهي تقول:

- أشعر بتعبٍ شديدٍ.

نظر إليها وقال بلطفٍ:

- طبيعي فأنت تجهدين نفسك في العمل وفي المنزل

رفعت قدميها عن الأرض وتمددت واضعةً رأسها على فخذه فأحسَّت بجسده يتصلب للحظة ثمَّ استرخى فقالت دون أن تنظر إليه:

- متى تريد زينب زيارتي؟

- ظننت أنَّك لا تريدين ذلك..

نظرت إليه قائلة:

- يكفي أنَّك تريد ذلك...

قال والحيرة تملأ ملامحه:

- ما الذي تخططين له بهذا الأسلوب الناعم؟؟ وأي لعبة تديرينها الليلة؟؟

احتضنت يده بين كفيها وقالت وهي تبتسم بإغراء:

- ألا يمكن أن أتقرَّب من زوجي دون أن يكون في الأمر لعبة؟!

ظلَّ ينظر إليه والدهشة تعلو ملامحه فسألته:

- كيف تزوجتها؟؟

سأل بغباء:

- من؟؟

ردَّت وهي تضحك:

- زينب

- آه، كانت زوجة أخي وبعد شهرين من زواجهما توفي أخي بنوبة قلبية، فأصرَّ أبي رحمة الله أن أتزوجها ولاسيما وأنها حامل وحصل ما أراد.

وبينما هو يتحدث كانت تداعب أصابعه بلمسات مثيرة وقالت:

- هذا يعني أنك لم تلاحقها وتطلب ودها؟

- كلا.. احتفظت بهذا الشرف لك وحدك..

استوت جالسة وقالت:

- وهذا يشعرني بالفخر.

ظلَّ ينظر إليها مذهولًا غير مصدق فسألته مجدد:

- أتعلم، لا أعرف كم عدد أبنائك؟

هزَّ رأسه دون أن يجيب فقالت:

- ما بك؟؟

- أشعر أنني في حلمٍ، أخشى أنْ ألمسك فيتلاشى الحلم.

أمسكت بيده تضعها على خدِّها قائلة بابتسامة عذبة:

- والآن؟

أمسك وجهها بين يديه قائلًا:

- والآن أنت أروع أحلامي.

قبَّل أرنبة أنفها واغمض عينيه في سعادة فقالت:

- حدِّثني عن أبنائك.

- حسنًا تعرفين حسان ابني البكر وهنا ميرا التي هي ابنة أخي لكنني أبوها أيضًا ونادين وحنين.

ارتسمت نظرت متسائلة في عينيها فقال بسرعة:

- قبل أن تسألي، نعم سميتها حنين تيمنًا بك.

لا شعوريا ضمَّته إليها في فرحة غامرة وهي تقول:

- يا الله ما أروع هذا، لمَ لمْ تخبرني من قبل؟

- لم أظنُّ أنَّ الأمر قد يعني لك شيئًا.

- وكيف لا يعني لي؟!

ضمَّها إليه بحنانٍ دافقٍ شاعرًا بموجة من المشاعر تكاد تكتسحه فقالت وهي تبعده قليلًا:

- آه، نسيت أنَّك تنتظر عرض الفيلم طوال الأسبوع، لا بدَّ أنَّك تريد متابعته...

طبع قبلة شغوفة على شفتيها وقال:

- ابقي إلى جواري.

ابتسمت في سعادة وتمددت عائدة إلى وضعها السابق. وبعد لحظات أصبحت متأكدة أنَّ حامد لم ولن يفقه حرفًا مما يدور في الفيلم فقد كان كلُّ اهتمامه منصبًّا عليها فأصابعه تتخلل شعرها وتداعب عنقها وصدرها ثمَّ ألقي الراية فجأة وقال:

- بأيِّ ذهن سأشاهد الفيلم وأنت تسيطرين علي عقلي هكذا؟؟؟؟؟ .

عندها أدركت أنَّ ما قالتْه سارة عن نصف الحياة الأجمل حقيقي.

****

في إحدى الأيام وسارة في المكتب انطلق الرنينُ المميزُ لرقم هشام فاتَّسعت ابتسامتُها وهي تردُّ بمرح:

- أهلًا عزيزي.

لكن المتحدث لم يكن هشامًا بل رجلًا آخر بادرها قائلًا:

- آسف سيدتي، لقد اتَّصلتُ بآخر رقم اتَّصل به السيد هشام، هل هو زوجك؟؟

- نعم، إنه زوجي، أين هو؟ ولماذا هاتفه معك؟ هل فقده؟

بعد لحظةِ صمتٍ قال الرجل:

- يؤسفني يا سيدتي أنْ أخبرك أنَّ زوجك قد تعرض لحادثٍ وهو الآن في المستشفى.

هبَّت من مقعدها فزعة وهي تقول:

- ماذا؟ متى حدث هذا؟ وفي أي مستشفى هو؟

- إنَّه في المستشفى المركزي، وقد وصل قبل ساعة.

قالت بتوسّلٍ:

- أرجوك أخبرني هل هو بخير؟

- مازال الطبيب معه.

- سأكون عندك خلال دقائق.

وضعتِ الهاتف من يدها وهي ترتعشُ وصرخت تنادي سكرتيرتها وقالت:

- اتَّصلي بحنين وأخبريها أنِّي ذاهبةٌ إلى المستشفى، زوجي تعرَّض لحادث.

وقبل أن تردَّ الفتاة كانت قد انطلقت إلى الخارج كالسهمِ وشيءٌ واحدٌ يشغل تفكيرها "هل سيكون بخير"؟؟؟

وصلت إلى المشفى وأخذت وقتًا طويلًا في تعبئة الأوراق الرسمية وهي تحسُّ بقلبها كجذوة نار. وعندما وصلت إليه أخيرًا ورأته راقدًا في السرير وبعض الرضوض على وجهه اغرورقت عيناها بالدموع، كان نائمًا بسلام فسحبت كرسيًّا وجلست بجوار سريره تحتويه بنظراتها واحتضنت كفَّه بين يديها بحنانٍ ثمَّ لثمت راحة يده ووضعتها على خدِّها وقد ازدادت دموعها غزارة.

مرَّ أكثر من ساعة على وجودها عندما بدأ هشام يستعيد وعيه فمسحت آثار الدموع بسرعة وقالت بمرحٍ:

- مرحبًا بك في عالم الأحياء مجددًا

حاول التحرك فتأوَّه بقوة فأسرعت تضع له وسادة تحت رأسه وهي تقول:

- لا تحاول الحركة فأنت مصاب.

فتح عينيه ينظر إليها كتائهٍ وقال:

- أين أنا؟؟ ماذا حصل لي؟؟

بدا ضعيفًا بصورة مؤلمة فامتلأت عيناها بالدموع لكنَّها ابتسمت من بين الدموع وقالت:

- تعرضت لحادثٍ ألا تذكر؟

ظلَّ صامتا برهة ثمَّ قال:

- أذكر، ما مدى إصابتي؟، فالألمُ الذي أشعر به فظيع

أمسكت بيده مشجعة وقالت:

- كسر في الحوض والساق اليمنى، سأطلب الطبيب ليعطيك بعض المسكنات.

وهذا ما فعلته وبعد ثوانٍ، كان الطبيب يفحصه مجددًا للتأكد من عدم وجود أيِّ آثارٍ انعكاسية للحادث ثمَّ أمر الممرضة بإعطائه حقنةً مسكنةً وقال قبل أن يغادر: -

- سنجري لك عملية غدًا صباحًا لترميم عظام الساق، مرة أخرى حمدًا لله على السلامة...

وعندما خرجوا عادت تجلس جواره وتقول:

- كيف تشعر الآن؟؟

قال وهو يعضُّ نواجذه من الألم:

- أفضل قليلًا.

أخذت تمسِّد على رأسه بحنانٍ وتدعو له وعندما بدأت الحقنة تعطي مفعولها وخفَّ عنه الألم قال:

- هل خفتِ علي؟

اغرورقتْ عيناها بالدموع مجددًا وهي تقول:

- كدت أموت هلعًا عليك.

نظر إليها مندهشًا وقال:

- سارة ذات الدموع الحجرية تبكي من أجلى هذا يملئني فخرًا.

- أنت تسخر مني، لن أتحدث إليك.

- بالله عليك لا تصمتي فالحديث معك ينسني الألم، سأخبرك أمرًا وأرجو أن يكون موضعَ فخرٍ لك..

- ما هو؟؟

- كنت أفكّر فيك فلم أنتبه للطريق ولم أشعر إلا والسيارة تهوي في الحفرة..

- آه، لا تقل هذا، فهذا سيشعرني بالذنب كلَّما نظرت إليك

رفع يدها ولثمها برقَّةٍ وقال:

- بالعكس يجب أن تشعري بالفخر، أفكر فيك في كل مكان وزمان حتى أنني أضبط نفسي و انا أفكر فيك في صلاتي، إنَّ ما تفعلينه بي سحرٌ صرفٌ يا سارة...

اشتعل وجهها خجلًا وحبورًا فقالت مغيِّرة الموضوع:

- آه، نسيتُ أن أتّصل بالبيت، سأذهب وأتَّصل بهم وأعود فقد نفد شحن هاتفي.

وعندما عادت قالت:

- أنا متأكدة أنهم سيكونون هنا خلال دقائق.

- وما حاجتي إلى أحد وأنت معي؟

ضحكت سارة وقالت ممازحة:

- أنت متأكدٌ أن الحادث لم يؤثر على دماغك؟

بالفعل لم يمضِ نصفَ ساعة حتى اقتحم المكان كلُّ العائلة أبوه وأمها وشفيقة وزوجها ومها وزوجها وعبير التي رمت بنفسها على هشام فتأوه متألمًا وصرخت سارة لا شعوريًّا:

- هاا، انتبهي إنَّه مصاب..

لكن عبير كانت في حالة هستيريا من البكاء والنحيب ولم ترد عليها في حين قامت سارة عن كرسيها وأجلست عمها آدم و

ووقفت تراقب وبعد أن هدأت الأوضاع قليلًا فكَّرت سارة ربما سيجد هشام دموعها واهتمامها باهتًا مقارنة بعواطف عبير الجياشة. في حين قالت شفيقة وهي تنظر إلى الغرفة بغير رضا:

- يجب أن تنتقل إلى مستشفى أفضل وتحصل على خدمة أحسن

ردَّت سارة:

- سيحصل غدًا بعد العملية على غرفة خاصة وممرضة خاصة، ثمَّ إنّ هذه المستشفى فيها أفضل طبيب عظام في البلاد وهو من سيجري له العملية غدًا.

ضربت عبير على صدرها وبدأت تولول بمجرد ذكر العملية فقال هشام مهدئًا لها:

- لا تجزعي يا حبيبتي، إنَّها مجرد عملية وسأكون بخير.

بعد لحظات غطَّ هشام في النوم بتأثيرِ الأدوية فغادر الجميع بهدوء على أمل العودة صباحًا.

****

دخل ماهر المنزل بخفَّة متوقعًا أن تكون جوانا نائمةً لذا تفاجا عندما سمع صوتها وهي تقول:

- من الجيد أنَّك باكر بعض الشيء الليلة، فما زالت الساعة الحادية عشر وعادة لا تعود قبل الثانية أو الثالثة.

- أهلًا جوانا، لا تبالغي، لا أتأخر إلى هذا الحدِّ لكنك تنامين مبكرًا هذه الأيام

رفعت حاجبها دلالة عدم التصديق وقالت:

- حسنًا ليس هذا موضوعنا، أنا ذاهبة إلى منزلنا.

انتبه وقتها للحقائب المواظبة والموضوعة قرب المدخل فقال بغضب:

- ولا أظن لرأيي أهمية فكما أرى أنت جاهزة للرحيل، حتى أنك لم تضعيني في الحسبان.

زفرت في ضيق وقالت:

- كما أنَّك لم تضعني في الحسبان عندما تخرج من التاسعة صباحًا إلى الثانية أو الثالثة فجرًا متناسيًا أني في الشهر الأخير...

- مازال الوقت مبكرًا للولادة، ثمَّ إنني أذهب إلى العمل

- هذا صباحًا، ماذا عن المساء؟

- أكون عند أمي

- جيد، بر الوالدين واجب، ماذا عن الليل؟

- أخرج للترفيه عن نفسي مع الأصدقاء أم أنك تريدين حبسي؟

- من حقك الترفيه عن نفسك، ولكن ماذا عني أنا زوجتك؟ أين وقتي؟ أين نصيبي منك؟

ظلَّ صامتًا فأكملت:

- أرأيت من منا لم يضع الآخر في الحسبان؟! إنني حامل في الشهر الأخير وللمرة الأولى، ماذا لو فاجأني المخاض؟ ماذا سأفعل؟ كيف سأتصرف؟

- اتَّصلي بي وأكون هنا خلال دقائق.

- يا عزيزي هاتفك النقال مغلق باستمرار حتى بتُّ أتساءل عن جدوى وجوده معك، قل ألا ينتابك القلق وأنا هنا بمفردي...

- بلى، ولكن كيف سأبقى هنا بمفردي؟!

- هنا؟ يا عزيزي أنت لا تأتي إلى هنا إلا لتنام لذا من الأسلم أن أذهب إلى أمي لتعتني بي وأنت ابقَ عند أمك فأساسًا أنت تقضي نصف اليوم هناك وتعرف أنَّه مرحبٌ بك في منزلنا في أيِّ وقتٍ..

- حسنًا، إن كان هذا ما تريدينه.

اتَّجه إلى الحقائب وقال:

- سأضعها في السيارة الحقي بي.

ابتسمت له قائلة:

- ألن تودِّعني قبل الرحيل

وضع الحقائب من يديه وقال:

- آه، خلت أنَّك لن تطلبي ذلك.

****

عادت سارة مع العائلة إلى البيت الكبير تحت إصرار عمِّها حتى لا تكون بمفردها ومع ذلك بقيت جسد بلا روح فبالنسبة للجميع كان الأمر حادثًا ومرَّ بسلام وهشام في وضع مستقر فعادوا إلى حياتهم الطبيعية. فلم ترَ جدوى من بقاءها فهي وحيدة في كلِّ الأحوال أمها مشغولة مع مها وحتى عبير رغم الحالة التي كانت عليها في المشفى ها هي الآن تتحدث وتضحك وكأنَّها شخصٌ آخر وعمَّها بدا متعبًا فأصرَّت عليه ليذهب إلى الفراش ثمَّ عادت إلى شقَّتِها لتجد رسائل على المجيب الآلي من حنين وجوانا وسكرتيرتها يريدن معرفة ما حصل لزوجها والاطمئنان عليه فعاودت الاتصال بهن واقترحت حنين أن تأتي سارة للمبيت عندها فليس من المستحسن

بقاؤها بمفردها وهي تحت تأثير الصدمة لكنها أصرت على أنَّها ستكون بخير. اغتسلت وحاولت أن تنام لكن عبثًا فقد كانت تشعر بقبضةٍ مؤلمة تعتصر قلبها وكآبة تغلف روحها. حاولت أن تقرأ، أن تستمع إلى الموسيقى دونما جدوى. وعندما انطلق رنين الهاتف كادت تسقط هلعًا وأسرعت إليه ربما كان الاتِّصال من المشفى لكنَّها كانت مخطئة وكان المتصل طارق وبعد التحية قال:

- أخبرتني جوانا عن الحادث، آسف لما حصل، هل هو بخير؟؟

- الحمد لله، ستجرى له عملية غدًا صباحًا..

- وأنت، كيف حالك

ردَّت بفتور: بخير

- لكن لا تبدين كذلك.

- صدقني أنا بخير، ربما كان الإرهاق الشديد الذي مررت به اليوم هو سبب ما أشعر به أو ربما الصدمة..

- هيَّا يا سارة تعرفين أنك تستطيعين أن تثقي بي، ما الذي يضايقك؟

تنهدت بقوة وقالت:

- لا أدري ماذا أقول؟ لا أريد أن اضايقك

- الآن لا تريدين أن تضايقيني هل تذكرين عندما كنت توقظيني منتصف الليل لتخبريني عما يزعجك؟ هيَّا أخبريني.

- أشعر أنَّ القدر يقف لي بالمرصاد، كلَّما اقتربت من السعادة حال بيننا

- استغفري الله هذا كلام لا يجوز.

- ظلَّ أبي رحمه الله طوال فترة طفولتي مشغولًا بعمله وأبحاثه وعندما تقاعد وتقاربنا توفي عليه رحمة الله وقبلها في العمر الذي من المفترض أن أنعم فيه بحنان الأم تطلقت وتركتني، حتى انت عندما أحببتك وظننت أني نلت السعادة أخيرًا سمحت للفوارق العرقية أن تفرِّق بيننا والآن أنا وهشام ظللنا شهور لا نطيق النظر إلى بعض وعندما تقاربنا حصل

الحادث، لا يمكن أن تتصور كيف انخلع قلبي من مكانه عندما أخبروني عن الحادث، لا يمكن أن تتصور طول الدقائق التي استغرقتها للوصول للمشفى، وعندما رأيته متضعضعًا متألمًا خشيت أن أفقده، لم أستطع تصور حياتي من دونه؛ لأنَّ حياتي من دونه ستكون مظلمة.

وأجهشت بالبكاء، ظلَّ صامتًا حتى هدأت ثمَّ قال ممازحًا:

- هل بكيت هكذا يومًا من أجلي؟؟

- الأمر كان مختلفًا، لكني بكيت بسببك بكاء أكثر ألمًا من هذا، أنت دفعتني دفعًا لأكرهك وقبل أن أفيق من صدمة إذلالك لي كنت متزوجة، أمَّا هشام، يا الله لقد أصبح في غاية الطيبة معي حتى أنني بدأت أتعلق به.

أحسَّ مرة أخرى بذات الغيرة تعتصر قلبه وهو يقول متهكمًا: بدأت تتعلقين؟ لقد عبرتِ هذا الجسر يا عزيزتي، المهم كوني واثقة أن لا شيء في الحياة يحدث عبثًا وأن ما يحدث هو دائمًا الأفضل، فأنت مثلًا لن تكوني سارة القوية المكافحة لولا ما مررتِ به من ظروف قاهرة، وربما كان الحادث سببًا في

تقاربكما أكثر فقط كوني متفائلة وبالنسبة له سيكون بخير فهو قوي البنية وسيتحمل العملية فلا تخافي.

- هذا ما أرجوه.

- حسنا سأتركك الآن، حاولي أن تنامي فيجب أن تكوني في المستشفى من الصباح الباكر..

- شكرًا يا طارق لقد ساعدتني كثيرًا.

- يسرني أني كنتُ ذا فائدة.

****

مرَّ اليوم الثاني سريعًا أجرى هشام العملية وبعد خروجه طمأنهم الطبيب أنَّه بخير ولكنه سيبقى تحت تأثير المخدر هذه الليلة فغادروا على أمل العودة غدًا عندما يفيق وبعد عودة سارة إلى منزلها جاءت جوانا وأمها وحنين وحسّان الذي بدا لسارة كما توقعته طفلًا لطيفًا فأحبته على الفور وهو أيضًا أحبها بدوره وعندما همَّ الجميع بالمغادرة سألها في براءة:

- ألا تخافين أن تبقي بمفردك خالة سارة؟

- قليلًا، هل ستبقى معي إن كنت خائفة؟؟

وكأنه كان ينتظر هذه الدعوة فهتف بسعادةٍ:

- طبعًا، إن كانت ماما لا تمانع..

ضحكت جوانا وقالت ممازحة:

- لم نتفق على ممارسة سحرك على الأطفال يا سارة

- كفى مزاحًا، ما رأيك يا حنين؟؟

هزَّت كتفيها وقالت:

- لا أدري سأتحدث مع والده

وغابت لدقائق لتعود قائلة:

- حسنًا والدك لا يمانع، كن ولدًا مؤدبًا، هيَّا قبِّل ماما

قبَّلها وعانقها في حبورٍ بالعوالم الجديدة التي يكتشفها لأولِّ مرة.

****

- لا تشترِ بهذا السعر، المنطقة التي ذكرتها بعيدة جدًّا عن مركز المدينة وخالية من الخدمات، نعم، بالطبع يحاول خداعك، يمكنني أن آتي معك، صحيح، ربما نجد عروضًا أفضل، حسنًا إلى اللقاء.

قالت حنين لزوجها بعد أن أنهي المكالمة:

- لماذا لا تفتح مكتب عقار فكما يبدو خبرتك واسعة في هذا المجال.

- إنَّها خبرة بسيطة، ثمَّ إنَّ سوق العقار يشهد ركودًا منذ سنوات.

- كلُّ الدلائل تشيرُ إلى أنه سيعاود النشاط في الفترة المقبلة، فكّر في الأمر إنَّها الفكرة المناسبة في الوقت المناسب.

ابتسم لها وقال:

- لا أريد أن أفكّر سوى أنك في غاية الجمال وأحطّتِ باهتمامك وحدي.

- لكن لا أحد معنا في العادة سوى حسان

- ومن غيره يسرق اهتمامك طوال الوقت، كلْ يا صغيري، هل أضع لك من هذا أو من ذاك، هل تريد عصيرًا، ماذا تحب للتحلية، أمَّا أنا لا يهمُّ إن كنت أكلت أم لا؟؟

ضحكت في حرج قالت:

يداك أوكتا وفوك نفخ .. ثمَّ إنك تأكل جيدًا لا تظنَّ أني غير منتبهة

- ليست مسألة أكل، إنما اهتمام كلَّ هذا في كفة وعندما تناديه يا حبيبي في كفة أخرى أتمنى لو أنِّي أقوم وأخنقه.

فغرت فاها في دهشة فأمسك بيدها يلثمها ويقول:

- أريد أن أكون مهمًا في حياتك

رفع الملعقة إلى فمها وقال:

- تفضلي.

بعد ذلك كان هذا ألذُّ عشاءً تناولاه إلى الآن.

****

وضعت سارة كوبًا من الشوكولاتة الساخنة أمام حسّان قائلة: هيَّا اشرب بسرعة لنذهب إلى السرير فقد تأخر الوقت.

تذوق محتويات كوبه وقال وهو يلعق شفته العليا:

- لذيذ... وأنت ماذا تشربين؟

- مثلك.. قل لي هل أنت سعيد بالبقاء معي؟

- بالطبع؟؟ لعبنا كثيرًا وضحكنا ورويت لي حكايات طريفة كما أنني سعيدٌ لقرب العيد..

- العيد؟؟ بقي شهر ونصف على العيد.

- المهم أنه قريب، وسيكون مختلفًا هذ العيد.

- لماذا؟.. هل قررتم السفر إلى مكان ما؟؟

- كلا، ولكن هذا العيد ستكون لدي أمٌّ سنذهب معا للصلاة، وسنخرج لمعايدة الناس، وسنذهب معًا إلى منزل أسرتها، وسنذهب إلى مدينة الألعاب.

- هل تأتي أمك في العيد؟؟

- نعم، ولكني لا أقصد أمي هدى بل ماما حنين قالت إنها ستأخذني معها إلى كل مكان وسأجمع عيدية كبيرة.

- ماذا كنت تفعل في الأعياد الماضية؟

- بعد أن نعود من الصلاة تذهب خالة زينب وأخواتي إلى منزل أسرتها ونبقى أنا وأبي في المنزل وفي اليوم الثالث تأتي أمي وتحضر الكثير من الهدايا ونقضي معًا بعض الوقت ثمَّ تذهب.

- هل تحبها؟؟

- نعم ولكن أعلم أنِّي لا أشكّل أولوية لها كما يقول أبي.

- ربما كانت مضطرة لتركك..

- لا يهمُّ، المهم أنني هذا العيد لدي أم لن تتركني وتحبني كثيرًا وستحضر لي هدية رائعة.

- وأنت ماذا ستحضر لها؟

- لا أدري.. لم أفكر في هذا

- حسنًا سنفكر معا في هدية لأمك الجديدة وهذا سيكون سرنا، لا تخبرها حتى لا تفسد المفاجأة. هيا انهِ كوبك لتنام.

فكرت سارة لطالما شكَّل العيد مصدر قلق لها تفكر في هدايا لأمها وأخواتها وأبنائهم دون أن يفكر أحدهم في إهدائها ولو شيئًا رمزيًا. الوحيدان اللذان كانا يفكران بها في العيد عمها آدم وطارق فهل يا ترى سيفكِّر فيها هشام هذا العيد؟؟

****

أظهرت حنين رأسها من فتحة الباب وقالت: أطفئ ضوء الأباجورة يا حامد.

ابتسم لها وأطفأ الضوء دون سؤال فدخلت الحجرة وفي منتصف الطريق أضاء المصباح فصرخت:

- لا

وبركت على الأرض وهي تقول:

- كنت أعلم أنَّك ستفعل هذا بي..

قام حامد من السرير وأمسك بيديها يوقفها وينظر إلى ثوب النوم الذي كانت ترتديه وبالكاد يصل إلى منتصف الفخذ وصفر بإعجاب وقال:

- تحفة فنية ... بالله عليك اخرجي من الغرفة وعودي مجددًا ودعيني أمتع ناظري بجمالك الأخاذ..

فعلت كما أراد وعندما وصلت إليه ظلَّ يتأمل مبهورًا ثوبها وزينتها وشعرها الغجري. ثمَّ أمسك بيدها يضعها على موضع قلبه وقال:

- انظري ما تفعلينه بي يا حنين.

لم تر شيئًا لكن أحسَّت بقلبه ينبض بقوة تحت أصابعها فأغمضت عيناها في سعادة فأسند حامد جبهته إلى جبهتها وقال: يا الله كم أنت جميلة.. وفاتنة.

وغابا معًا في يمٍّ من السعادة الخالصة.

فيما بعد كانت حنين راقدة على كتف زوجها المسترخي في هدوء فقالت:

- حامد.

- نعم .. يا روح حامد.

- أنا حامل.

استوى قاعدًا بسرعة وقال في سعادة حقيقية:

- حقًّا، هل أنت متأكدة؟

أومأت برأسها دلالةَ الإيجاب، أمسك بوجهها وعانقها عناقًا طويلًا مملوءًا بالشغف وعندما تركها كانا يتنفَّسان بصعوبة فقال وهو يمرر إصبعه على شفتيها السفلى:

- هل تعلمين أنَّها المرة الأولى التي تتجاوبين فيها مع قبلتي.

- هذا ليس صحيحًا، أنا دائمًا أتجاوب.

- صحيح، أنتِ دائمًا تحاولين لكن هذه المرة أحسست بروحك تتفاعل معي

نظر إليها لبرهة ثمَّ تابع:

- هل أصبح الأمر مختلفًا؟ أم أن هرموناتك ناشطة بسبب الحمل؟

رأت في عينيه نظرة رجاء فتمنَّت من كلِّ قلبها أنْ تقول إن الأمر أصبح مختلفًا، لكن لم تستطع فقالت متهرِّبة:

- لم أظنُّ أنَّك ستفرح بحملي هكذا.

- ولمَ لا أفرح؟! فهذا سيوثِّق الرباط بيننا

- إنك تقليدي جدًا، هذه الأيام كثير من النساء يتخلين عن أطفالهن بكلِّ بساطة.

ضمَّها إلى صدره بحنان وهو يقول:

- كثيرات يفعْلن ذلك، ولكن ليس أنت فأنت امرأة دافئة القلب وعاطفة الأمومة لديك جياشة

وقبَّل رأسها وأكمل: وربما يعلمك حبُّ أبنائي أن تحبينني يومًا.

****

دخلت سارة المكتب وألقت بنفسها على المقعد المخملي خلف المكتب وقالت بتعب:

- يا إلهي خلت أنَّ هذا اليوم لن ينتهي.

وانتبهت إلى حنين المتمددة على الأريكة حين قالت:

- لمَ كلُّ هذا التضجر؟

- ما بك هل أنت متوعكة؟

- ليس بي شيءٌ، فقط شعرت ببعض الدوار فتمددت على الأريكة، ما الذي حدث معك؟

- السلفتان، كادتا تفقداني صوابي من فرط الغيرة والتنافس..

- وكيف تصرفتِ معهما؟؟

- أقنعت كلٌّ واحدة على حدى أنَّ شقتها ستكون الأكثر تميزًا والأروع على الإطلاق ولن يكون هناك أيُّ قاسمٍ مشترك بينهما، فاختارت إحداهن الطراز التركي والأخرى النمط الغربي.

- أخشى أن يبدِّلن رأيهن..

- هل ظننت أنني سأسمح بمثل هذا العبث؟ لم أتركهن إلا بعد توقيع العقود واستلمت شيكًا بقيمة 60% من مجمل العقد..

- أعلم أنك تستطيعين إقناع الحجر...

وأغمضت عينيها باسترخاء فقالت سارة:

- من الأفضل أن تعودي إلى المنزل ما دمتِ متعبةً، إنَّها آثار الحمل.

- يبدو أنَّ هذا هو الصواب وخصوصًا أن زينب ستزورني هذا المساء، أنا آسفة جدًّا ؛ لأني أتركك وسط الأعمال المتراكمة..

- لا داعي للأسف يا عزيزتي هذا جزء من الدين، ثمَّ إن العمل سيكون وسيلة مناسبة لشغلي عن التفكير..

- آه ... نسيت أن أسألك كيف حال زوجك؟؟

قالت بتجهم:

- إنه بخير لقد بدأ يستعيد عافيته، لن يستطيع السير قبل شهر على أقل تقديرًا

- لا تبدين سعيدة بهذه الأنباء

- آه.. ليس الأمر كذلك، إنما لا أستطيع الحصول على دقيقة معه بمفردنا أحسُّ أنني أنسلخ من عالمه حتى نظراته لم تعد تلك النظرات الدافئة الحنونة، أشعر أنَّ وجودي وعدمه سواء عنده، لقد كنا رائعين معًا قبل الحادث والآن كل شيء عاد إلى نقطة الصفر.

- كوني متفائلة، ربما هو تأثير الحادث وعندما يخرج ستعودان كما كنتما وأفضل، من ذا الذي يستطيع مقاومة سحرك؟؟

قالت برجاء: هل تعتقدين ذلك؟

ردت: بل أنا متأكدة

قامت من مكانها وأكملت:

- حسنًا سأغادر لأحصل على قسط من الراحة قبل أن أبدأ الاستعداد للزيارة التي أتمنى أن تمر بسلام.

- كوني في أبهى حلة.

ابتسمت حنين وقالت: أكيد وغادرت.

اندفعت تغرق نفسها في العمل في محاولة لتجاهل مخاوفها التي تتعاظم يومًا بعد يوم. لا تعلم كم مرَّ من الوقت عندما تعالى رنين الهاتف فالتقطت السماعة قائلة: منزل الأحلام للديكور والتأثيث مرحبًا.

- سارة "جوانا" في طور الوضع، وسنذهب إلى المستشفى وهي تريدك أن تكوني معها.

- سأكون عندك في دقائق، لا بل سأسبقكم إلى المستشفى يا خالتي..

وضعت الأمُّ السماعة واتَّجهت إلى حيث تجلس جوانا وتئن متوجعة وأخذت تمسد على رأسها بحنان فسألتها جوانا:

- هل استطعت الوصول إلى ماهر؟؟

- كلَّا يا بنيتي هاتفه مغلق، ولا أحد يرد على هاتف المنزل وليس موجودًا عند والدته.

داهمتها نوبة ألم جديدة فأمسكت يد أمها بقوة ثمَّ أخذت تتنفس أنفاسًا متقاطعة كما علَّمتها الطبيبة لتخفيف الألم فقالت الأم:

- ينبغي أن نذهب إلى المستشفى، لا يسعنا الانتظار أكثر وإلا قد تلدين في الطريق فقد أصبحت نوبات المخاض متتابعة.

- لكن يا أمي أريد ماهر معي.

تعالت مزامير السيارة فأمسكت بها أمها تساعدها على النهوض قائلة:

- أنت تريدين وأنا أريد والله يفعل ما يريد، هيَّا طارق ينتظرنا في...

وقبل أن تكمل كلامها دخل طارق وأسندها على كتفه بحنانه المعهود وساعدها حتى دخلت السيارة. وفي المستشفى كانت سارة قد سبقتهم إليها وبقيتا معها في غرفة الانتظار لم يكن يفعلن شيئًا سوى أن وجودهما شكَّل دعمًا معنويًّا لها فظلت سارة ممسكة بيدها في نوبات الألم وأمها تقرأ الآيات القرآنية عليها، أما هي فقد كانت تسأل بين كلِّ نوبة وأخرى:

- هل وصل ماهر؟

لكن الإجابة لم تتغير وظلَّ طارق يحاول الاتصال به في كلِّ الأماكن التي يحتمل تواجده فيها دونما جدوى وكمحاولة أخيرة اتصل بهاتفه النقال ليفاجئ به يرن فقال بمجرد أنْ فتح الخط..

- جوانا تلد ونحن في المستشفى حاول أن تصل بسرعة.

وأغلق الخط فهو يريد أن يطمئن على سلامة شقيقته ثمَّ لهذا المستهتر حسابه..

****

لم تبالغ حنين في تأنقها حتى لا تكسب عداوة زينب قبل مودتها. كانت زينب امرأة تقليدية لابدَّ أن تجدها في أيِّ مجتمعٍ نسائيٍّ ربَّة منزل اهتمامها الوحيد بيتها وكل ما يتعلق بشؤون المنزل هذا عدا ولعها الشديد ببناتها فهي كما يبدو لا ترفض لهنَ طلبًا، للحقيقة استفادت حنين الكثير من خبرتها في الطبخ وأصناف الحلويات الشرقية والغربية ومضى الوقت سريعًا في هذه الأحاديث. استغربت حنين أنها بدت غير مكترثة لزواج حامد، إما أنهما لا يكنَّان الكثير من المشاعر لبعضهما أو ربما أنها أريبة وأذكى من أن تظهر غيرتها أو ربما تعتقد أن الأمر مجرد نزوة وستنتهي لا محال.

حاولت حنين إبقاء الأجواء مريحة لولا إصرار ميرا على أخذ ساعة الرجل العنكبوت الخاصة بحسان وعندما رفض غافلته

وأخذت الساعة وأسرعت إلى أمها. لحق بها حسان يحاول استرداد ساعته لكنَّها ظلت متشبثة بها في عنادٍ فقالت زينب:

- إنها أختك الصغيرة، دعها تأخذها.

هزَّ الصبي رأسه رافضًا وقد بدأت الدموع تتجمع في مقلتيه فقالت:

- كنت تعطيهن كلَّ شيء فما الذي غيَّرك الآن؟؟

- لم أكن أعطيهن، أنتِ كنت تأخذين الأشياء مني وتعطيهن والآن أنا أريد ساعتي..

قالت ميرا: ماما عنده الكثير من الألعاب

وأردفت أختها:

- ورسمة جميلة جدًا على الجدار

نظرت إليه زينب وقالت:

- وتبخل عليها بساعة؟

ظلت حنين تتابع المشهد وقد تكوَّنت في ذهنها صورة عن الحياة التي كان يحياها معهن فقالت تخاطب ميرا:

- تعالي يا حبيبتي.

نظرت الطفلة إلى أمها بتردد فأومأت لها بالذهاب فذهبت قالت لها حنين:

- أرني الساعة.

فناولتها إياها نظرت إليها وقالت بتحبب:

- ساعة جميلة أليس كذلك؟

ردَّت الفتاة:

- إنها جميلة جدًا وأحبُّها كثيرًا

- وحسان أيضًا يراها جميلة ويحبها كثيرًا ولا سيَّما أنها هدية من أبيك.

كشرت الفتاة وقالت:

- لكنني أريدها.

نادت حسان الذي اقترب والخوف في عينيه وقال:

- إنها ساعتي ولا أريد أن أعطيها إياها دعيها تأخذ أي لعبة أخرى...

أحست أنه يريد أن يشعرهن بحريته واستقلاليته أكثر مما يريد الساعة فقربَّته منها ومسحت دمعة فرت من عينه وقالت لميرا:

- تعالي نعقد اتفاقا، سنعيد لحسَّان ساعته وسأشتري لك ساعة أجمل منها وعليها صورة سندريلا..

ظلت الفتاة صامتة فألبست حسان الساعة فانطلق راكضًا إلى غرفته وفرحة النصر على محياه وانفجرت ميرا باكية وأسرعت إلى حضن أمها التي تغيرت ملامحها حنقًا وغضبًا. بعدها تكهرب الجو

ولم يمرُّ سوى دقائق حتى اتصلت بحامد في حين واصلت حنين القيام بدور المضيفة حتى وصل حامد وعندما تأخَّر حامد في العودة أيقنت حنين أنَّ ثمة مصيبة قادمة.

****

خرجت جوانا من غرفة الولادة بعد أن وضعت طفلة رائعة تحمل تقاطيع وجهها المميز وظلت الطفلة تتناقل بين الأيادي، كلٌّ يريد أن يكون له السبق في حمل أول حفيدة للعائلة. بينما جوانا غارقة ن

يفي النوم تحت تأثير المخدر.. وأخيرا وصل ماهر فناولها لأمّه التي وصلت قبله في حين انتهزت الأم وجود سارة لتذهب وتحضر لابنتها وجبة ترمم به عظامها المتضعضعة.

قال طارق وهو يتنحى بماهر جانبا:

- هل تسمح أن تخبرني أين كنت منذ الصباح وهاتفك مغلق؟

استجمع ماهر كل ما لديه من شجاعة قائلًا بوقاحة:

- هذا ليس من شأنك

رفع طارق حاجبه مستنكرا قال بصرامة:

- عندما يكون الأمر متعلقًا بأختي فهو من شأني، لا أدري إلى متى تستمر في التصرفات الصبيانية..

- كنت في مهمةِ عمل.

- كاذب، لقد اتصلت بمقر عملك وعلمت أنك أخذت إجازة مرضية وملابسك لا تبدو أبدًا ملابس عمل.

- أنت تتجسس علي؟

- لطاما تمنيت أن يخيب ظني فيك وتكون أهلًا لرعاية أختي وتحمل مسؤوليتك، لكنك ترفض أن تخيَّب ظني وتصرُّ على البقاء في دور المراهق المدلل، ولن تسترجل أبدًا..

توترت الأجواء وماهر يردُّ بغضبٍ:

- أنت تتجاوز حدودك يا طارق.

استطرد طارق دون أن يعبأ بغضبه:

- من الجيد أنك تعلم أن للمرء حدود ينبغي ألا يتجاوزها.

- بالطبع أعلم

- لتعلم إذًن أنك تجاوزت حدَّك وأنَّ صبري قد نفد من تصرفاتك الرعناء فعد إلى وعيك وإلا فانا من سيقف لك إن تعرضت جوانا لأذى منك، وسأسحقك كحشرة بين أصابعي، ولا تظنُّ أنه تهديد أجوف أقسم أنني سأفعلها وأنت تعرفني جيدًا..

انكمش ماهر مثل هرٍّ خائف ولزم الصمت فقالت سارة وهي تبعد طارق عنه:

- اهدأ، الأمر لا يستحق.

- كيف لا يستحقَّ يا سارة؟؟ منذ جاءت إلى منزلنا من 10 أيام وهذا الحقير لم يأتِ سوى مرة واحدة، أي استهتار هذا؟؟ رأيتها بعينك طوال الوقت رغم ألمها تسأل عنه، بالله عليك إن لم يتواجد في لحظة مولد ابنتها فما جدوى وجوده؟؟

- حسنًا، حسنًا، لا تجعل ما حدث يفسد فرحتنا بأولِّ من ستمنحك لقب خالي

ابتسم رغمًا عنه وهو يقول:

- هذه أفضل ثمرة لهذا الزواج..

بعد لحظات بدأت جوانا تستفيق وأول ما قالته ماهر. فأسرع ماهر إليها وما استعادت وعيها تمامًا حتى سألت عن طفلتها التي لم تراها سوى ثوانٍ ضبابية فوضعتها سارة في حضنها شعرت جوانا بالفخر وهي تتأملها فقال ماهر:

- حمدًا لله على سلامتك يا حبيبتي..

استحالت ابتسامتها إلى برود وهي تنظر إليه دون أن تجيب، سألت سارة:

- أي اسم ستختارون لها؟

فأسرع ماهر يقول:

- راقية

أحسَّت جوانا بانقباضٍ مفاجئ لمجرد سماع الاسم دونما سبب فردَّت في حدة:

- كلَّا

قال طارق:

ولماذا؟ إنَّه اسم جميل

قالت وهي تتحاشى النظر إليهما:

لأني وعدت سارة أن أسمي أول ابنة لي باسمها..

أدركت سارة أنَّها تكذب لسبب ما لكنها أسرعت تجاريها قائلة:

- آه، ما أروع هذا لم أظنُّ يومًا أنَّك ستفين بهذا الوعد أنا ممتنةٌ جدًّا

قالت جوانا وهي تنظر إلى ماهر:

إنك تستحقين أن يوفى لك فأنت دائمًا موجودة.

تبادل طارق وسارة النظرات وكأنه يقول ألم أقل لك إنه جرحٌ لن يندمل بسهولة

****

- ماما هل أنت غاضبةٌ مني؟؟ قالها حسان.

- ولماذا يا حبيبي؟

- بسبب ما حدث بيني وبين ميرا.

- بالعكس يا صغيري لقد سرَّني أنَّك لم تخف ولم تترك ساعتك لها، قد لا تكون غالية القيمة ومع ذلك من الواجب أن تحافظ على ما هو حقٌّ لك، لا أريد أن تعتدي فقط حافظ على حقك

- لكن أبي قد يكون غاضبًا.

- عندما يأتي أبوك الزم غرفتك وأنا سأتعامل معه.

سمعا صوت مفتاح يلجُّ في الباب فقالت:

- اذهب إلى غرفتك.

أسرع بتنفيذ ما قالته وقبل أن تقوم من مكانها لاستقباله دخل الغرفة وهو يشتطُّ غضبًا وقال مباشرة:

- كان يجب أن أعرف أنَّ الذئاب لا تعوي عبثًا، إذًا هذا هو هدفك من قبول زيارتها لتذليها وتحتقريها.

أدركت أنَّ المنطق لا يجدي معه وهو في هذه الحالة فشنت هي الأخرى هجومًا مباشرًا ورفعت رأسها وقالت في نبرةٍ حادَّةٍ:

- يا للروعة هذا أولُ الغيث، من أولِ زيارةٍ بدأت المشاكل كنت لا أريد هذه الزيارة ولكن قبلت بها إرضاءً لك قبلت بها ورحبت بها وأحسنت ضيافتها ولكن وها هو كلُّ ما فعلته يرتدُّ إلي بالسوء، وها أنت تدخل عليَّ وترعد وتزبد دون حتى أن أعرف ماذا فعلت؟؟

- قالت إنَّك تعمدت إذلالها والانتقام لحسَّان من بناتها.

- ولا داعي لتسألني، ربما كانت تكذب، ربما المسألة غيرة نساء، كان يجب أن أعرف أنها هي من ستصدَّق فهي القديمة وأم بناتك، أمَّا أنا لا شيء..

لانت لهجته وهو يقول:

تعلمين جيدًّا مقدار ما تعنين لي، لكنَّها كانت في حالة سيئة وميرا تبكي..

- هل قالت إني أسأت إليها شخصيًّا؟ هل قالت إني قللت من احترامي لها؟

- أبدًا، فقط نصرت حسّان على البنات..

- وطبعا حسان لا يستحق أن ينصر على بناتها ذوات الدم الأزرق. مع احترامي لها هؤلاء البنات سيعانين أشد المعاناة عندما يخرجن للحياة ويدركن أنَّ الطريق ليس مفروشًا بالورد دائمًا..

- إنهن بناتها وهي حرة في تدللهن كما تشاء..

- وحسَّان ابني ولن أسمح لأحد بالجور عليه بعد الآن..

- إنَّه ولد، وهن فتيات

- وهل سيغير هذا شيئًا؟ إنه ولد ولديه مشاعر والأهمُّ أنه عاش طفولة مريرة.. مسلوب الإرادة، مقهورًا

- إنك تقسِّين الولد على أخواته

- كلّ ما أريده أن ينشأ ابني قويَّ الشخصية سليم النفس، صلب الإرادة، يعرف كيف يحافظ على حقوقه، صدقني يا حامد إن ما تفعلونه ليس فقط سيقسِّي الصبي على أخواته بل سيكرههنَّ ويحقد عليهن وغدًا عندما تكون له السلطة عليهن سيسحقهن بلا رحمة لأنِّه لم يعرف يوما معنى العدل والإخاء والمحبة فيما بينهم، أنت والدهم ويحب أن تعدلَ دون محاباةٍ لولد أو بنت..

وعندما رأته ينظر إليها بطريقة غريبة والابتسامة على محياه أردفت:

- وانتهت الموعظة

اتَّسعت ابتسامته وقال:

- كلُّ يوم أزداد سعادة لإصراري على الارتباط بك فعلى الأقل أضمن لأبنائي أمًّا قويةً، محبَّة، فاضلة..

قالت بدلال:

- أهذا فقط ما تراه فيَّ؟

أمسك بيديها وقال وفي عينيه شيء بالغ الرقة:

- أرى زوجةً جميلةً، حنونةً، ومثيرة

- ذكِّرني هل جاء أحدهم بحثًا عن المشاكل..

- ليس في مواجهةِ هاتين العينين..

****

وصلت سارة إلى غرفة هشام في المستشفى فوجدت الجميع هناك وعبير تجمع أغراض هشام وهو يستعدُّ بمساعدة الممرض الخاص للمغادرة فسألت مستغربة:

- ما الذي يحدث؟ هل ستغادر المستشفى؟

أومأ هشام برأسه فقالت:

- ما زلت في طور النقاهة ويجب أن تبقى تحت الرعاية

- ما الذي يفعلونه لي سوى قياس الضغط والحرارة، لقد سئمت وسأغادر..

- حسنًا، لا داعي للانفعال، هل تحدثت مع الطبيب؟؟

- نعم أخبرته أنني سأغادر على مسؤوليتي الخاصة..

سألتْه شفيقة وهي تنظر إلى سارة بمكر:

- وإلى أين ستذهب؟ أقصد إلى منزل عبير أم سارة؟

ردَّ وهو يتحاشى النظر إلى سارة:

- لقد طلبت من عبير أن تجهز لي غرفة نوم الضيوف في الطابق السفلي.

اضطرت سارة لامتلاك قوة بطولية كي لا تظهر الصدمة على وجهها في حين ابتسمت عبير في زهو. فقالت بعد لحظات:

- حسنا، سأغادر فلدي الكثير من الأعمال رافقتك السلامة يا هشام

غادرت وعبير وشفيقة يشيعانها بنظرات التشفي الواضحة...

وصلت إلى المكتب وهي تكاد تتميز غيظًا فبادرتْها حنين حين رأت ملامحها المتجهمة:

- ما بك؟ هل زوجك بخير؟

صرخت بغلٍّ:

- لا تذكري هذا الحقير أمامي

- يا إلهي... هذا الحقير؟! ما الذي حصل؟؟

سردت ما حدث وختمت حديثها قائلة:

- صدِّقيني لم أكن أمانع لو أخبرني، لكنَّه لم يضعني في الاعتبار، فما أنا سوى زوجة ثانية لأوقات المرح واللهو أم وقت الجد أنا لا شيء...

- آه، يا سارة لا تنسي أنَّه مريض، ربما كان هذا سبب تصرفاته الهوجاء، وربما له أسبابه التي لا تعلمينها

- ولو، لا شيء سيشفع له هذه المرة، لقد أهانني وشمَّت بي الأعداء أخ لو رأيتِ نظراتهن، لن أسامحه حتى لو جاءني زاحفًا.

- اهدئي يا سارة، ألا ترين أنَّك تبالغين؟!!!

- أكاد أموت قهرا، لذا من الأفضل أن أذهب لأرى أين وصل العمل في الشقتين ثمَّ أعرج على المقهى الذي وقعنا عقده البارحة لإعادة ديكوره وتأثيثه.

- حسنًا، وأنا سأرجع الميزانية وأبدأ في طلب المواد الأوليَّة وسنناقش التصورات وخط العمل غدًا.

عندما عادت من جولتها كانت حنين قد غادرت تاركة لها ملاحظة بالخط العريض

"اتَّصل زوجك أكثر من عشر مرات، يبدو أنه لن ينام إن لم تحدثيه، اتصلي به"

ارتسمت الابتسامة على وجهها وقبل أن تفكر هل ستتصل به أم لا تعالى رنين هاتف المكتب فرفعت السماعة وعندما سمعت صوته أحسَّت بروحها تحيا من جديد وبعد التحية و السلام قال لها باختصار:

- أريد أن أراكِ غدًا صباحًا قبل أن تذهبي إلى العمل.

عادت الهواجس من جديد فظلَّت صامتة فقال بهمسٍ ناعم:

- أرجوك يا عزيزتي.

ردَّت لا شعوريًّا:

- حاضر سأكون عندك في التاسعة

- حسنًا، إلى اللقاء.

عندما وضعت السماعة أراحت رأسها على مسند الكرسي وهي تفكِّر رغم الرجاء الواضح في صوته ربما طلبها لينهي زواجهما فأبوه لن يتخاصم معه وهو في هذه الحالة..

****

بمجرد وصول حنين إلى البيت صنعت لحسان طعامه واستلقت على السرير شاعرة بالإعياء، تعالت طرقات على الباب ففتحت عيناها قائلة:

- تعال يا عزيزي.. ما بك؟

نظر إليها وعلى وجهه أمارات القلق قائلًا:

- هل أنت مريضة؟؟

- لا، لست كذلك، ما الذي أوحى إليك بذلك؟

- لا أدري لكنك متعبة دائمًا، وأبي يوليك عناية شديدة.

استوت جالسة ثمَّ قالت:

- تعال

اقترب منها فأجلسته جوارها وأخذت تمسِّد على شعره بحنان قائلة:

- أنت قلقٌ لأجلي؟

أومأ برأسه بالإيجاب فضمَّته إليها وقالت:

- أنت هبة لي من السماء

ثمَّ أمسكت بوجهه بين يديها واستطردت:

- أنا متعبة لأنني حاملٌ

جمدت ملامحه فقالت:

- ألست سعيدًا

رد بفتورٍ:

- بلى

- وماذا تريد أخًا أو أختًا؟؟

- أظنُّ أنني أريد أخًا

قام واستدار ليغادر لكنَّه وقف وقال دون أن يلتفت: هل ستحبنني كما ستحبينه؟ وضعت يدها على كتفه وأدارته إليها وقالت:

- بل سأحبُّه هو كما أحبك أنت فأنت ابني الأول وسندي وسنكون نحن الاثنان في حاجة لمساعدتك..

انفرجت أسارير الصبي وقال بسعادة: حقًّا؟!

****

قبل أن تنام قررت سارة أن تذهب إلى هشام دون زينة لتبدو غير مهتمة ولكن في الصباح بعد أن انتهت من زينتها بدت متألقة مشرقة بالغة الأنوثة والإغراء. وعندما وصلت لم تتوانَ عبير لحظة عن إظهار أنها غير مرحب بها وقادتها إلى حجرة هشام الذي طلب من عبير أن تغادر فتجهَّم وجهها وغادرت الحجرة وهي تتمتم بكلمات غير مفهومة.

قالت سارة وهي تتأمل الحجرة:

- حجرة جميلة.

فقال هشام:

- تفضلي بالجلوس

ردَّت بتحفِّظٍ:

أنا مرتاحة هكذا، لماذا أردت رؤيتي؟

- لن أقول كلمة واحدة قبل أن تجلسي، بالطبع يمكنك الإصرار على البقاء واقفة، لكن يجب أن تعلمي أنَّ ذلك مصدر سعادة لي فأنت بهجة للعين اليوم، هل تعلمين كنت دائمًا أؤمن أن جمال المرأة يبهت مع الوقت إلا أنت كل يوم تزدادين جمالًا.

احمَّر وجهها من الإطراء فجلست على الكرسي المواجه له وقالت:

- أنت لم تطلبني لتخبرني بهذا فقط؟؟

ابتسم بمكرٍ وهو يقول:

- أريدك هنا على السرير بجانبي..

جلست حيث أشار فصارا وجهًا لوجه فأمسك بيدها وقبَّل راحتها بحرارة وقال:

- افتقدتك يا ساحرتي.

سحبت يدها وقالت:

- يبدو ذلك واضحًا جدًّا.

- أعلم أنك غاضبة رأيت ذلك في عينيك البارحة لأنني أتيت إلى هنا..

- آه .. ليس هذا هو السبب يا هشام أنا....

- انتظري حتى تسمعي أسبابي، أولًا:

- لوجود هذه الغرفة في الدور السفلي فحالتي لا تسمح بصعود السلالم

- هناك اختراع اسمه مصعد..

- هنا إذا شعرت بالملل يمكنني الخروج إلى الحديقة دون معاناة، ثمَّ إن البيت الكبير قريب من هنا فلا يتعب أبي كلَّما أراد زيارتي.

- لم أفكر في هذا.

- والأهمُّ من هذا، إنَّ عبير لو لم أكن موجودًا لن تبقى في المنزل يومين متتاليين راكضة وراء كلِّ المناسبات الاجتماعية من حفلات وسهرات والمنتديات تاركة الأطفال وحدهم..

- أنت تبالغ..

- وانت لا تعرفينها، ثمَّ إنَّك امرأة عاملة وأعرف جيدًا مبلغ طموحك وأعرف أيضًا أنكم غارقون في الأعمال لقرب العيد، ولن أسمح لنفسي أنْ أكون حجر عثرة في طريق نجاحك لأنني إن بقيت عندك أريدك إلى جانبي دائمًا..

- من الجيد أنَّك فكرت في كلِّ شيء لكن ليس هذا ما أغضبني، ما أغضبني أنك لم تخبرني.. لم تضعني في الصورة..

ربَّت على خدِّها وقال:

- ألا تذكرين كيف كان الوضع في المستشفى؟ الزائرون زرافات ووحدان، يا الله كم تمنيت دقيقة معك على انفراد.

نظرت إليه بحب وقالت:

- وأنا أيضًا، كلُّ يومٍ أعود من المستشفى محملة بالإحباط والحنق..

تعالت طرقات على الباب فأرادت سارة القيام من مكانها على السرير لكنَّ هشام ثبتها بيده وهو يقول:

- ابقي حيث أنت.

ثمَّ قال للطارق:

- ادخل.

دخلت الخادمة حاملة صينية القهوة والحلوى فقال هشام:

- اتركي الصينية على الطاولة ستصب سارة القهوة.

خرجت الخادمة على شفتيها ابتسامةُ خبثٍ. قال هشام وهي تقدم له القهوة:

- أعرف أننا بدأنا بداية سيئة، لذا عندي فكرة ستروق لك.

سألت بفضول:

- ما هي؟

- لن أقول حتى تقبِّليني

ضحكت قائلة:

- ما هذا الابتزاز؟؟

- إنَّه أحلى أنواع الابتزاز

- ماذا لو دخلت عبير؟

- وماذا في ذلك؟ أنت زوجتي، وهذا بيتي.

- هشام دعك من هذه الأمور الصبيانية

- الصبيانية؟ أراهن أنَّك مشتاقة لعناقي بمقدار شوقي لك.

ضحكت بخجل وقالت:

- هراء

- حسنًا دعي جسدك يخبرني بذلك..

كانت لا تزال تصحك وهو يقربها إليه حتى التصقت به بعدها لم يعد بإمكانها إنكار شوقها له وهي تذوق مجددًا طعم قبلاته اللذيذة الدافئة. بعد لحظات قال وهو يحاول السيطرة على نفسه:

- دعينا نتوقف قبل أن تخرج الأمور عن السيطرة، قليلٌ منك أعاد إليَّ الحياة.

حاولت الاعتدال في جلستها لكنَّه أبقاها على صدره وقال:

- ما رأيك لو نعيش فترة خطوبة، فنحن لم تكن لنا فترة خطوبة.

اعتدلت في جلستها وقالت مبهورة:

- فترة خطوبة؟! هل أنت مجنون؟!

- ألا تشعرين أحيانًا برغبة في فعل أشياء جنونية

- بلى

- إذًا دعينا نفعلها، نتحدث في الهاتف ليلًا، نتبادل الرسائل الغرامية، أهديك الورد والشوكولا، فقط تأتين للزيارة بدلًا من أن آتي أنا ما رأيك ؟؟ هل راقت لك الفكرة؟؟؟

طوَّقت عنقه بذراعيها وضمَّته إليها في سعادة قائلة:

- فكرة رائعة وفي غاية الرومانسية.

قبَّل خدها وقال:

- حتى تعلمي أنك لا تغيبين عن فكري ولو لثانية...

دخلت عبير دون أن تطرق الباب فتجمَّدت في مكانها عندما رأتهما متقاربين بهذه الصورة فاعتدلت سارة لكنَّها بقيت على السرير. فقالت عبير بغيظٍ: آسفة إن كنت قاطعت شيئًا.

ابتسمت سارة لها في خبث وقالت:

- أبدًا كنت على وشك المغادرة فقد تأخرت على عملي

وطبعت قبلة على خدِّ هشام ونزلت من السرير فقال مبتسمًا:

- الاتفاق ساري المفعول منذ هذه اللحظة.

- بالتأكيد.. إلى اللقاء.. وخرجت.

قالت عبير مهاجمة هشام:

- ماذا كانت تفعل هذه هنا؟

استرخى هشام وقال بلا مبالاة:

- أنا طلبت منها المجيء

- اسمع يا هشام لا أريدها أن تدخل بيتي..

- حقًّا؟؟ لكنَّها ستدخل طالما أنا هنا

- انا أحذِّرك، وإلا سأطردها.

نظر إليها متوعدًا:

- يمكنك أن تحاولي عندها سأغادر إلى منزلها ويُسلب منك هذا النصر الذي تزهي به

- ماذا؟ تحابي تلك العجوز الشمطاء علي..

- عبير ألا تعلمين أنِّي مريض ويحب أن أرتاح؟

- طبعًا يجب أن ترتاح بعد ما فعلته معها..

- أيتها الحمقاء، الكرة في ملعبك، ألا يعني ذلك شيء لك؟

****

بعد مرور أسبوع على ولادة جوانا أقامت الأسرتان احتفالًا بأولِّ حفيدة لهما ولم يبق أحد له صلة بالأسرتين إلا وكان مدعوًّا.

كانت شقيقات ماهر في غاية السعادة بالطفلة وكذلك والدته التي أهدت الصغيرة أساور صغيرة في غاية الروعة وانهالت الهدايا من الجميع وأحضرت حنين حسَّان معها وكان مبهورا بالأجواء فهذه المرة الأولى التي يحضر فيها حفل "أسبوع" قالت سارة لصديقتيها:

- لا أدري إن كنتن لاحظتن ذلك، للمرة الأولى منذ زواجنا يتَّفق أنْ نكون نحن الثلاثة سعيدات.

ردت حنين:

- هذا صحيح، دائمًا تكون هناك واحدة تعيسة بيننا..

ابتسمت جوانا متسائلة:

- ما أخبار فترة الخطوبة؟

تنهَّدت في سعادة وقالت:

- يا إلهي إلى الآن، لا أصدِّق أنَّ هذا يحصل لي، حلم خرافي يتحقق، اه لو تسمعين صوته العذب وهمساته الناعمة وأحاديثه الشيِّقة، كأنني مراهقة من جديد..

أردفت حنين:

- حتى في المكتب لم يعد مكان للعمل كل ساعة وأخرى يتصل.

سارة:

- أنت تبالغين

حنين:

- حسنًا كلَّ ساعتين، اه لو رأيتِ باقات الورد التي يرسلها كلَّ صباح، أو علب الشكولاتة من أفخم المحلات، أقسم أنَّه عاشقٌ حتى النخاع..

سارة:

- أحيانًا أخشى أنْ أصدِّق أنَّه حقيقةٌ فربما هو يتسلَّى بي خلال مرضه.

حنين:

- دعي عنك أفكارك التشاؤمية وعيشي الحبَّ من جديد..

قالت جوانا ممازحة:

- كلُّ هذا بفضل أخي هو من علمك كيف يكون الحبَّ.

تلاشت ابتسامةُ سارة قبل أن تقول:

- بالطبع علَّمني، لكنَّه علَّمني أيضًا أنَّ الحب هراء فلا أبني أحلامي وسعادتي على هذا الهراء، علَّمني أن قلوب

الآخرين خواء لا يمكن الاعتماد عليها، يا عزيزتي حب أخيك، كان حبًّا بأنصاف حقوق، أنصاف حلول، حبُّ أخيك كان وسيلةً وليس غاية، أمَّا حبُّ هشام رغم أنَّه لم يقله بعد إلا أنَّه حقيقي لأنه يريد حبِّي ويسعى لنيلِ قلبي رغم امتلاكه لي.

قالت حنين بسرعة مغيرة الموضوع:

- بالأمس أهداني حامد سوارًا ذهبيًّا بمناسبة حملي..

ردَّت سارة:

- رائع، بصراحة الرجل أظهر معدنًا طيبًا، ويبدو أنَّ ثمة الكثير بين أذنيه

حنين:

- في الحقيقة لقد حطَّم الصورة التي وضعتها عنه كجاهل أحمق، صحيح أنَّه لا يهديني الورد، ولن يأخذني إلى حفلٍ موسيقي، لن يتغزل فيَّ ويروي في القصائد، ولن يناقش معي الشعر والمواضيع التي أحبُّها، رغم ذلك كل يوم يزداد سقف تطلعاتي معه.

جوانا:

- هل تعلمين يا حنين لا دخل للتعليم في كلِّ الأمور التي ذكرتها في التعليم،

إنَّ ماهر لم ينشد يوم قصيدة لم يتغزل فيَّ أبدًا إلَّا إذا كان راغبًا في الكعكة وهو متخرجٌ من إحدى أعرق الجامعات...

سارة:

- ثمَّ ألم تلاحظي أنَّه لا يملك عجرفة الجاهلين وأنَّه يستمع لكلَّما تقولينه دونما تكبر، باختصار حصلتِ على زوجٍ محبٍّ ولا مراء في ذلك.

جوانا:

- منذ خروجي من المستشفى وماهر يكاد يشعل أصابعه العشرة إرضاءً لي.

فكَّرت سارة لابد أنَّ تهديدات طارق قد أتت أؤكلها و.....

قطع حديثهن دخول مجموعة من صديقات جوانا مما جعلهن ينتقلن من الأحاديث الخاصة إلى العامة. وفي نهاية الحفل أصرَّت والدة جوانا على ألا ترفع حنين قشة بعد أن علمت بحملها فاتَّصلت بحامد وغادرت مما أوقع سارة في حيرة فقد خططت للعودة معها ولكن ما زال هناك الكثير من العمل بعد خروج الضيوف رغم وجود الخدم. وبعد انتهاء العمل سألتها والدة جوانا أن تبقى عندهم الليلة لكنَّها أجابت بلطفٍ: لا أستطيع يا خالتي، لم أخبر هشام.

- هل سيأتي السائق لأخذك..

- لا سأطلب سيارة أجرة.

- هذه إهانة فبعد كل التعب الذي تعبته معنا نرسلك إلى منزلك في سيارة أجرة، ها هو طارق سيوصل أختي وبناتها وسيوصلك معهن، هيَّا ها هم يغادرون.

كانت متأكدة أنَّ طارق سيحاول الانفراد بها. وهذا ما حصل فقد أوصل خالته أولًا ثمَّ أوقف السيارة في منطقة شبة مهجورة والتفت إليها يسألها بجدية:

- لماذا لا تردين على مكالماتي؟؟

- لأنك تتصل في الوقت الذي أتحدث فيه مع زوجي

- طوال الليل وكل يوم؟؟

- نعم

- فيما تتحدثان كلَّ هذا الوقت؟؟

- ليس هذا من شأنك؟؟

فغر فاه مندهشًا قبل أن يقول:

- الآن أصبح ليس من شأني؟؟ الآن أصبح هو الحبيب؟؟

- نعم، الآن هو الحبيب، الآن هو الحقيقة وأنت الوهم.

ابتسم في خبث:

- أراهن أنَّك تحبينني أنا وليس هو..

- يا للغرور، لكنَّك نبذتني ولم أعد أحبك أو حتى أريد حبك

اقترب منها قائلًا: يمكنني أن أثبت عكس ذلك

اتَّسعت عيناها في ذعرٍ وهي تدرك مغزى عبارته فصرخت في حدة:

- اياك أن تفكر في هذه القذارة.

ضاقت عيناه وقال:

- لقد تغيَّرتِ كثيرًا يا سارة.

- طارق إذا لم تكن تريدني ألا أكلمك أبدًا فأوصلني البيت ودعنا نظل أصدقاء...

أمسك بيدها قائلا:

- وهذا ما أريده أن نظلَّ أصدقاء كما كنا من قبل.

سحبت يدها من يده وصرخت بحدة تداري خوفها:

- الصداقة شيء والقذارة التي تفكر فيها شيء آخر، أرجوك يا طارق.

ظلَّ ينظر إليها للحظات ثمَّ تحرك بالسيارة فتنفست الصعداء وعندما وصلت نزلت دون أن تنبس ببنت شفه وبينما هي تفتح الباب تعالى رنين الهاتف فأسرعت تدخل وتجيب بلهفة:

- أهلًا حبيبي

- أهلًا حبيبتي، كيف كانت حفلتك؟؟

- في غاية الروعة، لقد وصلت للتو، لماذا لم تنم؟ لقد تأخر الوقت.

- أردت الاطمئنان عليك أولًا.

- ما أروع هذا..

- في صوتك شيء، هل أنت متكدرة؟

- كلَّا فقط متعبة بالكاد أقوى على الوقوف.

قال باهتمامٍ بالغ:

- إذًا خذي حمَّامًا سريعًا واخلدي إلى النوم

- آه، أنت لم تنتظر كلَّ هذه الساعات لأخلد إلى النوم بهذه السرعة..

- أمامنا العمر كله لنعيشه معًا ونقضي أجمل الساعات، ثمَّ كيف أستمتع بالحديث وأنا أعلم أنَّك متعبة، تعلمين لو كنتِ في بيتنا لحضَّرت لك شرابًا دافئًا ريثما تستحمين وأدخلتك السرير بنفسي وضممتك إلى صدري لتنامي بهناء.

- يا للروعة، إنَّك تتفوق على نفسك في الرومانسية كلَّ يوم، بصراحة لا أعرف ماذا أقول.

- لا تقولي شيئًا، فقط اذهبي إلى السرير.

اتسعت ابتسامتها وقالت:

- سأذهب وستكون معي في أحلامي.

****

"كل عام وأنت حبيبتي"

قالها ماهر وهو يطبع قبلةً على خدِّ جوانا التي ردَّت قائلة:

- وأنت حبيبي وحبُّنا باقٍ ينير حياتنا يا حبي..

- كم تمنيت لو كنت موجودة معي اليوم في اجتماع العائلة لإفطار العيد

- هناك أعياد كثيرة تنتظرنا..

قال بتذمرٍ:

- لكنَّه أولَ عيد لنا بعد الزواج..

ابتسمت له بتحببٍ وقالت:

- ربَّما لو أخذت الأمر برؤية لربما كان الوضع مختلفًا

- ها.. هل أنا الملام وحدي

- بالطبع فما أنا إلا ضحية واقعة تحت سحر عنفوانك..

اتَّسعت ابتسامته تحت تأثير الإطراء وقبَّلها قبلة قصيرة ثمَّ قال:

- دعيني آخذ سارة معي

- ماذا؟ لا بدَّ أنَّك تمزح

- بل أنا جاد، ستعتني أمي وأخواتي بها

- مع احترامي للجميع في يوم العيد بالذات لن يكون أحد متفرِّغًا لها، وسارة مجرد لحمة حمراء لن يطاوعني قلبي على تركِها لحظة مع غيري

- لكنك تتركينها مع أمك

أحسَّت أن الأمر سيتحول إلى شجار فقالت بلطفٍ:

حسنا ما رأيك أن تأتي مساء ونأخذ سارة لجدتها وعمَّاتها ثمَّ نخرج نحن للعشاء.

فكر قليلًا ثمَّ قال:

- فكرة جيدة، سأكون هنا في الثامنة.

****

وصلت سارة إلى منزل هشام بعد لحظات من خروج عبير والأطفال واتَّجهت إلى غرفة هشام ووجدته مستندٍا على عكازين أمام النافذة يتأمَّل المساحة الخضراء أمامه فأحاطت خصره بذراعيها وهي تقول:

- كل عام وأنت بخير

استدار إليها مستندًا على طرف النافذة وهو يقول:

- أهلًا سارة، بل كلُّ عام وأنت حبيبتي

افتر ثغرها عن ابتسامة مشرقة فقال هشام وهو يتأملها:

- أنيقة أنت اليوم يا سيدتي الجميلة، ولكن متى لم تكوني كذلك؟

تسللت الحمرة إلى وجهها فقالت:

- توقَّف، أنت تخجلني.

- من ذا الذي يستطيع التوقف عن إطراءك يا ساحرتي الجميلة

- توقف والا ساذهب

- حسنا سأتوقف، ساعدني للعودة إلى السرير..

اقتربت منها واستند عليها حتى وصل إلى السرير فشدَّها معه وأجلسها وضمها إليه بشغفٍ حقيقيٍّ وقال:

- رائحتك مميزة ليس لها مثيل

- إنه العطر الذي أهديتني اياه.

- بل هو عطر قلبك المحب.

أحست بدقات قلبها تكاد تنفجر من فرط السعادة فأخذت نفسًا عميقًا تعيد الانتظام لدقات قلبها..

- لم أتوقع أن تأتي مبكرًا ظننت أنك ستذهبين إلى البيت الكبير.

- وأفوِّت فرصة بقائنا وحدنا دون هجمات مفاجئة، ثمَّ إنني ذهبت فعلًا إلى هناك وجلست مع أبي ونلت مباركته بالعيد وغادرت قبل وصول الجميع.

- ألم يذهب أبي إلى الصلاة؟

- كلَّا، يبدو متعبًا هذه الأيام، على فكرة يرسل لك تحياته ومباركته.

- هل يعلم أنَّك هنا؟؟

- بالطبع يعلم بل هو من شجعني، شكرًا على الورد الذي أرسلت صباحًا، لقد أضاف إلى المنزل أجواء البهجة والشاعرية.

- يسرني أنَّه راق لك.

وضع يده خلف عنقها مرسلًا بأصابعه شرارات لكلِّ أنحاء جسدها وقال:

- ألا أستحقُّ في المقابل قُبْلة العيد..

عضَّت على طرف شفتها السفلى في إغراء قائلة بنعومة:

- فقط القبلة هي كلُّ ما تطمح اليه

- آه .. يا سارة كنت متأكدًا منذ مجيئك المبكر أنَّك ستمنحينني أجمل هدية للعيد

****

- ماما أريد أن أنزل إلى الشارع

- سيأتي أبوك في أيِّ لحظة هل أنت جاهز؟؟

- جاهز هل أنزل؟؟ أريد أن أرى الألعاب النارية

- حسنا انزل، ولكن إذا وصل أبوك اصعد معه لنفتح الهدايا وننطلق إلى الإفطار

- حاضر ماما

أسرع راكضًا إلى الخارج. أكملت زينتها وارتدت ثوبها وبينما هي ترشُّ العطر سمعت صوت حسان وهو يصف لأبيه الألعاب النارية فخرجت من حجرتها إليهما وقالت:

- عيدكما سعيد.

ظلَّ حامد يحدق فيها قبل أن يزدري ريقه ويمسك بيدها يتأملها وقال:

- تعرفين أني لست ضليعًا في تنسيق الكلمات وتصفيفها لكن سأقول كما قال كاظم الساهر في إحدى أغنياته:

" هذا العيد لن نشتري شجرة ستكونين أنت الشجرة التي أغلق عليها كل أمالي وأحلامي.. ستكونين أنت الزينة لهذا العيد وكلِّ أعيادي.

بهتت وظلَّت للحظات غير مصدقة ما حدث ثمَّ انتبهت وقالت بفرحة:

- آه يا حامد ما أروع هذا

أمسك بيدها وقال:

- لقد حفظتها خصيصًا لأجلك وانتظرت العيد بلهفة لأقولها لك، فهل راقت لك؟؟

تألقت عيناها في سعادة وقالت مبهورة: يا إلهي، كيف لا يروق لي، لا يمكن أن يكون هناك ما هو أروع من هذا يا حامد..

فتح كيس الهدايا الذي يحمله وهو يقول:

- أتمنى أن يروق لك هذا الخاتم..

وألبسها إياه وقبَّل يدها في رقَّة ثمَّ أردف وهو يخرج وردةَ جوري حمراء:

ووردة واحدة تخبرك أنك الوحيدة في قلبي.

أحسَّت حنين أنَّها تحلم ووقفت صامتة مبهورة في حين هتف حسّان في حبور:

- مرحى، لقد أصبح أبي مثل أبطال المسلسلات.

بدا واضحًا أنَّ حامد قد نسي تمامًا وجود ابنه فقال يداري خجله:

- ألا تريد أن ترى هديتك مني ومن ماما؟؟

- هل أحضرت لي هدية؟؟.. ظننت أنك نسيت

- أيُّها المشاكس، إنها في غرفة الضيف.

انطلق راكضًا فقالت حنين:

- شكرًا يا حامد على كلِّ شيء، أحضرت لك هدية أنا أيضًا أتمنى أن تروق لي..

ناولته العلبة ففتح ليجد أزرارًا كهرمانية للأكمام فقال بحبور:

- شكرًا يا حبيبتي إنَّها رائعة..

طوَّقت عنقه بذراعيها وضمَّته إليها بسعادة لكنها ابتعدت مسرعة عندما وصل حسَّان وقفز على والده بسعادة وهو يقول:

- شكرًا بابا، شكرا ماما، إنَّها الدراجة التي كنت أريدها.

ضمه الأب إليه وهو يسأله:

- هل أنت سعيد؟

ترك أباه وهو يقفز ويقول:

- أكثر من سعيد أكاد أطير من السعادة إنَّها المرة الأولى التي أشعر فيها بالعيد، انتظرا لدي هدية لكما..

وركض إلى حجرته ليعود بهدية مغلفة قائلًا بسعادة:

- إنَّها لكما..

فتح حامد العلبة وأخرج تمثالا من الكريستال لطائرين محلّقين نقش على الأول حامد وعلى الثاني حنين ويتوسّطهما قلبٌ صغير كتب عليه حسان وكتب تحتهما "معًا إلى الأبد" أعطى انعكاس الأضواء عليه ألوانًا متألقة. قالت حنين وهي تحتضنه:

- يا الله ما أروعها.. كيف خطرت لك؟؟

أردف حامد:

- إنَّ لك ذوقًا بديعًا.

قال حسَّان:

- في الحقيقة ساعدتني خالة سارة

اغرورقت عيناها بالدموع فأسرع حامد يقول ممازحًا:

- بالله لا تبكي الآن سيحمَّر وجهك لساعة على الأقل ونحن ذاهبون إلى منزل أسرتك سيظنون أننا نعذبك.

مسحت دموعها بحذر كي لا تفسد زينتها وقالت بحبور:

- بل جعلتماني أسعد إنسانة هذا الصباح، جعلتما هذا العيد أجمل أعيادي.

وذهبوا لاجتماع العائلة لإفطار العيد الذي أصرَّ والدها على حامد أن يأتي بصفته فردٌ من العائلة.

****

دفنت سارة وجهها في صدر زوجها قائلة: يا إلهي كم أنا متعبة

- نامي إذًا.

ضحكت وقالت:

- وأغامر بعودة عبير لتجدنا بهذه الحالة، ستقتلنا لا محالة، تعرف لم أحلم أن أول عيد لنا سيكون بهذه الروعة

نتبادل الهدايا وأعذب الكلمات والأروع نقضيه وحدنا، هذا القدر من الرومانسية كثيرٌ...

قبَّل جبينها قائلًا:

- لو قيل لي إنَّ هذا سيحدث لما صدقتك، من الآن فصاعدًا كلما ذُكر العيد سأتذكر هذا الصباح معك، لقد أهديتني أجمل صباح عيد في حياتي

- حقًّا؟؟؟

- حقًّا، إنك تفقدينني صوابي يا سارة، هل تعلمين ذلك؟!!

قالت مبتسمة بفخرٍ: أتعني أنَّه لا يتوجب عليِّ أن أضاعف قواي السحرية

أمسك بوجهها ينظر إلى عينيها مباشرة وقال بهمس ناعم:

- آه، يا سارة أخشى أنَّك لو زدت قواك شعرة، فقط شعرة أن أموت من اللذة.

بعد لحظات من الصمت اللذيذ قالت سارة:

- لابدَّ أنَ أمي تلعنني وهي تتساءل أين أنا؟

ظلَّ هشام صامتا للحظات قبل أن يقول بحذر:

- هناك أمر يحيرني فيك يا سارة

- ما هو؟؟

- علاقتك بأمك، إنَّها من ألطف الناس معشرًا وأطيبهم قلبًا حتى أننا لم نعتبرها يومًا زوجة أب. وأنت أيضا حنونة طيبة معطية تستحوذين على القلوب بسهولة، لمَ أنتما في تنافرٍ دائمٍ؟ لمَ هذا العداء المرُّ؟؟

ظلَّت صامتة فأردف:

- إن كنت لا تريدين الإجابة فلك مطلق الحرية..

- لا أدري بالضبط هل هي غيرتي من بناتها ذوات الدماء الزرقاء؟ أو نشأتي بعيدًا عنها مما جعلني ابنة من الدرجة الثانية لديها؟ أو عدم عدلها بيني وبين بناتها؟ أو ربما خاب أملها فيَّ،

كلُّ ما أعرفه أنَّ الحرب البارد اشتعلت بيننا ولم نستطع إخمادها بل الحقيقة لم نحاول بصدق إخمادها.

- منذ متى وأنتما على هذه الحالة؟

جلست سارة وضمَّت ركبتيها إلى صدرها وقالت:

- ما سأخبرك به الآن لم أخبر به حتى أقرب صديقاتي أنت أول من يسمعها مني..

- إنَّه شرف لي يا عزيزتي..

- كنت أزور أمي نهاية كلَّ أسبوع وفي إحدى المرات كنت في الثانية عشر أو الثالثة عشر اشتريت مجموعة من الروايات البوليسية وأنا في الطريق إليها وبعد أن وصلت جلسنا قليلًا معها ثمَّ نزلنا أنا ومها ومايا إلى الحديقة واتخذت ركنًا وبدأت أقرأ وفي منتصف الرواية والحماس جاءت أمي وقالت:

- أليس لديك دروس تراجعينها بدلًا من قراءة هذه الروايات التافهة ..

فقلت:

- لقد راجعت جميع دروسي وكتبت كلَّ واجباتي قبل أن آتي لذا اشترى لي أبي هذه الروايات

- ولو يمكنك مراجعة المزيد؟

- لكني لم أحضر كتبي

- فقالت: إذًا قومي وراجعي لمايا دروسها..

عرفت أنَّها تعتزم التنكيد عليّ فقلت لها:

- تعرفين أن مايا سريعة النسيان ولو ذاكرت لها اليوم فستنسى كل شيء قبل صباح السبت. لذا أعدك أنني غدًا من الظهر إلى المغرب سأراجع لها كل دروس الأسبوع طبعًا إن رضيت هي.

ظلت صامتة للحظات كمن يبحث عن شيء ثمَّ قالت:

- لقد تناولت مايا ومها الطعام قبل قليل اذهبي وارفعي السفرة واغسلي الأواني.

- ولم لا تفعل الخادمة ذلك؟

- لأني أريدك أن تفعلي أنت ذلك..

- حسنًا سأفعل

ذهبت إلى المطبخ وبقيت هي في الحديقة وطلبتُ من الخادمة أن تفعل ذلك مقابل مبلغ من المال ففعلت مسرورة. من رأى ذلك مها فأسرعت إلى أمي تخبرها وما إن عدت للحديقة لآخذ الروايات حتى صفعتني آمي على وجهي قائلة:

- عندما آمرك بفعل شيء تفعلينه بنفسك.

بكيت وغادرت الحديقة وفي طريقي إلى الأعلى رأيت مها فقلت لها:

- إني سأردُّ لها يوما الصفعة التي نلتها بسببها

فأسرعت إلى الحديقة تخبر أمي، كان مجرد شجار أطفال ينتهي في دقائق لكن بينما أنا جالسة أقرأ دخلت مها الحجرة وقالت متحدية:

- تقول ماما لو لمستني ستضربك بالخيزرانة.

تعرف هذا السن البلوغ والعناد والطيش فوقفت في مواجهة مها وصفعتها صفعة أودعتها كلَّ الغضب المترسب في نفسي من قوة الصفعة ألقتها إلى طرف الحجرة فقامت تولول وتصرخ جاءت أمي فزعة على صراخها مباشرة فهمت ما حدث فخرجت من الغرفة وعرفت أنها ستأتي بالخيزرانة وبالفعل جاءت وبدأت تضربني وأنا صامدة متجلدة وهي تطلب مني الاعتذار لمها وطبعًا بالنسبة لي هذا الذي لن يكون أبدًا، كنت أعلم أن في تلك الكلمة خلاصي لكن العناد وما أدراك ما العناد. المهم استمرت بالضرب والأوجاع حتى انكسرت الخيزرانة فأخذت سلكًا كهربائيًا وأنا في عنادي لم أكن أعرف كيف كان سينتهي الأمر لو لم يأتِ أبي آدم ويخلصني من بين يديها حينها بكيت وبكيت كما لم أبكِ يومًا اخذني إلى المكتب وهو يحاول تهدئتي وأنا أبكي وأقول أريد أبي فلم يكن أمامه سوى الاتِّصال به فجاء مسرعًا وأخذني إلى المستشفى والحمد لله لم يكن ثمة إصابة خطيرة فقط تورَّمت إحدى عينيي ونزيف في الأنف ورضوض في كلِّ أنحاء جسدي.

لزمت الفراش أسبوعًا كاملًا دللني أبي دلالًا خاصا واتَّصل أبي آدم بي أكثر من مرة أمَّا هي لم تأتِ أو حتى تتصل، من هذه اللحظة أصبح أبي وأبوك هما الأمان ومصدر الحنان.

كانت الحادثة سبب في تقاربنا أنا وأبي أكثر جلسنا وتحدثنا كثيرًا حول علاقتي بأمي التي لم تكن يوم على ما يرام وقال لي: "إنها لا تكرهك، إنها تكره صورتي فيك وتعلقك بي، أنا أتصور أنها عندما رأتك منزوية في الحديقة تقرئين تذكرت كيف كنت أهملها وأنزري بكتبي وأبحاثي عنها لساعات طوال، أظنُّها تذكرت فجنَّ جنونها وكما سمعت هي حامل والمرأة الحامل سريعة الغضب وغير عقلانية أبدًا"

فقلت:

- كلُّ هذا لا يهمني إنَّها أمي وأنا ابنتها أريدها فقط أن تحبَّني كما تحب مها ومايا فهل هذا كثير؟ لكنها لا تفعل ولا تريدني أصلًا كل أسبوع أعود من هناك محملة بالإحباط وخيبة الأمل بعد أن أعامل كغريبة بين أمي وأخواتي لكني أعود إلى

هناك مرة أخرى لعلَّ وعسى وكلِّي رجاء أن أُحبَّ لكن بعد ما حدث لن أذهب إلى هناك، أبدًا..

- وبالفعل بقيت زمنًا لا أذهب حتى دخلت المستشفى بعد إجهاضها وأصرَّ أبي أن أذهبَ إليها وإرضاء لخاطره ذهبت، كان الأمر صعب في البداية ثمَّ أخذت الامور المنحى الذي رأيته وأصبح اللعب على المكشوف لا هي أظهرت لي العاطفة التي أنشدها والأسوأ لم تستطع إخفاء عاطفتها المتقدة لبناتها أمامي رأفة ورحمة بي، صدقًا لا أعلم ما الأكثر إيلامًا عدم حبِّها لي أو حبِّها الشغوف ببناتها. وأنا توقفت عن أن أستجدي شيء منها لكن لم أستطع الصمت بعد ذلك ومنذ ذلك العهد اشتعلت الحرب الباردة وتكفي مجرد كلمة لنتراشق بالكلمات..

قال هشام:

- لكنَّها أمك ولها عليك حقوق.

ردت بحدة:

- وأين حقوقي أنا؟ يا هشام الأم من ربَّت ليس من أنجب وهي تركتني وأنا بنت شهرين لأنشأ بين أيدي المربيات،

لنقول إنَّها كانت مجبرة، لابأس ماذا عن الحب والحنان؟ ماذا عن العدل بيني وبين بناتها؟ أليس في سنة نبينا حديثٌ ينصُّ: "اتقوا الله واعدلوا بين أبنائكم" يا هشام إنني لا أذكر أنَّها ضمَّتني يوما إليها لا أذكر كلمة حانية منها لا في نجاح أو فرح أو مرض، هل تعلم كم من المرات أعادتني إلى منزلي في الزيارة الأسبوعية فقط لأنَّ مها أو مايا لا يرغبان في وجودي، إن حقوقي عليها سيسألها الله عنها قبل أن يسألني، وتقول أمك، هل تعلم بعد وفاة أبي ظللت متنقلة بين منازل إخواني من أبي ورأيت فيها الضيم والظلم، ومع ذلك لم تفكر حتى مجرد تفكير في مجيئي للعيش معها ولولا إصرار أبي آدم بعد أن شكيت له سوء المعاملة التي ألقاها لما قبلت، ثمَّ تقول لي حقوقها

قامت من السرير بغضب لترتدي بقية ملابسها فأمسك هشام بيدها وقال:

- اجلسي

- ستأتي عبير في أي لحظة

- لو كانت ستأتي لأتت من اللحظة الأولى التي لاحظتْ فيها غيابك، اهدئي أنا لا أدافع عن أمك أو عما حدث أنا مستمعٌ ولست حكمًا..

أخذت نفسًا عميقًا لتهدأ من غضبها فأكمل:

- هل تعلمين أنَّها المرة الأولى التي نتحدث فيها عن شيءٍ يخصُّك، دائمًا أنا من يتكلم حتى بدوتُ كتابًا مفتوحًا أمامك..

- وها أنت الآن قد ولجت إلى أكثر الأماكن غموضًا في داخلي.

- استديري وأغمضي عينيك..

- ولماذا؟

- افعلي ما أطلبه منك مرَّة دون نقاش..

- حسنًا

فعلت ذلك فرفع شعرها وأحست بشيء بارد على جيدها وقبَّل عنقها وقال:

- افتحي عينيك.

فتحت فرأت عقدًا من الألماس يتلألأ على نحرها فصرخت بحبور:

- واااو ما أروعه شكرًا يا حبيبي

ناولها القرطين وقال:

- ضعيهما.

أسرعت بوضعهما وقالت:

- ما رأيك؟؟

قال وهو يتأملها:

- أروع عقدًا في الوجود فقط لأنَّه على نحرك، أنت لو وضعت عقد من الخشب على نحرك لبدا فائق الجمال.

- شكرًا على الإطراء وأنا أيضًا أحضرتُ لك هدية

- غير الهدية الأولى؟؟

احمَّر وجهها من مغزى عبارته وأخرجت العلبة من حقيبتها وناولته إياها ففتح العلبة ليجد ساعة يد ذات ماركة عالمية مشهورة فقال:

- ما أروع هذه الساعة، أنت تعرفين شغفي بالساعات.

- يسرُّني أنَّها راقت لك

قامت تكمل ارتداء ملابسها ثمَّ قالت:

- أنا ذاهبة، هل تريد شيئًا؟

- أريد أن تبقي.

طبعت قبلة على شفتيه فعانقها بقوة وهي تقول:

- ليت كان بإمكاني البقاء، سأتَّصل بك إذا استيقظت مساءً أو ربما غدًا فأنا لم أنم منذ ثلاث ليالٍ إلا غفواتٍ من ضغط العمل في المكتب..

****

ظلَّت جوانا ممسكة بالهاتف مكررةً الاتِّصال بماهر لكن هاتفه مغلقٌ، ولا أحد يجيب في منزلهما وليس موجود في منزلِ أسرته. في البداية كانت مغتاظةً لإخلافه موعدهما ولكن مع تأخر الوقت تحوَّل الأمر إلى قلق، أين هو؟ هل هو بخير؟ هل أصابه مكروه يا ترى؟؟

دخلت أمها لتنام وأخذت معها سارة الصغيرة بينما بقيت هي تعاود الاتصال كلَّ ربع ساعة وعندما عاد طارق من سهرته ووجدها جالسة سألها بحسنِ نية:

- أرى أنَّكِ عدت مبكرًا، أين ذهبتما؟

زفرت بضيق وقالت:

- لم نذهب إلى أيِّ مكانٍ

- لماذا هل غيرتما خطتكما؟

- وهل رأيته حتى أغيِّر شيئًا؟! الحقير هاتفه مغلق وليس موجودًا في منزلنا أو عند أسرته...

- أين يكون يا ترى؟

- مؤكد عند أصدقائه

- أصدقاء؟ منذ متى وماهر له أصدقاء؟! ومن هم أصدقائه؟

- يا أخي كلَّما سألته عنهم هاج وماج وقال إني أريد التحكم بحياته.

توتَّرت ملامح طارق لكنَّه قال:

- ادخلي ونامي فقد مضى أكثر الليل وغدًا لنا حديث آخر..

- لا أستطيع أريد أن أطمئن أنَّه بخير وعاد إلى المنزل بسلام...

- يا للنساء، اهتمامك الزائد هو الذي يجعله يتمادى...

- حسنًا سأتَّصل به لآخر مرة وسواء ردَّ أو لا، سأدخل وأنام

اتَّصلت بالمنزل فردَّ قائلًا:

- مرحبًا، من المتصل؟؟

- أنا جوانا عدت أخيرًا؟

- نعم.. لكن.. أنت ..

وضعت السماعة دون أن تترك له مجالًا لاختراع كذبة..

****

عادت عبير متأخرة بعض الشيء وبمجرد وصولها أخبرها الخدم بمجيء سارة وبقائها أكثر النهار هنا فاندفعت إلى حجرة هشام تصرخ بحدة:

- أوصلت بك الجرأة أن تحوّل منزلي إلى عشٍّ غرام لك ولتلك الشمطاء؟ هشام لا تجبرني على اتِّباع أسلوب آخر معها ومعك.

- لا أدري بأيِّ حقٍّ تقفين هنا وتخاصمين؛ لأنَّ سارة كانت هنا وأنت من تركتني وحيدًا ومريضًا عاجزًا عن الحركة في صبيحة العيد والأدهى عدت متأخرة قبل منتصف الليل بقليل وتلومينني أنِّي بحثت عمن تسليني، يا عبير جميلة أنت لكن لا شيء بين أذنيك.

- لا تحاول العبث معي، لن أحاول أن أكون ندًّا لتلك المتسلقة، ولن تحظى بقلبي واهتمامي مجددًا إلا عندما تفي بوعدك لي، لقد وعدتَ بطلاقها لكن أرى أنَّ الأمور تتطور بينكما..

- كان بإمكاني أن أطلِّقَ سارة في أيِّ وقتٍ أشأ، لكن الأمر كان متوقعًا من قبلها ولن يكون له تأثير يذكر عليها، صحيح؟؟؟

- صحيح، والآن ما الذي تغير؟

- الآن تعلَّقت بي قلبًا وقالبًا وبنت قصورًا من الآمال لحياتنا المستقبلية، أجزم أنها تعشق الأرض التي أسير عليها فاذا طلقتها الآن ما الذي سيحدث؟

- ستدمَّر تدميرًا.

ضمَّته إليها في سعادة وأكملت:

- يا لها من خطةٍ شريرة بارعة.

قبَّلها وقال: يا حلوتي ليس المهم الوفاء بالوعد بل كيف نفي بالوعد ونذلَّ تلك المتسلقة.

****

في ثاني أيام العيد خرجت جوانا وحنين وسارة معًا فقد مرَّ وقت طويل لم يفعلن ذلك وعندما استقرَّ بهن المقام أخذت كل من سارة وحنين يتحدثن عن عيدهن الأول مع أزواجهن والسعادة تعلو محيَّاهن وعيونهن تبرق من الفرح. بينما ظلَّت جوانا صامتة فقالت حنين ممازحة:

- ما نتحدث عنه الآن بفرحة غامرة، يبدو أنه أشياءَ عادية عابرة في حياة عاشقين مثل ماهر وجوانا.

ردَّت سارة ضاحكة:

- مؤكد أنَّها صامتة تتأمل سخافتنا..

في الحقيقة أن جوانا في تلك اللحظة تكاد تبكي قهرًا وغيرة قائلة في سرها:

- كيف يمكن أن يحدث هذا، هاتان اللتان لم يكن أن تتوقعا أن تبقيا مع أزواجهن إلى العيد، هاتان اللتان تزوجتا والعبرة تجري على خدِّهما ليلة زفافهن يعشنَ فرحة العيد مع أزواجهن وأنا، أنا من قيل في حبِّ ماهر لي الأشعار، من حفَّ خلفي لينال الرضا، ينبذني في أول عيد لنا، كيف يحدث هذا؟ وبأيِّ قانون تسيرين أيتها الحياة؟

انتبهت أنهن يتحدث معها قالت بجدية في محاولة مداراة مشاعرها المتأججة غضبًا من ماهر والحياة بأجمعها:

- ليس الأمر كذلك، لكن ثمة ما سيحدث ولا أعرف كيف أخبرك إياه، يا سارة.

تبادلت سارة وحنين نظرات التعجب وسألت سارة:

- ما الذي سيحدث ولمن؟

- سأخبرك مباشرة، سيعقد طارق قرانه بعد غدٍ.

صمتت سارة للحظة ثمَّ تنهدت بارتياحٍ وقالت:

- هذا فقط، ظننت أنَّ مصيبة ستحصل، يا عزيزتي إنَّ ما بيني وبين أخيك انتهى، حتى صداقتنا في طريقها إلى الزوال، وأنا الآن عاشقة من جديد.

- حسنًا مرَّ الأمر بسلام، كلاكما مدعوتان للحفلة بعد غد في قاعة ميادة

بعد صمت طويل نوعًا ما قالت حنين:

أخشى يا جوانا أنِّي أحمل لك أخبارًا سيئة...

- أخبار سيئة؟ تخصُّ من؟

- بصراحة تخصُّك أنت وزوجك.

- قولي، مادام الأمر يتعلق بماهر فلا أستبعد أيَّ مصيبة بالقياس مع سلوكه في الفترة الأخيرة.

- لكن عديني أن تتصرفي بحكمة..

- قولي، بعدها نرى إن كان الأمرُ يحتاج إلى حكمة أو مشرحة.

- حسنا، ثمة إشاعة في البلدة تقول إن زوجك على علاقة بفتاة لعوبة من فترة.

أحسَّت جوانا بقبصة باردة تعتصر قلبها وعجزت تمامًا عن النطق فأمسكت سارة بيدها وربتت على ظهرها قائلة تنفَّسي يا عزيزتي..

أخذت نفسًا عميقًا ثمَّ قالت بذهول:

- هل أنت متأكدة؟

- بصراحة سمعت الإشاعة منذ زمن، لكنني قلت في نفسي إنَّ الأمر مجرد إشاعة ولا يجب أن أشغل بالك بأمرٍ غير مؤكد وأنت في شهور حملك الأخيرة، ثمَّ إنني أعرف الفتاة لعوبة متعددة العلاقات التقيت بها في عدة مناسبات عائلية وتدعى: راقية..

هتفت جوانا:

- راقية؟؟

- نعم، وعندما أخبرتني سارة أنَّ ماهر كان يعتزم تسمية ابنتكما راقية تحول الشك إلى رجحان وأيضا قلتُ لعلَّ الأمر مصادفة، لكن بالأمس عندما خرجنا لمعايدة الأهل التقيتها عند قريبة لنا للحقِّ أنها فتاة لطيفة دونما جمال خلاب لاحظت أنها ترتدي قلادة كُتِب عليها ماهر بالإنجليزية فأبديت إعجابي بالقلادة وسألتها ببراء:

- من بكون ماهر هذا؟

ارتبكت قليلًا ثمَّ قالت:

- إنه ماهر الرجاوي المغنِّي المشهور

قلت ممازحة:

- لا يبدو أنَّه ماهر المغني، فعيناك تلمعان وأنت تذكرين اسمه؟؟

- من يمكن أن يكون غيره؟

- لا أدري، ربما خطيب ولكن لا تريدين إشاعة الأمر..

قالت بهيامٍ:

- آه، ليتَه يكون كذلك.

- إذًا أنا محقة

- يا لك من خبيثة لقد جررتني للاعتراف بسرعة في ثوانٍ..

- الحب أعظم نعمة هل هو من أهداك القلادة؟

- بالطبع، آه لو تعرفين كم هو طيب وحنون، لم أقابل على كثر من قابلت محبًّا شغوفًا مثله.

- ولماذا لا تتزوجان؟

تنهدت في تحسر:

- لأنَّه متزوجٌ ولديه ابنة..

- وما المشكلة ما دمتِ تحبينه ويحبك؟؟

- أنا أدخل على ضرة؟ مستحيل، إمَّا أن يكون لي وحدي، أو لا يكون ثمَّ إن له زوجة متسلِّطة ستدمر حياتنا.

فقلت لأعرف ما تفكر به:

- إذًا حرضيه ليطلِّقها

- لا يكون اسمي راقية إن لم يفعلها.

- وكيف؟؟

وقبل أن تجيب اتَّصل حامد فاضطررت للاستئذان والخروج بعد أن تبادلْنا الأرقام وهكذا ترين لا يمكن أنْ تكون كلُّ تلك الأمور مصادفة..

قالت جوانا مصدومة وهي تسمع كل هذا:

- ماهر؟ لا أصدِّقُ، إنَه دائمًا العاشق المتيم لم يبدو يومًا غير ذلك إنه أحمق ولكن ليس خبيثًا ليفعل هذا بي..

قالت سارة:

- مشكلة ماهر أنَّه سريع التأثر وسهل الانقياد لعواطفه..

ردت حنين:

- بالفعل وراقية فتاة مؤثرة، كثيرون وقعوا في حبائلها..

جوانا:

- لكن ليس ماهر، إنَّه يحبني

سارة:

- نزوات الرجال ليست دائما ناتجة عن كرهٍ أو نقص فيك

جوانا:

- سأذهب الآن إلى المنزل وأواجهه، فربَّما يكون ماهر آخر

حنين:

- يمكنك خداع نفسك بهذه الطريقة ولكن دعينا نجرب طريقة أخرى

جوانا:

- ولماذا لا أواجهه وأرتاح

سارة:

- لأنه لو كان بريئًا سيكون شكك فيه نقطة لغير صالحك

حنين:

- ولو كان مذنبًا سينكر بسهولة فأنت لا تملكين دليلًا

جوانا:

- والحل؟ ماذا أفعل؟؟

حنين:

- أنا سأخبرك، ستقيم قريبة لي حفلة خطوبة لابنتها غدًا، وقد كلمت راقية ووعدت بالمجيء..

جوانا:

- وبماذا سيفيدني ذلك؟؟

حنين:

- سنذهب معًا ونحاول استدراجها في الحديث لنتأكد إن كان ماهرك أو ماهر آخر وتتضح لك الحقيقة..

جوانا:

- لا أستطيع، هذا أكثر من احتمالي

سارة:

- بل تستطيعين ولن تستسلمي

جوانا :

- حسنًا، ولكن ماذا لو رفضت الحديث؟؟

حنين:

- من هذه الناحية لا تقلقي، فهي فتاة محبة للثرثرة فقط ادردفة الحديث في الاتجاه الذي يروق لها..

جوانا:

- يا إلهي، لا أصدِّق أنَّ هذا يحدث لي..

حنين:

- أنا أيضًا مع كلِّ ما رأيتُ وسمعت ما زلتُ لا أصدق، لا تعلمين كم ترددت قبل إخبارك؟؟

سارة:

- لكن في النهاية يجب أن تعلمي...

أجهشت جوانا ببكاءٍ مرير فضمَّتها سارة إليها وأخذت حنين تمسِّد على شعرها وتواسيها وتخفف عنها حتى هدأت وقالت من بين دموعها:

- متى ستذهبين؟؟

حنين:

- في العاشرة، هل ستذهبين؟

- وماذا سأفعل غير ذلك

- حسنًا سأتصل بك لنتفق على التفاصيل فيجب أن أذهب ستأتي هدى أم حسَّان لإعادته إلى المنزل..

- اتفقنا.

قامت مغادرة وقد ساورها ندمُ شديد، ماذا لو كان الأمر حقيقيًا وتسببت في حدوث مشكلة بينهما أو الطلاق لا سمح الله فقالت تعنِّف نفسها:

- ما جدوى التحسر الآن؟ كان يجب أن تفكِّري في كلِّ ذلك قبل أن تفتحي فمك.

****

أوصلت هدى حسان إلى المنزل فطلبت منها حنين الدخول وتناول القهوة من باب الذوق فدخلت وجلستا يشربان القهوة بينما حسان يروي لحنين عن يومه نام من شدة التعب فاستأذنت حنين من ضيفتها لإدخال الصبى إلى فراشه وفي هذه الأثناء وصل حامد الذي أصرَّ على هدى أن تبقى للعشاء

واتَّصل بالمطعم وطلب عشاء إلى هنا كان الأمر مقبولًا لكن حامد لم يرفع عينيه لحظة عن هدى استحوذت على كلِّ اهتمامه وعندما وصل العشاء استمر الأمر على ذات المنوال وجلسا يتحدثان عن الأيام الخوالي مهمشين حنين تمامًا.

قالت هدى في معرض حديثهما:

- لم تكن تهتم في ما سبق بالطعام الجيد...

قال حامد بفخرٍ:

- الأمر مختلفٌ الآن فحنين ماهرة في الطبخ تجبرك على الذوق الرفيع في الأكل..

- وكأنك تعني أنَّ طبخي لم يكن جيدًا

ضحك قائلا:

- بصراحة أسوأ طبخ ذقته في حياتي كان طبخك

ضحكت بدورها وقالت:

- لا ألومك كنت صغيرة حينئذ، ليس فقط ذوقك الذي تغيَّر، بل حتى شكلك، ابتسامتك.. تبدو سعيدًا بحق

قال ممازحا:

- هذا لأنَّك أنت وزينب زوجات فاشلات، أمَّا حنين فهي زوجة ناجحة

ضربته ممازحة على كفِّه:

- طيب .. أيُّها الناكر سأخبر زينب..

التفَت إلى حنين قائلة:

- ان يعترف بك الرجل بزوجته كزوجة ناجحة، هذا أمر صعب جدًّا على كبرياء الرجل . فلتفخري بهذا

ابتسمت حنين بصعوبة ابتسامة لم تبلغ عينيها وهي تقول:

- شكرًا على الإطراء

أردفت هدى:

- حتى حسّان غدا طفلًا سعيدًا

ووضعت يدها على يد حامد وهي تكمل:

أنا ممتنة لذلك.

هنا بلغ السيل الزبى على أعصاب حنين فقامت متجاهلة قواعد اللياقة والأدب وقالت:

- اعذراني أشعر بصداعٍ فطيعٍ

غادرت المائدة، أحسَّت هدى ببعض الحرج فقالت لحامد:

- يبدو أنَّها تضايقت من وجودي

- كلّا، ان قالت إنَّها متعبة فهي كذلك بالتأكيد

قامت بدروها قائلة:

- يحسن بي المغادرة فقد تأخر الوقت، وطائرتي ستغادر مبكرًا

- ابقي لتناول الشاي

- اه، لا يمكن، شكرًا على حسن الضيافة، بلِّغ تحياتي لحنين وقبلاتي لحسان.

رافقها حامد إلى باب الشقة ثمَّ رجع إلى غرفة الطعام ليرفع المائدة وهو يدندن بسرور فخرجت حنين قائلة بحدة:

- لماذا لم تنزل معها وتوصلها إلى الفندق.

- ولم أوصلها ولديها سائق؟ ماذا حصل لصداعك؟؟

- لا شأن لك بي أو بصداعي

- ما بك؟ يبدو أنَّ هدى لم تروق لك

- ما دخلي أنا بها لتروق لي أو لا تروق؟

- غريبة مع أنِّي أراها لطيفة..

قالت بحدة وهي تغلي غضبًا:

- مادامت تروق لك إلى هذا الحد دعها تعود إليك فهي حرة الآن كما أخبرتك.

تصلَّبت ملامحه قليلا ثمَّ قال:

- ما الداعي لهذه الملاحظة الوقحة؟

- لأن الطريقة التي كنت تتأملها بها مقرفة، كنت تكاد أن تلتهمها بعينيك

- هذا غير صحيح.

- ما الصحيح إذًا؟ انك لم ترفع عينيك عنها للحظة.. وكأنك جالس تتعبد في محرابها، ما دمت مغرما بها إلى هذا الحدِّ دعها تعود إليك فما الحبُّ إلا للحبيب الأولِ

- توقفي عن هذه التفاهات

- أي تفاهات

- أي تفاهات؟؟ لديك زوجتان ولعابك يكاد يسيل على امرأة أخرى، يا أخي على الأقل احترم وجودي.

صرخ في وجهها توقفي وإلا..

قاطعته بانفعال شديد:

- وإلّا ماذا؟؟ ستضربني ؟؟ يمكنك أن تجرب ولكن هذه المرة ستعرف معنى أن يكون لزوجتك أب وأخ يحميانها

دون أن تنتظر جوابا دخلت غرفتها صافقة الباب بكلِّ قواها معلنة غيظها وحنقها كأجراس الموت..

****

تعالى رنين الهاتف بينما سارة تزيل المكياج وتستعد للنوم فاختطفت السماعة بسرعة قائلة:

- مرحبا.

سمعت صوت هشام وهو يقول بسعادة دون مقدمات:

- عندي لك خبرٌ بمليون دولار

- حقًّا؟ ما هو؟

- ماذا ستعطيني مقابل الخبر؟؟

- عيناي لك

- لا، أريد قلبك، فهل ستمنحينني إياه..

- أمنحك؟؟ وكيف أمنحك ما لم يعد ملكي؟؟ لقد استوليت عليه منذ زمن وبنيت فيه حصونك وقلاعك، وبتُّ أنا أسيرة لديك.

- اه، من كلماتك، هل لك مثيل في هذا الكون؟؟ متأكد أنه لا

- حسنًا .. ما الخبر؟؟

- سأعود إلى المنزل الأسبوع المقبل

فغرت فاها ذاهلة قبل أن تقول:

- ماذا؟؟ أعد ما قلته

قال ببطءٍ:

- سأعود ..إلى.. المنزل.. الأسبوع ..المقبل.

صرخت بسعادة:

- مرحى، أخيرًا انزاح الكابوس كيف سمح لك الطبيب بالحركة

- لقد زارني اليوم وحدد لي موعد لنزع الجبس والأعواد وستغدو بعدها حركتي طبيعية، صحيح لا أستطيع الاشتراك في سباق الضاحية، لكن أستطيع السير والوصول إليك

- أنا دائمًا في متناول يديك، لا أصدق أنَّ الأمر انتهى

- ولولاك لما اجتزتها بسلام، إلى أين تريدين الذهاب؟؟

- ما أريده حقًّا هو السفر، لكن ما زال الأمر مبكرًا للقيادة لمسافات طويلة

- يمكننا الذهاب إلى أي مكانٍ تريدينه في البلدة..

- لا، لن نذهب إلى أيِّ مكان سأجهز حفلة منزلية لن تنساها ما حييت

- مثل يوم العيد؟؟

- أهذا كل ما تفكر به؟ سيكون شيئًا مختلفًا لكنني أخشى أن تموت من اللذة والسعادة..

****

طرق حامد الباب فلم ترد حنين فدخل إلى الغرفة واتَّجه إلى حيث ترقد حنين على السرير وجلس بجوارها ووضع يده على كتفها قائلًا بحنان:

- هل هدأت؟؟

ابتعدت عنه قائلة بحدة:

- ابتعد.. لاتضع يدك عليَّ.

قال معتذرًا:

- أنا آسف يا عزيزتي..

ظلَّت صامتة دافنة رأسها في الوسادة فمدَّ يده يمسِّد على شعرها بحنان ثمَّ قال بهمسٍ ناعم:

- هل غرتِ عليَّ؟ لم أكن أعرف أنني مهمٌّ عندك لهذا الحدِّ.

ظلت معتصمة بصمتها فقال بإصرارٍ:

- على الأقل تحدثي معي، أعترف أنني مخطئ ولك كلُّ الحقِّ فيما قلته، كل ما كنت أفكر به هو أن أرى غيرتك علي، ولكني تجاوزت الحدود، لا أدري لم أتوقع أن تتأثري هكذا.

جلست تمسح دموعها بظاهر كفها وقالت بغضب:

- لم تتوقع أن أتأثر؟ ماذا قالوا لك مخلوقة من حجر؟

مدَّ يده يمسح دموعها وهو يقول:

- بل أرقُّ وألطف مخلوقة

- لمَ تفكِّر في هذا وأنت تنظر إلى هدى.

أمسك بيدها ولثمها وقال:

- آه، يا حنين حتى لو نظرت إليها، تعرفين أنَّك أنتِ من أحب، ومن أريد.. وانت من لا غنى لي عنها أبدًا.

- كلام فارغ، نظراتك تلك كانت كخنجرٍ مغروسٍ في صدري وكلَّما تعالت ضحكاتك معها كان كتحريك الخنجر ليزيد الجرح إيلامًا.

قبل يديها مجددًا وقال:

- حقًّا لم أقصد إيلامك لهذ الحدِّ، لكن تعلمين أنا مسرور إن هذا حدث

دفعتْه عنها قائلة:

- مسرور لإيلامي؟

أمسك بوجهها بين يديه الكبيرتين ونظر إلى عينيها مباشرة وقال:

- مسرور لأنك غرتِ عليَّ والغيرة ملح الحب، ووجودها دليل على وجود الحب بيننا، أليس كذلك؟؟

أسدلت أهدابها وظلَّت صامتة مبتسمة في حياء، قبَّل جبينها قائلًا:

- حتى لو أنكرت فأنا أعرف ما أشعر به هنا.

سألته:

- وماذا تعرف؟؟

- أعرفُ أنَّك حنين أخرى غير تلك التي كانت تكرهني.

قالت بسرعة:

- لم أكن أكرهك

قام من السرير وهو يقول:

- حقًّا؟؟ إذًا قومي لتناول العشاء فأنت لن تأكلي شيئًا..

أمسكت حنين بيدها وقالت:

- حامد، حسنًا، ربما كنت أكرهك لكنني الآن أحبك

نظر إليها مصدومًا فاستطردت:

- ربَّما ليس كحبك الملتهب، لكنِّي أحبك، لا أستطيع التوقف عن التفكير فيك أينما كنت، وعندما لا تكون هنا

يستبدُّ بي الشوق إليك، وعندما تأتي تضيء دنياي، أحبُّ صوتك، أحبُّ ضحكتك، أحبُّ حتى شجارك معي...

جثا حامد على ركبتيه مبهورًا وقال:

- أخبريني أنِّي أحلم أو اطلبي الإسعاف، فقلبي يكاد يتوقف من فرحته.

وضعت يدها على موضع قلبه وقالت بابتسامة:

- بعيد الشر عنك يا حبيبي..

أغمض عيناه في نشوةٍ حقيقية ثمَّ فتحهما قائلًا:

- قوليها مرَّة أخرى أرجوك

- يا حبيبي.

ضمَّها إليه في سعادة جارفة وهو يقول بحبور:

- كنت أعلم أنَّ اليوم الأجمل لم يأتِ بعد.

****

شعرت جوانا بتوترٍ شديدٍ وهي تستعيد للذهاب إلى الحفلة برفقة حنين وظلَّت طوال الوقت تتساءل:

- يا ترى كيف تبدو تلك الفتاة؟ وبما تفضل عنها؟ والأهم كيف سيكون شعورها عندما تراها؟؟

لكن سرعان ما قطع عليها هواجسها اتَّصال حنين لتخبرها أنها بانتظارها في الأسفل

وعندما وصلتا إلى المكان شعرت جوانا بتواتر أضعافَ ما كانت تشعر به في البيت. أحسَّت بحرارةٍ شديدةٍ وتعرُّق ورجفة في بدنها فأمسكت بها حنين وأجلستها في ركنٍ منزوٍ قائلة بحنو:

- ليس عليك فعل ذلك إن كنت لا تريدين، يمكنك تجاهل الأمر وسيعود إليك في النهاية فهو يحبُّك..

- لا، لن أخدع نفسي بعد الآن، وسأسلك الطريق الأصعب، وإن كان سيستمر أو ينتهي فبيدي لا بيد أعدائي..

- حسنًا هيَّا بنا، بالمناسبة أي اسم ستختارين فليس من المعقول أن أقدمك لها باسم جوانا..

- صحيح، ما رأيك باسم مادلين؟؟

- جيد، دخلتا القاعة الرئيسية بحثًا عن تلك الغريمة المجهولة حتى وجدتها حنين جالسة مع مجموعة من الصديقات فأسرعت حنين إليها تحيِّيها وتمازحها، بينما وقفت جوانا تشاهد الرقص على المسرح بنصف عقلٍ بينما النصف الآخر مشغول بتقييم راقية، فتاة عادية أقرب إلى الامتلاء لكن من الواضح أنَّها تتميز بروحٍ مرحة وحب للحياة، لم تلبث طويلًا حتى أتت بها حنين إليها وهي تقول:

- تعال أعرفك بصديقتي مادلين..

صافحتها راقية قائلة:

- أهلًا مادلين، تشرفت بمعرفتك...

ردَّت جوانا:

- وأنا أيضًا.

قالت حنين:

- تعاليا نبحث عن ركنٍ هادئ ونجلس فيه..

ثمَّ أضافت وهي تتطلع إلى راقية بمرح:

كنت طوال الأسبوع متطلعةً إلى لقائك لنكمل حديثنا السابق.

ابتسمت راقية في حياء، حتى إذا ما استقرَّ بهن المقام قالت حنين:

- لطالما تمنيت أن أقع في الحب وأغوص في بحوره الهائجة وأشواقه اللاهبة، لكن للأسف سيظلُّ هذا حلمًا للأبد.

سألتها راقية:

- ألست متزوجة؟

- بلى، لكنَّه زواجٌ تقليدي بدون أي حب، لذا تجديننني دومًا تواقة لسماع قصص العاشقات وتخيِّل نفسي مكانهن، هيا أخبريني كيف تسير أمورك مع ماهر؟

أشارت راقية بعينيها إلى جوانا فردَّت حنين:

- أنت خجلة من مادلين؟ إنها عاشقة مثلك بل أنت أحسن حالًا منها فعلى الأقل يشعر بوجودك ويهيم بك حبًّا أما مادلين يا للمسكينة، لا يشعر بها على الإطلاق.

قالت جوانا مصطنعة الأسى:

- تعلمين جيدًا أنه يشعر بي ويعلم كم أحبه بل ربما يكن لي بعض المشاعر، لكنَّه يصرُّ، على تجاهلي بدعوى أنَّ نداء الواجب لزوجته وأسرته أولى من نداء الحبِّ لقلبه....

قالت راقية:

- اتركيه، فالبحر مليء بالأسماك.

جوانا:

- ليت الأمر بهذه السهولة فلسنا نختار من نحب..

راقية:

- بل بهذه السهولة، وهل ستظلين منتظرة إلى الأبد؟؟

جوانا:

- قررت تركه يرحل فإن عاد فهو لي للأبد، وإن لم يعد فقد أحسنت صنيعًا لي وله

راقية:

- ليت تلك المستبدة تترك ماهر يرحل..

حنين:

- من تقصدين؟؟

راقية:

- زوجته يحاول ماهر إخبارها أن حياتهما انتهت لكنَّها مصرة على تلقي الرسالة الخطأ..

لكنها معذورة هي فأين ستجد شخصًا مثل ماهر، بل من سيرغب بها أساسًا وقد تجاوزت الخامسة والثلاثين.

جوانا:

- ربما مازالت تحبه.

ردت راقية باشمئزاز:

- تلك المتغطرسة لا تعرف شيئًا عن الحب إطلاقًا

حنين:

- كم يستبدُّ بي الفضول لرؤيتها، هل رأيتها؟

راقية:

- ومن يرغب في رؤية تلك النكدية الحمقاء؟ حتى ماهر لم يعد راغبًا في رؤيتها

صرَّت جوانا على أسنانها من الغيظ فأسرعت حنين تقول:

- لا يمكن أن تكون امرأة بلا أيِّ ميزة حسنة.

راقية:

- حسنا للإنصاف إنَّها ربة بيت ممتازة، وتملك ذوقًا رفيعًا في الديكور، وكما يبدو أنَّها امرأة أنيقة جدًا، لكنَّها بلا قلب.

جوانا:

- وكيف عرفت كلَّ هذا وأنت لم تريها بعد؟

راقية:

- لا أصدق أنِّي أخبركما بهذا، لقد دخلت منزلها وبصراحة أحببت كلَّ جزء فيه وإن حصل وتزوجت ماهر لن أغير شيئًا في المنزل

أغمضت جوانا عيناها تكافح الألم فقالت حنين لصرف انتباه راقية عن جوانا:

- يا لك من مغامرة جريئة ومجنونة.

ردَّت بفخر:

- وهذا ما يعجب ماهر فيَّ، أقصد أكثر ما يعجبه فيَّ.

قالت جوانا:

- وكيف كان شعورك وأنت تغزين مملكتها؟

- أكثر من رائع، سهرنا ورقصنا وغنينا وشربنا ونمنا مع خيوط الفجر، لكن الأروع أن ابنته ولدت في صباح ليلة حبنا الأولى، تعرفين ما يقول ماهر عن تلك الليلة..

دخلت جوانا في حالة صدمة فقالت حنين:

- ماذا يقول؟؟

- يقول كلَّما نظر إلى وجه ابنته تذكر النشوة التي عاشها تلك الليلة

وضحكت في سعادة واضحة فسألت جوانا:

- فقط تلك الليلة دخلت منزلها؟

راقية:

- هل تمزحين؟ طالما إنها غير موجودة فمنزلها عشُّ غرامنا نتسلل إليه ونقضي أروع الأوقات، آخر مرة كنت هناك، يوم العيد تلك البائسة ظلت تتصل طوال الليل حتى أنني رجوت ماهر وهو يعيدني إلى البيت أن يذهب إليها لكنَّه رفض قائلًا "لقد استنفذت وقتها"

كانت الصدمات المتتالية أكبر من احتمال جوانا فقامت من مكانها قائلة:

- سأذهب لإصلاح زينتي

- قالت حنين: حسنًا عزيزتي، سألحق بك

ثمَّ أردفت تخاطب راقية:

- يبدو أنَّكما في غاية السعادة معا؟

- أكثر مما تتصورين، أشعر أننا خلقنا لبعضنا..

وجلست تتحدث عن حبِّهما الكبير وغرامهما الملتهب وحنين تصغي إليها حتى عادت جوانا محمرة العينين وقالت:

- يبدو أنني سأغادر فقد التهبت جيوبي الأنفية من العطور القوية، سيكون السائق هنا خلال دقائق هل ستأتين؟

أسرعت راقية تقول:

- يمكنك البقاء سأقلك عندما يأتي ماهر.

جوانا:

- وأصبح سائقًا لك أيضًا

حنين:

- كم أودُّ ذلك لكن لا يجدر بي ترك مادلين وحدها وهي بهذه الحالة جئنا معًا وسنغادر معًا

راقية:

- خسارة، كان وقتًا جميلًا معكما.

قالت جوانا وهي تصافحها مودعة:

- نصيحة من من هي أكبر سنًّا وخبرة في شؤون الحب "لا تثقي كثيرًا في رجلٍ لم يحترم امرأته كثيرًا"

فكرت راقية قليلا ثمَّ قالت:

- ماذا يمكن أن يعني هذا؟

جوانا:

- استعملي الجزء الذي يعلو مؤخرتك بنصف متر وفكّري " إن كان لم يصن من منحها اسمه وأنجبت له ابنته، فهل سيصن عاهرته؟!

واستدارت مغادرة وتبعتها حنين بينما بقيت راقية واقفة فاغرة فاها من الإهانة التي تلقتها للتو..

في اللحظة التي استدارت فيها جوانا عادت عبراتها بالتساقط حتى أنَّه لم يعد بإمكانها رؤية الطريق أمامها أمسكت بها حنين ووضعتها في السيارة التي كانت بانتظارهما وضمَّتها إليها تاركة إياها تفرغ كلَّ الآلام التي تعتمل داخلها من هذا اللقاء. استغرقت وقتًا طويلًا قبل أنْ تقول:

- كان يجب أن أفهم متى توقف كلبك عن النباح وطلب المزيد إن هناك من قدَّم له ما يريد لكنني تبعت قلبي ويقينه أنَّ ماهرًا لن يخون أبدا أنَّه سيحبني لآخر يوم في عمرنا.

- لم يكن خطأك كنت تحاولين الحفاظ على حبكما وبيتكما، برأيي يجب أن تجلسي مع أسرتك وتخبريهم بالأمر.

- مستحيل، ليس الآن، سيفسد هذا سعادة الجميع.

- صحيح.. ولكن ماذا ستفعلين؟؟

- لا أعرف، كلُّ الأمر مشوشة، أنا إلى الآن لا أصدِّق أنَّ ماهرًا فعل هذا بي من كان يتصور أن حبَّ ماهر لي سينتهي بهذه السهولة؟ ماهر الطيب الحنون يفعل هذا؟ ويظهرني بهذا السوء والقسوة..

ربتت حنين على كتفها مواسية فقالت:

- المهم، لا يجب أن يعلم أحدٌ بما حدث حتى تنتهي الحفلة بسلام، بعدها لكلِّ عقدة حل..

****

بعد أنْ انتهت سارة من عملها في المكتب قررت قبل الذهاب إلى منزلها للاستعداد للحفل العروج على البيت الكبير لتطمئن على أبيها آدم فعندما تحدثت معه صباحًا لم يكن صوته على ما يرام. وبالفعل عندما وصلت لم تجده كعادته في هذا الوقت في غرفة المعيشة أو حتى في مكتبته وعندما سألت الخدم عنه أخبروها أنَّه لم يغادر فراشه هذا النهار. ذهبت إليه وقلقها يتعاظم كل لحظة. وصلت فوجدته مستلقيًا ووالدتها جالسة

معه سلمت عليهما وقبَّلت رأسيهما وجلست بجواره على السرير تسأله باهتمام:

- ما بك يا أبي لا تبدو بخير على الإطلاق؟؟

ابتسم لها بفتور:

- لا أدري يا بنيتي، أشعر بإرهاق منذ الصباح..

- دعني أطلب لك الطبيب..

- لا، يا عزيزتي إنَّها الشيخوخة فقط، سأرتاح اليوم وغدًا سأكون على ما يرام.

- هل تناولت أدويتك؟

- نعم، أمك لا تتركني أنساها أبدًا.

نظر إلى أمها وقال:

- هل يمكن أن تتركينا للحظة؟

نظرت الأم إلى كليهما وغادرت دون أن تنبس ببنت شفة فسألته متعجبة:

- ماذا هناك يا أبي؟

- لا شيء، فقط أردت التحدث معك في موضوع...

- حقًّا؟ ما هو؟

أمسك بيدها فشعرت كم هو ضعيف ومتعب فارتجف قلبها ألمًا ووضعت يدها الأخرى على يده بحنان فقال:

- تعلمين يا سارة لطالما اعتبرتك بمثابة ابنة لي، صحيح لا صلةَ دمٍّ تجمعنا لكن بكل المعايير الأخرى في العالم أنت ابنتي، ولطالما كنت أقرب إليَّ ممن هن من لحمي ودمي ويعلم الله لست أنتقدهن أو ألومهن لانشغالهن بأمورهن الحياتية، لكن أنت كنتِ هبةَ السماء لي لم أشعر يوم بضعفي أو عجزي حتى رحلت...

اغرورقت عيناها بالدموع لمشاعره التي يفصح عنها فقالت:

- وأنت كذلك كنت هبة لي بل أعظم هبة، بوجودك في حياتي لم أعرف معنى اليتم...

قال في ضعف:

- لذا قررتُ أن أترك لك هبةً صغيرة..

ردَّت بسرعة: لا يا أبي، لا يمكن أن أقبل

- بل ستقبلين، أعرف أنَّك لست في حاجة لها وأعرف أنَّك مكافحة وينتظرك مستقبلٌ عظيمٌ، لكن هذه الهبة هي تعبير مني عن حبي وامتناني لك

- لكن يا أبي أنت تعرف...

- انتهى الأمر فهل ستجادلين عجوزًا متعبًا من أجل هبة صغيرة؟!

أحسَّت أنَّه يودِّعها وأنَّه لن يبقى بينهم أمدًا طويلًا، فأجهشت بالبكاء وضمَّته إليها إنه أبوها الذي عرفته في مراهقتِها وشبابها وزواجها، كان لها الأبُ والصديق وكلما تذكرت جمائله معها ازدادت دموعها غزارة حتى أنَّه سألها:

- هل لي أن أعرف لم كلّ هذه الدموع؟

حاولت الابتسام من بين دموعها وقالت بمرح:

- ابنك أفسدني فصرت سريعة التأثر والبكاء، سررت كثيرًا عندما علمت مبلغ حبك لي، ما رأيك أن أحضر لك الشوربة التي تحبها؟

- لا يا عزيزتي، ليس بي رغبة إلى الطعام، كلُّ ما أريده كوبًا من الحليب الدافئ...

- سأحضره لك بنفسي.

وبعد لحظات كانت تساعده على الجلوس وتناوله الكوب ثمَّ قالت:

- هل أخبرتك أنَّ اليوم حفل عقد قران طارق؟

- لابدَّ أنك تمزحين، وهل ستذهبين؟؟

- يجب أن أذهب.

- ما الذي تحاولين إثباته بذهابك؟

- اللّه عليك يا أبي، أنت خير من يفهمني أحاول إثبات أنَّ وجود هشام يملأ حياتي وأنَّ أحدًا لم يعد يعنيني، أحاول إثبات ذلك لنفسي قبل الآخرين، أريد أن أعلم يقينًا أنه لم يعد له وجود...

- أتعشَّم أن يفلح ذلك مع أني أرى أنَّ وجود هشام هو ما يحتاج إلى يقين أكثر من رحيل طارق...

- فعلًا، لكن لن نجلس ونناقش معضلات الحياة الآن، يجب أن تنام وترتاح.

أخذت الكوب منه بعد أن انتهى ودثرته جيدًا وسألته:

- هل تريدني أن أقرأ لك شيئًا؟

- كلَّا يا بنيتي، أشعر برغبة في النوم، اذهبي واستعدي لحفلتك..

- حسنًا يا أبي تصبح على خير

قبلت جبينه وأطفأت الأضواء وخرجت وهي تشعر برغبةٍ ملحَّةٍ في البقاء بجواره لكنه سينام فبما سيفيده وجودها..

وصلت إلى الحفلة متأخرة فقد كانت القاعة مليئة بالحاضرين إنما دون زحام وبحثت عن جوانا وعائلتها من عمَّات وخالات فوجدتهن على إحدى الطاولات في المقدمة ووجدت حنين معهن فسلَّمت وباركت لهن وانضمَّت إليهن على ذات الطاولة فهي صديقة العائلة.

قالت حنين ممازحة:

- لقد تأخرت، حتى أنني ظننت أنَّك لن تأتي.

ابتسمت ساخرة وقالت:

- وأفوِّت مشاهدة من ستجلس مكاني! كلُّ ما في الأمر أنِّي ذهبت لزيارة أبي فقد كان متعبًا قليلًا.

- سلامته وكيف أصبح الآن؟

- بخير، تركته نائمًا وسأعود إلى هناك بعد انتهاء الحفلة، ما بها جوانا تبدو هادئة أكثر مما يجب؟؟

- آه يا سارة لو تعلمين ماذا حدث لنا البارحة؟! من الجيد أنَّها متماسكة فتاة غيرها كانت ستنهار وتفسد فرحة الجميع، لكن جوانا قوية من أجل أسرتها.

وأخذت تسرد لها أحداثَ البارحة وسارة بين الصدمة والذهول. أرادت سارة مواساة جوانا لكن صوت الموسيقي المعلن لوصول العروس ألغى الفكرة. دخلت العروس تختال في ثوبٍ ورديٍّ بديع التصميم فتعالت التصفيقات.

نظرت سارة إلى الفتاة غير مصدقة وقالت في سرِّها: لا لا لا يمكن أن يكون هذا حقيقي ربما هو تأثير المكياج...

أمعنت النظر مجددًا كلَّا إنها متأكدة، مستحيل أن تكون واهمة، إنها فتاة بيضاء مثلها، الحقير كان يكذب إذًا وكلُّ تلك الحجج والتبريرات كانت زيفًا، بل الأمر برمته كذبة منذ البداية.

أغمضت عينيها تحاول استرداد هدوءها وأخذت تخاطب نفسها:

- اهدئي، إنَّه لم يعد يعني لك شيئًا، دعيه يرى ذلك، ابتسمي وباركي له من أجل نفسك.

فتحت عيناها وعاودت الابتسام من الجيد أنَّ الكلَّ كان مشغولًا بمتابعة العروس فلم ينتبه لها أحد...

وصلت العروس إلى حيث يقف طارق وبدأت المراسيم وتعالت الأهازيج والأغاني وعم جو من الفرح والرقص وشارك فيها الجميع بما فيهم سارة وبعد أن هدأت الأجواء قليلًا وجلس طارق وعروسه على المنصة قالت سارة لحنين:

- هلا لي أنْ أطلب منك خدمة؟

- دائمًا يمكنك ذلك

- حتى لو كانت الخدمة شريرة قليلًا؟؟

- ما الذي تفكِّرين فيه أيتها الشريرة؟

قالت ببراءة:

- فقط أريدك أن تسكبي بعض العصير على طارق..

- اه وماذا بعد ذلك؟؟

- فقط لا غير، سأذهب إلى دورة المياه أطلب من جوانا أن تعرفك بالعروس وافعلي ما قلت لك..

- سارة، لا نريد إفساد الحفل

- بالله عليك كفِّي هراء وهل سيفسد الحفل لأن بضع قطرات من العصير سُكبت على بزة العريس؟؟؟

- حسنًا سأفعل، لكن ستخبرينني بكلِّ شيء.

- لك ذلك.. أنا ذاهبة

تركت الطاولة إلى دورة المياه وبالفعل لم تلبث طويلًا حتى دخل طارق وهو يشتمُ ويزمجر واتَّجه إلى الحوض لغسلِ يديه وإزالة أثار العصير عن طرفِ الكمِّ وهو يقول:

- تلك الخرقاء

خرجت سارة من مخبئها وهي تقول ساخرة:

- كلُّ هذا لأنهم أبعدوك عن عروسك الجميلة لثوانٍ؟؟

التفت إليها فزعًا وقال:

سارة!!

علم أنَّه وقع في الفخ وهي تبتسم وتقول:

- نعم سارة.. بالمناسبة ما اسم عروسك؟؟

ردَّ وهو يتحاشى النظر إليها:

- داليا

- اسم جميل وعروس جميلة، ولكن ماذا حدث لعبارة "عندما أتزوج سأتزوج سمراء مثلي" ها.. أين ذهبت؟؟

ظلَّ صامتا فاستطردت:

- ماذا حصل للفوارق العرقية وإنَّ هذا لن ينجح أبدًا، كيف سينجح الآن؟ أم أنَّ الأمر برمته كان حجةً للتخلص مني..؟؟

قال بسرعة:

- لا، ليس الأمر كذلك..

- إذًا كيف هو؟ لا أصدِّق أن كلَّ تلك المشاعر كانت زيفًا وكذبًا، إنَّ كلَّ تلك النصائح والدفعات لأبني حياتي الزوجية كانت فقط لإسكات بقايا ضميرك المتوجع.

- لا يا سارة لقد أحببتك حقًّا، كنت أروع من قابلتُ..

- أحببتني، وماذا بعد؟؟

ضحكت ساخرة وهي تكمل:

- آه.. لا أصدِّق أنَّك من النوع الذي يعتقد بمبدأ "واحدة للحبِّ وأخرى للزواج" كنت أنا التسلية ريثما تأتي الحقيقة..

- لست حقيرًا لهذا الحدِّ..

- بالفعل، فعلى الأقل أتقنت دور الصديق بعد انتهاء دور الحبيب

- أنا آسف حقًّا، إن كنتِ تظنيني أنني كنت أتسلى..

- لا، أنا الآسفة، أنا آسفة لأنِّي أحببتك يومًا، أنا آسفة لأنِّي جعلتك يومًا كلَّ دنياي، إن كنت سألوم أحدًا على تصديقي

أكذوبة الحب تلك فسألوم نفسي أنا، إن كنت سألوم أحدًا على إذلالك لي تلك المرة وهذه المرة فسألوم نفسي أنا، فأنا من صدق صداقتك الزائفة، أنا من صدق كذباتك المتتالية.

أغمض عينيه خجلًا فأكملت:

- لكن من الجيد أنَّ كل هذا قد انتهى الآن، فقد سبق وكنا حبيبين ثمَّ صديقين، أمَّا الآن أنت لا شيء، بالنسبة لي أنت غير موجود..

تحرَّكت للمغادرة فأمسك بمعصمها قائلًا:

- على الأقل اسمعيني

أبعدت يده عن معصمها بهدوء وقالت:

- سمعتك طوال عمري بما فيه الكفاية، والآن اكتفيت من الأكاذيب، بالمناسبة يقال "إن لم تتزوج حبيبتك فستتزوج حبيبة غيرك"

وغادرت تاركة إياه والخزي يملأه وعادت إلى الصالة قائلة لجوانا:

- ماذا فاتني؟؟

وأكملت السهرة في سعادة فبالنسبة لها طارق انتهى يقينًا لا شكَّ فيه وهذه كلمتها الأخيرة....

****

عندما انتهت الحفلة قررت جوانا العودة إلى منزلها فأخذت ابنتها وذهبت وهي في غاية الإرهاق وبالكاد تستطيع إبقاء عينيها مفتوحتين وكالعادة لم تجد ماهر بالبيت بالرغم من أنه لم يحضر الحفلة رغم دعوة طارق له شخصيًّا. خطَّت ملاحظة بالخط العريض

"حاول أن تعود مبكر لنحتفل، رجاء"

ووضعتها في مكانٍ بارز وعندما أرادت أنْ تأوي إلى سريرها شعرت بالاشمئزاز من النوم فيه فسحبت ملاية و لحافًا ونامت علي الارض. وهي تبتهل إلى الله أن يعود ماهر ويقرأ ملاحظتها والأهم أن يقبل بالعودة.

.....

وعادت سارة إلى البيت الكبير فتحت غرفة أبيها واقتربت من سريره فوجدته نائمًا بسلام فذهبت هي الأخرى إلى سريرها مطمئنة لتحدِّث هشام وتنام وكم كانت سعادتها عظيمة عندما استيقظت لصلاة الفجر لتجد أباها جالسًا في مكتبه يقرأ وهو يرتشف قهوته ببطء فانضمت إليه بسرور وجلست تثرثر معه بسعادة وعندما سألها عن حفلتها قالت:

- لا يمكن أن تصدِّق ما حدث، لكن سأخبرك بكلِّ شيء عندما أعود مساء، سأحاول النوم قليلًا قبل الذهاب إلى المكتب.

****

استيقظت حنين أيضًا مبكرًا لإعداد الفطور لحسَّان وتجهيزه للمدرسة وعندما وصل الباص كان حامد يستحمُّ فسألته من وراء الباب:

- هل أعطيت حسَّان مصروفه؟

ردَّ:

- نسيت، خذي من المحفظة وأعطيه

أخرجت المحفظة وفتحتها فوجدت صورة لامرأة أو بالأصح فتاة يافعة، إنَّها ليست هدى وبالتأكيد ليست زينب فمن تكون؟؟

أخذ حسان ينادي:

- ماما، سيتركني الباص.

أسرعت تناوله المصروف وتقبِّله وتدعو له بالسلامة. ثمَّ أسرعت تعود إلى المحفظة وتخرج الصورة وتدقق النظر فيها أنَّ المكان يبدو لها مألوفا، أمعنت النظر لا يمكن أن يكون ما تراه حقيقة، إنَّها هي في فترة الصبا أو ربما أخرى تشابهها فهي لا تذكر هذه الصورة إطلاقًا دخل حامد فرآها ممسكة بالصورة فابتسم وقال:

- أرى أنَّك وجدت سرِّي الصغير..

سألت بحذرٍ:

- من هذه؟؟

- أنت

- مستحيل، من أين لك هذه الصورة؟؟

أخذ الصورة من يدها ونظر إليها بشغفٍ وقال:

- أنا التقطتها لك في حديقة منزلكم.

هتفت غير مصدقة:

- ماذا؟؟ لابدَّ أنَّك تمزح.

أمسك بيديها وأجلسها وقال:

- صدقًا، أنا التقطتها

- كيف يمكن أن يحدث هذا؟

- حسنًا سأخبرك، في أحدِ الأيام كانت أمّي رحمها الله ذاهبة لزيارة زوجة أبيك وكنت أنا من أوصلها وكان معها الكثير من الأغراض فنزلت معها لحملها كانت تقف أمام الباب وأنا خلفها وقرعت الجرس وفُتح الباب وكنت أنت من فتح، أجمل من أجمل ما رأيت أبدًا لا يمكن أن أنسى شعوري في تلك

اللحظة أحسست بصاعقة ضربت كياني، شيء في غاية اللذة ليست شهوة بل شيء أسمى زلزلَ كياني. نظرت إلي وابتسمت للحظة قبل أن تختفي في الداخل. ومن تلك اللحظة أحببتك وقررت أن أتزوجك...

- لا أذكر هذا أبدًا، حتى أنني لا أذكر والدتك..

- معذورة إن لم تتذكري فأنا المفتون لا أنت، كنتُ حينها في السابعة عشر أو الثامنة عشر كما أخبرتْني أمي عندما سألتها في طريق العودة..

- إذًا فقد مرَّ زمنٌ طويل، ولكن ما علاقة ذلك بالصورة؟؟

- قررت أخذ صورة لحبيبتي وزوجتي المستقبلية فاشتريت الكاميرا وبقيت ستة أشهر أتحيَّن الفرص حتى جاءت عندما أوصلت أمي مرة ورأيتك جالسة في حديقة المنزل تقرئين فأسرعت أحضر الكاميرا وألتقط الصورة، أذكر أنِّي لم أنم ليلتها من فرحتي ولهفتي لأرى الصورة. بعدها أصبحت هذه الصورة لا تفارقني أبدًا، أقضي لياليًا أحادثها وأتخيلها تردُّ على

وعندما بلغت عامك العشرين تقدمت لك ورفضتني، وتزوجت هدى مع ذلك لم أستطع أن أنساك للحظة وتطلقنا وتقدمت لك ورفضتني، وتزوجت زينب بعد وفاة أخي وتقدَّمت لك مجددًا ورفضتني بعدها أصبح الأمر عادة لا يمكن أن تمرَّ ستة أشهر دون أن أحدث والدك في أمرك...

- يا إلهي ألم يؤثر رفضي المتكرر فيك؟

- كلُّ مرة يأتي الرفض أغضب وألعن وأقول إني لن أفكر في تلك المتعجرفة مرة أخرى وأمسك بالصورة ناويا تمزيقها لكن يدي لا تنثني لذلك ولا تطاوعني أصابعي، آه يا حنين لو تعلمين كم أمسكت بالصورة وخاصمتها وغضبت منها وألقيت بها في الدرج، ثمَّ لا ألبث أن أعود إليك وأضعها في محفظتي بالقرب من قلبي وكأن شيئًا لم يكن..

- لا أصدِّق كأني أشاهد فيلمًا.

- بالطبع لن تصدقي فأنت لم تعشقي أحدًا من الصبا إلى الشباب حتى الكهولة وأنت تعلمين أنَّه لا يقيم لك وزنًا لا تعلمين كم هذا صعب على كبرياء الرجل

قالت بخجل:

- ومع ذلك ظللت تحبَّني.

- للقلب أسبابه التي يجهلها العقل، تعرفين يوم خطبتك رسميًّا، رأيتك كنور البدر رغم أنَّك في حالة يرثى لها ومن الواضح أنَّك بكيتِ لساعاتٍ إن لم يكن لأيام، رأيتك وعلمت أنَّك ترفضينني قلبًا وقالبًا، لكن ليسامحني الله لم أستطع أن أتخلى عن حلمي في أن تكوني لي، عن حلمي في حبنا، عن حلمي في بيت يجمعني بك، فقلت في نفسي "سأسعدها وأجعلها تنسى كلَّ هذا" فهل أسعدتك؟

ظلَّت تنظر إليه مبهورة فلطالما ظنَّت أنَّ سبب إصراره هو الكبرياء، ولم يخطر لها ولو للحظة أنَّ في الأمر حبًّا، بل وحبًّا من عهود الصبا. فقالت: أكثر مما تتصور، اه يا حامد كم أنت صبور.

أمسك بيديها وهو ينظر إلى عينيها مباشرًا وقال:

- ربما أكون شخصًا صامتًا، لكن ما في قلبي أكبر من الكلمات، ربما تخبرك عيناي إن نظرت إليهما، ربما تخبرك

دقات قلبي عن تلك النار المشتعلة فيه لا تهدأ ولا ترمد، أحبُّك يا حنين، هذا كل ما أستطيع قوله و...

خنقت بقية جملته بقبلةٍ تملُّكيةٍ مجنونة فبادلها شغفًا بشغف.

****

حدَّقت راقية في ماهر وهي تراه يقف مغادرًا وقالت:

- إلى أين؟؟

تنحنح في حرجٍ وهو يقول:

- إلى البيت.

- أهو الحنين إلى الحبِّ الأول أم ماذا؟

جلس وأمسك بيدها وهو يقول:

- ليس الأمر كما تظنين، كلُّ ما في الأمر أنَّها أعدَّت حفلة صغيرة بمناسبة عودتها ولا أريد أن أخذلها..

لوت فمها قائلة:

- لا تريد أن تخذلها، أم أنك سعيدٌ بعودتها إلى المنزل؟؟؟

رفع يدها إلى فمه يلثمها بحرارة وهو يقول بهمس ناعمٍ:

- تعرفين جيدًا أني بتُّ لا أطيقُ حتى النظر إليها وأنك أنت من أودُّ قضاء عمري معها يا حبي الأبدي..

أشرق وجهها بالسرور ثمَّ رسمت تكشيرة وقالت:

- لماذا تريد الذهاب إذًا؟

- يجب أن أذهب يا حبِّي، منذ ولادة سارة لم نجلس سويًّا على مائدة واحدة، لم نتحدث، لم أجد وقتًا لملاعبة طفلتي..

- حسنًا اذهب، إن كنت تريد ذلك.

- أنت تلوين ذراعي، لا أستطيع الذهاب وأنت مستاءة..

ابتسمت ابتسامة حلوة وقالت:

- لست مستاءة، فقط أريد سعادتك وأعلمُ أن سعادتك لست معها

لكن يجب أن تلبي نداء الواجب..

- أنت أروع من قابلت، في أيّ قلعة سحرية كنت مسجونة؟؟

ضحكت بحبور وقالت:

- اذهب قبل أن يتحوَّل الحفل إلى نكدٍ، حاول أن تفكر بي ولو قليلًا

طبع قبلة على شفتيها وقال:

- بل أنت كلُّ ما أفكر به

****

أخذت سارة ترتب أوراقها استعدادًا لمغادرة المكتب بعد أن غادرت حنين وعندما تعالى رنين هاتفها النقال شعرت بانقباضٍ مفاجئ أسرعت بالردِّ على أمها قائلة:

- أهلًا أمي.

- سارة عمُّك سقط مغشيًّا عليه فجأة ونحن في الطريق إلى المستشفى..

أحسَّت سارة بطعنةٍ سكين في خاصرتها فسقطت على الكرسي وهي تقول:

- لقد تركتُه صباحًا بصحة جيدة، كيف حدث هذا؟

- لا أعلم يا سارة، الحقي بنا إلى المستشفى..

أسرعت تغادر وهي تبتهل إلى الله أن يكون بخير.

****

دخل ماهر المنزل فاستقبلتْه الروائح الفواحة والإضاءة الخافتة فعادت به الذاكرة إلى الأيام الخوالي عندما كان حبُّه لجوانا يملك عليه فؤاده، جاءت جوانا تستقبله بابتسامة عريضة قائلة:

- وصلت في الوقت المناسب، لقد وصل العشاء للتو.

- طلبت عشاءً من الخارج؟ ماذا حصل للميزانية والتوفير والحسابات

ردَّت بعذوبة:

- اليوم سيكون مختلفًا في كلِّ شيء

- أين سارة؟

- نامت في سريرها مثل الملاك، الليلة ليلتنا أنا وأنت فقط..

اقترب منها وأحاط خصرها بذراعيه وعندما همَّ بمعانقتها أشاحت بوجهها عنه وابتعدت عنه وهي تدور حول نفسها قائلة:

- ما رأيك بثوبي...

قيَّمها بنظراته قبل أن يقول:

- أنيقة، مثيرة، لم أكن أعلم أنِّي مشتاقٌ لكِ إلى هذا الحد.

- إلى أيِّ حدٍّ؟؟

اقترب منها مجددًا وهو يقول:

- إلى حدِّ أن ننسى أمر العشاء، أحملك إلى غرفة النوم لأتذكر كم أنت جميلة ومثيرة..

- اه، لا تفسد الليلة لكلِّ شيء أوانه، هيَّا قبل أن يبرد العشاء.

جلسا على المائدة يتحدثان بمرحٍ حقيقيٍّ وبعد العشاء اقترحت جوانا شرب القهوة في الشرفة وأصرَّ ماهر على صنعها بنفسه. وعندما عاد وجدها تقرأ ورقة تقويم في يدها فسألها ببساطة :

- ماذا تقرئين؟

رفعت بصرها من الورقة قائلة:

- حكمة عظيمة قلَّما يعمل بها الناس هذه الأيام.

- ماهي؟

- قرأت من ورقة التقويم "أراد رجلٌ تطليق زوجته فلما سئل ما يسوؤك منها. فقال العاقل لا يهتك سترة زوجته, فلمَّا طلَّقها سئل لم طلقتها فقال:

مالي والكلام عن من صارت أجنبية عني"

ثمَّ نظرت إليه وأكملت:

- قمة الرقي والأخلاق على خلافِ ما يحدث الآن لمجردِ خلافٍ بسيطٍ يبادر الزوجان بذكرِ مثالبَ وعيوب الطرف الآخر متناسين سنوات العشرة وما للآخر من مزايا وفضائل، والأدهى وما يؤلم أكثر يذرُّ ذلك للقريب والبعيد، لمن يعنيه الأمر ومن لا يعنيه ألا يفكر أنَّ شريكه قد يسمع ما قيل؟ ألا يفكر أن الدنيا دوارة، بصراحة أنا أعتبر إنسانًا مثل هذا خسيسًا وحقيرًا وعديم الشرف.

توترت ملامحه قليلًا وهو يقول:

- بالفعل إنه كذلك...

أخذت رشفة من قهوتها وقالت:

- رائعة كما أحبُّها تمامًا، ماهر لمَ اعتزمت تسمية ابنتنا راقية؟

جفل لكنَّه تدارك الأمر بسرعة ووضع فنجان القهوة من يده وقال:

لأنِّي أردتها أن تكون راقية خلقًا وأدبًا وعلمًا مثلك.

ردت:

- مممممم... تبرير غير مقنع

ضمَّها إليه للحظات أحسَّت فيها نفسها متشنجة غير قادرة على الاستجابة فابتعدت عنه وقالت بنبرة حزينة:

- ثمة شيء مختلف، لم تعد ماهر الذي يهيم بي حبًّا...

أمسك بيديها وقال:

- لا تتوهمي أشياء لا وجود لها..

هزَّت رأسها قائلة:

- ليس وهمًا، لم يعدُّ وهج الحب يلمع في عينيك عندما تنظر إلي، لم يعد موجودًا ذاك الدفء عندما أضمُّك إلي، ثمة ما أو من يقف بيننا، وإحساس المرأة لا يخطئ في هذا.

شعر أن ثمةَ ما تحيكه جوانا فقال بقسوة محاولًا قلب الطاولة عليها:

- عين المظلوم تنام لكن عين الظالم لا تنام.

اتَّسعت عيناها من الصدمة وقال متسائلة:

- لا أظنك تقصد أنني الظالمة؟

كان صمته بمثابة ردٍّ بالإيجاب فأخذت نفسًا عميقًا في محاولة للسيطرة على غضبها وقالت:

- لنناقش الأمر بهدوء. ما الذي قصَّرتُ فيه؟

- اهتمامك الأول ينصبُّ على تكوين أسرة لا على أنَّ الاهتمام القلبي لي مفقودٌ..

- وضِّح ما تعنيه بالاهتمام القلبي؟

- أن تحبيني، أن تدلليني، أن تعتني بأدقِّ التفاصيل في حياتي، أن تكوني حبيبتي قبل أن تكوني زوجتي...

ضحكت جوانا من فرط غيظها فصرخ:

- أرأيت كلَّ ما أقوله، بل كل ما يتعلق بي في نظرك تافه ومثير للسخرية، ولا تريدين لحبي أن يخبو...

- ليست سخرية، لكن ألم تلاحظ أنني كنت في فترة حمل وأمرُّ بمئات التغيرات وأنَّك انسحبت تمامًا من حياتي، ولم تشاركني في شيء، حتى لحظة مولد طفلتي لم تكن موجودًا ومع ذلك لم أشكو أو أتذمر بل واختلقت لك الأعذار وعدت لنبدأ من جديد، ثمَّ تأتي أنت لتنوح على بابي بأنني ظالمة، أليس لديك ذرة من الانصاف؟؟

لوى فمه باحتقار وقال بقسوة بالغة:

- حسنًا أنا على خطأ وأنتِ على صواب، أليس هذا ما تريدين سماعه؟

- ما أريده هو أن نرفع الرماد عن شعلة الحب التي تخبو

- لأعود خاتمًا في إصبعك تحركينني كيفما تريدين..

اقتربت منه ونظرت إلى عينيه وقالت:

- أتذكر عندما كنت تركع عند قدمي، وتقسم أنَّك لن تتوقف عن حبِّي أبدًا لو هجرتك، لو صددتك، حتى تسقط نجمات الليل نجمة نجمة

أغمض عينيه يكافح الذكرى فتنهدت بحرقة:

- لم أصدَّك، ولم أهجرك، لكن ما أسرع ما سقطت نجمات سمائك، حتى أننا لم نكمل عامنا الأول

ظلَّ صامتًا مطرقًا أرضًا فقالت:

- يبدو أنَّ الوضع الحالي يروق لك، لا بأس لنرى إلى أين ستصل بنا الأمور.

وخرجت من الشرفة.

****

سارة من النوع الذي يتوتر من معدتِه فكلَّما كانت متوترة داهمها مغصٌ وطوال الطريق إلى المستشفى كان المغصُ يزداد حدة بصورة لم يسبق أن شعرت بها من قبل ولما وصلت بالكاد كانت تستطيع الوقوف منتصبة من شدة الألم وهي تسرع إلى قسم الطوارئ ولما وصلت كان المشهد أبلغ من الكلام صوت البكاء ونحيب أمها، شفيقة، مها، هشام على عكازين، عبير، الكلُّ في حالةِ انهيارٍ أسرعت إلى أمها تسأل مذهولة:

لا تقولوا إنَّه مات، لقد تركته صباحًا في أحسنِ حال..

قالت الأمُّ من بين دموعها:

- أجلٌ وانتهى رحمك الله يا آدم

سقطت على الأرض بكت سارة بحرقة لم تبكيها يوم مات والدها، أحسَّت بجمرة نار تتقد في قلبها كما لم تشعر يومًا وقامت من مكانها وقالت:

- أريد أن أراه

مع وقوفها عاد المغص يهاجمها من جديد لكنَّها أصرَّت رغم ذلك على الذهاب إلى سرير أبيها آدم لإلقاء نظرة أخيرة عليه فكانت تمشي منحنية من شدة الألم، وصلت إلى طرف السرير وعجزت تمامًا عن تحريك قدميها وتلاشت الأصوات من حولها فأدركت أنَّها على وشك الإغماء قبل أن تميد بها الأرض وتسقط.

****

مرَّت ساعة أو أقل قليلًا قبل أن تعود جوانا إلى الشرفة وفي يدها هدية مغلفة ووجدت ماهر جالسًا في مكانه غارقًا في التفكير العميق فوضعت الهدية بين يديه وقالت:

- تفضل إنها لك

سأل مستغربا:

- ما هذا؟

- افتح وسترى.

فتحها فإذا بداخلها تمثال فقال مندهشًا:

- جائزة الأوسكار؟

- رائعة، أليس كذلك؟ لقد صُنعت خصيصًا من أجلك

- من أجلي؟ علام؟

- لقد أثبتت أنَّك بارع في التمثيل، لذا استحققتها بجدارة، حقيقة يا ماهر كان يجب أن تحترف التمثيل كنت ستبلي فيه أحسن البلاء..

- عن أي تمثيل تتحدثين..

- تمثيل دور الحبيب المظلوم مكسور الفؤاد ضحية المرأة الخطأ..

- وهل تنكرين هذا ؟؟؟ إنك.....

وضعت يدها على فمه تمنعه من الاسترسال وقالت وهي تنظر إلى عينيه مباشرة:

- أعرف كلَّ شيء عن راقية.

ارتبك للحظة قبل أن يتدارك نفسه ويقول:

- من راقية؟

- أرأيت كم أنت بارع؟ حسنًا دعني أنعش ذاكرتك قليلًا، راقية التي التقيتَ بها بعد حادثة مصفاة التكرير، وتوطدت علاقتكما أثناء فترة حملي، راقية عاهرتك التي جئت بها إلى بيتي وأخبرتها كلَّ شيء عنا وعن حياتنا حتى التفاصيل الحميمة، راقية عاهرتك التي كنت تعبثَ معها في فراشي وأنا أعاني الطلق في ولادة سارة، راقية التي كنت تريد تسمية ابنتي أنا باسمها، راقية التي خرجت معها لا بل جلست معها هنا ليلة العيد وأنا أكاد أن أموت قلقًا عليك

راقية معبودتك الجميلة المرحة الحنونة الصغيرة بخلاف زوجتك المتسلطة النكدية المسنَّة عديمة المشاعر، هل تذكرتها أم أتابع سرد جولاتكما؟؟

هذه المرة جحظت عيناه بقوة وقال وهو يزدري لعابه بصعوبة:

- كل هذا هراء، الناس يكذبون

قالت ببرود:

- الناس؟ هذا الهراء سمعته من فم راقية مباشرة بدون وسيط فحبيبتك ثرثارة أكثر مما يجب، فلا داعي للإنكار...

صرخ بغلٍّ:

- أنت السبب، لو لم تتوقفي عن حبِّي، لو لم تضعيني في المرتبة الثانية لما فكرت في غيرك ولا حتى نظرت إلى سواك..

قالت وهي تعض على نواجذها من الغيظ:

- ولو كنتَ رجلًا حقيقيًّا وتحمَّلت مسؤوليتك كما يجب لما كان لديك وقت للبحث عن الحب أو حتى التفكير في ذلك، ما حصل قد حصل ولسنا بصدد بحث من المتسبب السؤال هنا:

- ما التالي؟؟

- أرأيتِ أنَّك عديمة المشاعر وبلا قلب تقفين بكلِّ شموخ لتناقشي خيانتي بلا دمعة واحدة..

- من أجلك، ومن أجل سارة، ومن أجل حبِّنا الكبير تجاهلت ألمي بخيانتك تجاهلت تحقيرك إياي وإساءَتك لي، لذا أقفُ بكلِّ شموخٍ كما تقول لأدافع عن حبِّي ومستعدة للصفحِ والنسيان والبدء من جديد.

زفر في ضيق وقال بحدة:

- كل ما يهمك هي الأسرة، أمَّا مشاعري لا تهم، لم أعد أحبُّك، أحبُّها هي.

انفجرت في غضبٍ قائلة:

- أهذا هو الحب الذي تصبو إليه، رحلات وسهرات في كلِّ نادٍ ومرقص، سكر وعربدة، ليالٍ حمراء ماجنة، أهذا هو الحب امرأة تساير نزواتك وحماقاتك

ما زلت يا ماهر غرًّا لا تفرق بين حبٍّ يبني أسرة ونزوة تدمر سمعتك وحياتك، ما أعرضه عليك هو الحبُّ الحقيقي ولن تجد مثله أبدًا..

- أنت أغرب امرأة..

- ولماذا لأنِّي باقية على الود؟؟ ألأني أريد أن تنشأ ابنتي مع أبيها؟ فهل ستُنهي هذه المهزلة أم لا؟؟

- أنا لم أخطئ، كلُّ ما في الأمر أنِّي أعيش حياتي مع من أحب

- رائع يبدو أن تأثير راقية عليك إيجابي فقد بدأت تقوِّي شخصيتك، ولكن ألا ترى في خيانتي وإساءتك لي من الخطأ ما يستحق الاعتذار..

قال بعناد:

- لقد أحببت واستمتعت ولن أعتذر..

- حسنًا يمكنك البقاء مع عاهرتك، أمَّا أنا فلن أبقى ندًا للعاهرة أبدًا..

ظلَّ صامتًا لا يرد فاغرورقت عينيها بالدموع وهي تقول:

- يا للسخرية، أهذا هو الحبُّ الذي كدت تنتحر من أجله؟ ليتني تركتك يومها تنتحر قبل أن تنحرني اليوم بسكين الخيانة، فهو لك يكن حبًّا.

قال بقوة:

- لقد أحببتك حقًّا

قالت بأسى:

- لم يكن حبًّا، أنا مجرد نزوة، إنَّ حبًّا أمكن يومًا أن ينتهي لم يكن حبًّا في يومٍ من الأيام...

قال بضعفٍ:

- أنت من لا يريد هذا الحبِّ...

اشتطَّت غضبًا وقالت:

- لا أريد؟ وما تظنني أحاول فعله منذ الصباح؟ أليس الحفاظ على حبِّنا؟ ولكن تعرف من يريد حبك التافه؟ من يريد حبك الذي لم يصمد حتى عامًا؟ خذ حبك التافه الصبياني واذهب بها إلى الجحيم، وأرسل لي ورقة طلاقي في أقرب وقت ولتهنأ بعاهرتك...

****

ما أن وصلت جوانا إلى منزل أسرتها حتى أسرعت إلى غرفتها واضعة سارة في مهدها ثمَّ ارتمت على السرير تبكي وتشهق محاولة إخراج الألم الذي يعتمل داخل صدرها. أحسَّت أمها بحركتها فجاءت تستطلع الأمر وتعرف سر عودتها في هذا الوقت المتأخر لتفاجأ بها باكية منتحبة، فأسرعت إليها تضمُّها وتسألها:

- ما بك؟ ما الذي حدث؟ هل ماهر بخير؟

هزَّت رأسها نافية وازداد نحيبها وبكاؤها وعجزت عن الكلام فعادت تسأل:

- هل اختلفتما مجددًا؟

أومأت بالإيجاب وارتمت في حضنها تنشد الأمان والسكينة. أخذت الأم تهدئها وتربت على ظهرها بحنان وهي تقول:

- يا صغيرتي، لا يخلو بيت زوجي من المشاكل، ارتاحي الآن وستكون الأمور أفضل في الصباح، ولن تكون أبدًا بهذا السوء.

رفعت رأسها قائلة:

- صدقيني لن يختلف الأمر، وصلنا لنقطة اللاعودة..

ابتسمت الأمُّ مطمئنة وقبَّلتها قائلة:

- اهدئي ونامي فقط ولا تفكِّري في شيء، سآخذ سارة معي، وأنت نامي.

وما أن خرجت أمَّها حتى عادت دموعها تنهمر مجددًا فدفنت رأسها في الوسادة محاولة كتم صوت بكائها حتى لا تزيد قلق أمها حتى غلبَها نومٌ أسودُ كئيبٌ

وفي الصباح وجدت جوانا أسرتها في انتظارها وقد استبَّد بهم القلق فلا أبوها ولا طارق ذهبا إلى العمل. قالت الأم فور أن أنهت كوب الشاي بعد أن رفضت أكل أيِّ شيء:

- هل تظننين أنك قادرة على إخبارنا بما يحدث معك؟

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تروي لهم القصة منذ أن أخبرتها حنين بالأمر حتى طلبها الطلاق البارحة.

أمسكت أمها بيدها مواسية في حين ضرب طارق الطاولة بقبضته وهو يقول بغلٍّ:

- الحقير، انتظري حتى أضع يدي عليه سينسى أمر تلك الحقيرة تمامًا.

مسحت الدموع بظاهر كفِّها قائلة:

- لم يعد ذلك يجدي يا أخي..

قال الأب:

- ما كان يجب أن تدعي الأمور تصل إلى هذا الحد، كان يجب أن تسايسيه.

- أسايسه؟؟ يا أبي يجب أن أعترف أنني قامرت وخسرت، كنت أعلم أني أقامر للاختلاف الحاد في طباعنا لكنِّي ظننت أنَّ الحب سيوفِّق بيننا متناسية طيشه وصغر سنه ودلاله؛ لذا ببساطة خسرت ويجب أن أتحمل نتائج مقامرتي

الأم:

- كان يجب ألا تتركي البيت ولو من أجل سارة

- وهل تظنين أنه يهتمُّ لها؟ منذ مولدها وأنا هنا كم مرة جاء لأجلها، إنه لم يقضِ معها نصف ساعة، إنه لم يرغب بها أساسًا. ثمَّ ما جدوى بقاء في المنزل وهو طوال الوقت إما في العمل أو معها، الأفضل لسارة أن تنشأ في جوٍّ سليم وهي لا تعرف إلا القليل عن أبيها على أن تنشأ في جوٍّ مشحون بالكره وأب وأم يتشاجران طوال الوقت..

الأب:

- ماذا سيقول عنك الناس؟

تنهدت قائلة:

- أفضل مما سيقولونه عني وأنا أعيش مع رجل لا يريدني ويقضي جلَّ وقته مع عشيقته متباهيًا بها في أنحاء البلدة...

طارق:

- كيف ترضين أن تهزمك عشيقة؟

- لم تهزمني عشيقة، هزمني طيشُ ماهر وأنانيته وعناده.

الأم:

- يا إلهي، أين ذهب ذاك الحب الذي كاد أن ينتحر من أجله؟

- عندما أنظر إلى الأمر الآن أرى أنَّ المسألة لم تَعْدُ عن كونه طفل رأى هدية كبيرة مغلفة فظنَّها أفضل الهدايا وظلَّ متشبثًا بها مصرًّا على الحصول عليه مهما كان الثمن وعندما حصل ذلك وفتحها وجد أنَّها غير مسلية كما ظن أو أنها أعلى من مستوى إدراكه فألقاها دونما اكتراث وذهب يبحث عن لعبة أخرى..

طارق:

- أنت تبالغين، إنه لن يلقي بك أبدًا فقط امنحيه فرصة ودعيه يأخذ وقته.

- أتظن اني لا أريد أن أعود سعيدة معه مجددًا؟؟ بلى أريد بشدة لكن لن أخدع نفسي بالآمال مرة أخرى لم يعد يريدني، وإن ذهبت راقية فستكون هناك ثانية وثالثة ورابعة، إنّه زوجي وأنا أكثر من يعرفه، ماهر لم ينضج بعد سيحاول إثبات رجولته بالبعد عني لذا لن يكترث، لن يهتم، إنني بطلب الطلاق أحاول حفظ ماء وجهي والبقية الباقية من كرامتي؛ لأنني اعرف أنه سيطلِّقني سواء طلبت أو لم أطلب فأنت لم ترَ كيف هو مدلهمٌ في حبها، سيفعلها في أسرع وقت، أتظنون أنَّ الأمر يسرَّني.. إنها حياتي التي تُدمر، إنه قلبي الذي يحترق.. إنه حب...

لم تستطع إكمال عبارتها فقد غصَّ حلقها بالعبرات فارتمت في حضن أمها فشاركتها الأم البكاء وهي تضمها اليها. بينما احتقن وجه أبيها وهو يرى ما آل إليه حالُ ابنته وقال:

- من كان يظنُّ أن ماهر الطيب المسالم قادرٌ على إحداث كلِّ هذا القدر من الدمار؟

ظلَّ طارق يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا كأسدٍ حبيس. تعالى رنين جرس الباب فاتَّجه لفتحه فقالت الأم:

- أيًّا من كان الزائر اعتذر منه فنحن غير مستعدين لاستقبال أحد

أومأ برأسه وغادر الغرفة وعاد بعد لحظات وعلى وجهها أعتى أمارات الصدمة فسأله والده:

ـ من كان بالباب؟

عجز عن الرد تمامًا وكلُّ ما استطاع فعله ناول والده الورقة التي بيده وما أن نظر إليها الأب حتى هتف بغضبٍ:

- الحقير .. النذل.. الجبان

رفعت رأسها تستفسر:

- ماذا حدث؟

ظلَّ الجميع صامتين فقامت من مكانها لترى الورقة التي بيد والدها وقبل أن تصل قالت:

- لقد فعلها.. أليس كذلك؟

قال الأب بانكسارٍ: يا بنيتي....

لم تسمع بقية عبارته فقد اسودَّت الدنيا في عينيها قبل أن تميد بها الأرض وتقع فاقدة الوعي..

****

عندما استيقظت سارة كانت حنين تجلس على كرسيٍّ بجوار سريرها فقالت سارة:

- ماذا حدث؟ أين أنا؟

- حمدًا لله على سلامتك، أنت في المستشفى

عادت بها الذاكرة لما حدث قبل إغمائها فقالت وهي تحاول النهوض:

- ساعديني يا حنين أريد أن أرى أبي وأودِّعه قبل دفنه

لكن الألم داهمها فأمسكت بها حنين تعيدها إلى رقدتها الأولى وهي تقول:

- لقد دُفن العم آدم

صرخت سارة:

- ماذا؟ لماذا لم ينتظروني؟

- سارة أنت في غيبوبة من يومين، من المستحيل الانتظار كلَّ هذا الوقت..

وضعت رأسها على الوسادة تاركة العبرات تسيل على خدِّها من جديد وهي تقول:

- رحمك الله يا أبي، من لي بعدك في هذه الدنيا؟

تركتْها حنين تفرغ حزنها عبر دموعها وعندما حاولت الجلوس هاجمها الألم من جديد صرخت من شدة الألم:

- اه .. يا إلهي.. ما سبب هذا المغص الفظيع؟؟

أرخت حنين بصرها وهي تساعدها على الجلوس وقالت:

- سارة أنت فتاة مؤمنة، لقد فقدت الجنين...

صرخت سارة وهي تلطم خديها:

- ماذا؟؟ لا يمكن أن تكوني صادقةً؟ كيف يمكن أن يحدث هذا أفقد الأمن والأمان وأفقد الأمل في يومٍ واحدٍ؟ يا إلهي هذا كثير....

حاولت حنين الإمساك بها وتهدئتها وهي تقول:

- اهدئي يا سارة

صرخت:

- اتركيني ..لن أهدأ، لا أريد أن أهدأ، كلاهما في يومٍ واحد، ماذا بقي لأعيش لأجله، لم يعد هنا ما يستحق الحياة، ليتني أموت وأرتاح من هذه الحياة

كانت تتكلم وتبكي وتلطم فأسرعت حنين بطلبِ الطبيب الذي أعطاها حقنة مهدئة فغابت عن الوعي وهي تهلوس وتبكي..

بقيت عدة أيام في المستشفى رافقتها خلالها حنين. وعندما صرح لها الطبيب بالخروج جاء هشام لاصطحابها وما أن رأته حتى أجهشت بالبكاء وهي تتذكر أباها آدم فضمَّها إليه وأخذ

يواسيها رغم دموعه وأصرَّ على أن تذهب إلى البيت لتكون تحت عينه ورعايته فالكل مجتمع هناك.

كان الدخول إلى البيت الكبير من أصعب الأمور على نفس سارة ففي كل حجرة، بل في كل زاوية وركن كان لها ذكرى مع أبيها آدم، شعرت وكأنه سيناديها في لحظة فأسرعت إلى حجرتها تلوذ بها محاولة الاستسلام لصدمة موت أبيها..

فتحت سارة عينيها المتورمتين على صوت صراخ أمها:

- سارة انهضي وارتدي ملابسك بسرعة المحامي ينتظرك.

- ينتظرني؟ لماذا؟

- أكنت تعلمين أنَّ عمك آدم رحمه الله ترك لك هبة؟؟

- نعم، كنت أعلم

- ماذا؟ هل تريدين أن تقتليني يا فتاة؟ يجب أن تتنازلي عمَّا وهبك إياه لأصحاب الحق.

- ولماذا أفعل ذلك؟ هو صاحب الحق وأعطاني إياه بطيب خاطر.

- هل أنت مجنونة؟ هل تريدين أن يقول الناس إني جئت بابنتي لهذا المنزل لغرض استغلال آدم؟

- في حال لم تلاحظي، إنهم يقولون ذلك فعلًا منذ زمن بعيد

- وستكون هذه الهبة بمثابة صك إثبات لما يقولون، هيا اجهزي بسرعة فقد طلبت من المحامي الانتظار بعد الانتهاء من قراءة الوصية لتتنازلي عن الهبة..

- آسفة يا أمي، لكن لن أفعل ذلك، أبي آدم وهبني شيئًا لا أعرف حتى ما هو لكني أعرف أنَّه كان سعيدًا وهو يخبرني بها وهبني ليس لأني محتاجة إليها بل تعبير عن حبِّه وتقديره لي؛ لذا اعذريني يا أمي لن أتنازل عن الهبة

- لطالما كنت أنانية عنيدة، ألا يمكنك أن تفكري فيَّ أو في أختيك ولو قليلًا.. إنك تضعينهما في موقف محرج..

وقف سارة تواجه أمها والغيظ يملأ قلبها وقالت:

- وأنا من يفكر بي؟ ها أنت تدخلين عليَّ وتصرخين، ولم تفكري للحظة بي، لم تفكري بألمي لفقدي عمِّي بل أبي دون أن أحظى بفرصة وداعه أو حتى أخذ العزاء فيه، لم تفكري في ألمي بفقدي للجنين الذي كان يمكن أن يضمن الاستمرارية لزواجي، لم تفكري أنَّ موت عمي قد يعني النهاية لزواجي فقد هدد أبي هشام بالحرمان من الميراث إذا لم يتم الزواج بي ها قد نال الميراث فلمَّ سيبقى معي..

مسحت دموعها المتساقطة بظاهر كفها وأكملت:

- لكن كلَّ ما لا يتعلق بابنتيك لا يعني لك شيئًا ولا يمكن أن تفكري به.

تنهدت الأم وقالت:

- أنت أيضًا لم تفكّري للحظة في مشاعري ومشاعر أختيك ونحن نراكِ أنت الغريبة عن آدم تتسلين إلى قلبه وحياته جاعلة منَّا في المرتبة الثانية، لا يبدأ يومه إلا معك، لا يشرب قهوة المساء إلَّا من تحت يدك، يفضل قضاء الساعات الطوال معك على البقاء دقائق معنا.. لا يطلب المساعدة في حاجاته الخاصة إلا منك، حتى بتِ أنت القريبة ونحن الأغراب، والأدهى يهدد ابنه من أجلك، حتى وهو يمت كان آخر اسمٍ على لسانه، هو اسمك..

- لكن يا أمي كنت أفعل ذلك لتفخري بي وعن نية طيبة.

- حتى طيبتك كانت حرقة في قلوبنا ونار تشوي أكبادنا من الغيرة والحقد، عموما هذا أصبح من الماضي، البسي والحقي بي فنحن لا نريد جعل المحامي ينتظر أكثر..

أحسَّت سارة بالنيران تشتعل في قلبها ودماغها من الغضب فقالت بحرقة:

- أمي، لمرة واحدة في حياتك نحِّي كل شيء جانبًا كوني إلى جانبي، أنا اليوم على حيطان الأربعين، كل هذه السنين لم أجدك لو لمرة إلى جانبي، لا في طفولتي، ولا مراهقتي، ولا في شبابي، ولا حتى في زواجي، أمي أرجوك.. لا أعرف لماذا أناديك أمي؟ فأنت لم تكوني أمًّا لي ولو ليومٍ ولم تخجلي من إعلان ذلك أمامي، علاقتي بك جرحٌ مستديمٌ في قلبي، في كلِّ لحظة أحتاجك فيها تزيدين الحرج إيلامًا.

أحست بجسدها يرتجف من فرط الانفعال والغضب فجلست على طرف السرير تمسح دموعها

- أنت عاقَّة جاحدة..

ردت سارة من بين دموعها:

- وأنت ماذا؟؟ لقد عققتني قبل أن أعقك، أتظنني لأنك الأم لن يحاسبك الله؟ سيحاسبك قبل أن يحاسبني..

قالت الأم باحتقار:

- وهل تعرفين أنت الله؟ الله يقول ﴿بالوالدين إحسانا﴾.

ردَّت سارة بكلِّ حرقة السنين وكلِّ الغضب المعتمل في قلبها:

- "بالوالدين"، الوالدة من ربَّت وعلمت وحنت وعطفت، ليس من خلفت ورمت، بكل مقاييس الدنيا أنت لم تكوني أمًّا حتَّى أني لم أرضع من حليبك، أنا وأنت منذ انفصم حبل السرة انفصم معها حبل علاقتنا، أنا أعد عن كوني عبدة يلذ لك استرقاقها..

وارتمت على السرير دافنة رأسها في الوسادة تبكي بحرقة، ظلت الأم واقفة غير قادرة على التقدم وضمِّ ابنتها، ولا هي قادرة إنسانيًّا على المغادرة والفتاة في حالة الانهيار. لكن العناية الإلهية لم تتركها فقد جاء هشام على إثر أصواتهما المتعالية وعندما رآها بهذه الحالة هرع إليها مذعورًا يسألها:

- ما بك؟ ما الذي حدث؟

رفعت رأسها تنظر إليه وهي تبكي فضمَّها إليه بحنان فهو لم يسبق أنْ رآها منهارة هكذا. أمسك الهاتف يطلب كوبًا ماء من المطبخ وهو ينظر إلى أمِّها التي ظلَّت واقفةً مكانها وكان الأمر

لا يعنيها حقيقة، إنَّه عاجزٌ عن فهمِ علاقتهما المضطربة. أحضرت الخادمة الماء وخرجت حاملة الأخبار إلى أهل الدار.

في حين بقيت سارة مستكينة في حضن هشام يلاطفها ويمسح دموعها وعندما همَّت الأمُّ بالمغادرة اقتحمتْ شفيقة وعبير الغرفة وخلفهما مها ومايا اللتان وقفتا بجوار أمهما متفرجتين حاولت سارة الابتعاد لكن هشام أبقاها في حضنه.

نظرت إليهما عبير باشمئزاز وقالت:

- سمعنا أنَّك متعبةٌ، كيف حالك الآن؟

قالت شفيقة:

- لا بدَّ أنَّها تحسَّنت بعد أنْ سمعت بما تركه لي أبي.

قالت عبير بسخرية:

- قالت أمها إنَّها ستتنازل عنها، أليس كذلك؟

ضحكت شفيقة وقالت باحتقار:

- وهل صدقت هذا؟؟ قلنا مجرد فتاة يتيمة يعطف عليها أبي وتخدمه .. فاستولت عليه والآن تحاول الاستيلاء على الابن، على كلِّ حال هكذا ترين أن أساليبك الطفيلية لم تذهب هباءً...

اعتدلت سارة وقالت:

- لطالما عرفت أنكم تفكرون بي هكذا ولكن لم أهتمُّ مادام سعيدًا وراضيًا عني، عمومًا أساليبي المتسلقة جعلتني أقربُ وأحبَّ إليه منكن، حاولي التعايش مع هذه الفكرة المحبطة يا شفيقة...

عضَّت شفيقة على نواجذها من الغيظ وقالت:

- مثل ما ستتعايشين مع حقيقة أنَّ دورك في هذه الأسرة انتهى وقد حصلت على مكافأة نهاية الخدمة بتلك الهبة فلا تدعيني أرى لك وجهًا بعد الآن

أكملت عبير بفرحة:

- حتى عمِّي رحمه الله، كان يعرف أننا انتهينا منك فترك لك تلك الشقَّةَ التي تعيشين فيها كي لا تتشردي من بعده، وهكذا لن يشعر هشام بالذنب وهو يطلقك..

تسارعت دقات قلبها ونظرت إلى هشام الذي قال بلهجة ساخرة:

- ومن أين لَكُنَّ هذا اليقين بأنَّ كلَّ شيء انتهى؟

قالت شفيقة:

- هيَّا يا أخي، كلُّنا نعرف لمَ تزوجتِها، ونعلم أنَّ أبي أجبرك على الاستمرار في اللعبة.

ردَّت بذات اللهجة:

- نعم كلُّنا نعلم حتى هي تعلم، لكن هناك تغيُّرًا طفيفًا حصل ربما لم تنتبهن له

شفيقة:

- وما هو؟

ردَّ هشام بابتسامة:

- إنِّي وقعتُ في غرامها..

هتفت شفيقة:

- كنت متأكدةً أنَّ هذا سيحدث..

في حين صرخت عبير في هلعٍ:

- هشام أنت وعدتني.

- نعم وعدتك، وكنت صادقًا في وعدي لأنِّي أساسًا تزوجتها لضربِ النساء بالنساء على أمل أن تثوبي إلى رشدك وتعودي للاهتمام بي وبالأطفال لكنك ازددت غيًّا وجنونًا واستبَّد بك العناد والغرور، ورفضت حتى العودة إلى سابق عهدك كنت تخرجين مرة أو مرتين في الأسبوع والآن كلُّ يوم أنتِ في الخارج حتى في مرضي، كنت تسهرين مرة في الشهر الآن كل أسبوع لديك سهرة، ولا أدري إن كنت تفعلين ذلك عن عنادٍ أم حماقة، لكن بالنتيجة ازداد الوضع سوءًا يا عبير فلمَ أفرط بها؟ ولتعلمي أنت ابنة عمي وحبي الأول ومعبودتي

الجميلة ولن أفرط بك أبدًا، أبدًا يا عبير ولكني أيضًا لن أفرط في جوهرتي.

سكتت عبير الدموع تسيل على خدِّها في حين قالت شفيقة في سخرية:

- هذا سحر، تلك الشمطاء سحرت أبي العجوز أفلا تسحرك!!

- نعم سحرتني وما أجمله من سحر، سحرتني طيبتها، وحسن معاملتها، مبسمها، بتدليلها إياي، لا تعلمون كم كان يغيظني حبُّ أبي لها، الآن فقط أعلم لمَ أحبَّها كلَّ هذا الحب وجعلها مقدَّمة عليكن..

لوت شفيقة فمها باحتقار وقالت:

- هراء...

قال هشام:

- شفيقة أنت شقيقتي الكبرى ولك كل احترامي، أرجوك، أرجوك توقَّفي عن التدخل في حياتي وإثارة الشقاق فيها...

- تريدني أن أراك تظلم ابنة عمِّنا واسكت.

نطقت عبير أخيرًا وقالت في ضعفٍ:

- لا أدري ماذا كنت سأفعل من دونك أنت نعم الأخت، ظلِّي معي دائمًا.

ردَّت:

- أكيد يا عزيزتي ولن يستطيع شيء تغيير هذا...

ضحك هشام وقال:

- هكذا إذًا، حسنًا دعينا نكشف الأوراق لتعرفَ عبير أيَّ صديقةٍ وأختٍ أنتِ ولنرى ما ستؤول إليه الأمور.

صرخت شفيقة:

- إياك يا هشام..

في حين قالت عبير في فضولٍ:

- أيُّ أوراق؟

استطرد هشام:

- ذهبت إلى شفيقة كونها صديقتك المقربة أشكو لها إهمالك لي ولبيتك وأطفالك، فكان أولَ ما قالته تزوَّج عليها، وليت الأمر توقف عند هذا الحدِّ بل عرضت على أروى أخت زوجها ورتبْنا كلَّ الأمور لكنِّي تراجعت في آخر لحظة لأنِّي أعرف أنَّ زواجي بأروى سيكون أبديًّا وكانت الخطة تقتضي زواجًا مؤقتًا يعيدك إلى رشدك، الأمر الذي سبَّب لها إحراجًا مع أهل زوجها فانقلبت علي والأسوأ أنِّي اخترتُ واحدة هي تكرهها من الأساس وهي سارة كونها وحيدة مقطوعة فيسهل على طلاقِها متى أردتِ دون مشاكل زادت نقمتها علي وهكذا ترين أنَّ كلَّ ما تفعله شقيقتي مدعيَّةً إنَّها صديقتك هو في الواقع انتقامٌ مني لما سلف..

كان الجميعُ مصدومين مما عرفه وعلى رأسهم عبير في حين نكَّست شفيقة رأسها خجلًا وقبل أن يفيق الجميع من الصدمة كانت عبير تهجمُ على شفيقة تضربها صارخة:

- أيَّتُها الخائنة، أيَّتُها الحقيرة، أنت تفعلين هذا بي؟ أنت من اعتبرتها أختي، أنت يا صديقة الطفولة.

أسرع هشام يفرق بينهم وعبير تصرخ:

- اخرجي من بيتي ولا تدعيني أرى لك وجهًا..

قالت شفيقة رغم ملامح الخزي وهي تصلح شعرها المنكوش:

- أخي يستحقُّ زوجةً أفضل منك وبالتأكيد أفضل من تلك الشمطاء

حاولت عبير الهجوم عليها مجددًا وهي تصرخ:

- أيَّتها اللعينة، اخرجي من بيتي قبل أن أقتلك..

شدد هشام قبضته عليها وهو يقول:

- عبير كفى، لن يخرج أحدٌ هذا بيت العائلة وسيظلُّ مفتوحًا للجميع كان وسيبقى منزل زوجة أبي والكلُّ مرحَّبٌ به فيه...

****

بعد مرور شهر على الأحداث..

عادت سارة إلى العمل سريعًا جالبةً معها جوانا في محاولة لإخراجها من جو الكآبة المسيطر على روحها ويبدو أنَّ الأمر قد نجح خصوصًا عندما وضعت جوانا كلَّ طاقتها وتفكيرها في العمل فبدأت تستعيد روحها وعاد إليها رونقُ الحياة من جديد لكن الحدث الأهم الليلة أنهنَّ سيحضرن حفل افتتاح أحد أكبر مطاعم البلدة والذي توليْن تأثيثه وديكوراته بأنفسهن وكانت صاحبة المطعم سعيدةً جدًّا بكلِّ ما قمْنَ به فأصرَّت على دعوتهن كضيوف شرف في ليلة الافتتاح الكبير الأمر الذي سيكون بمثابة دعاية مجانية لشركتهن التي توطّد قواعدها

حديثًا في السوق فقررنْ ترك العمل باكرًا للاستعداد فلا بدَّ أن يكنَّ في أبهى حلة قالت حنين وهي تستعد للمغادرة:

- هل سيأتي هشام معك الليلة إلى الحفل؟

زفرت سارة في ضيق وقالت:

- لا أدري، لكن لا أظنه سيأتي قال إنَّ لديه الكثير من الأعمال ربما سيأتي إن انتهى باكرًا..

- ما الذي يفكِّر فيه زوجك؟

بان القلق في عينيها وهي تقول:

- صدقًا لا أعلم، قال أمام الملأ إنه يحبُّني ولن يفرِّط بي أبدًا كما سبق وأخبرتك، لكن فعلًيا لم يعد له وجود في حياتي. إنَّه حتى الآن لم يعد إلى المنزل وكلما سألتْه قال لم يحن الأوان بعد، ما الذي ينتظره؟ ما الذي يفكر به؟ لا أعلم...

ربَّتت حنين على كتفها مطمئنة:

- لا داعي للقلق لقد وعدك.

- وهذا أكثر ما يخيفني فقد سبق ووعد عبير..

هزَّت رأسها بقوة وأكملت:

- لا أريد التفكير في هذه التعقيدات بالذات الليلة أريد أن أحتفل بنجاحنا

- اه يا سارة لا أصدق أننا نجحنا بهذه السرعة..

- وأنا أيضا لكننا استحققناها فقد عملنا بجد، لا تتصورين مقدار سعادتي بنجاحي، على الاقل وإن لم تنجح حياتي الزوجية فحياتي العملية على ما يرام، هيا دعينا نذهب ونستعد.

- بالمناسبة، جوانا طلبت أن أخبرك أنَّها ستأتي برفقة طارق.

- وماذا في ذلك؟ طارق الذي كنت أعرفه تلاشى، لم يعد له وجود، نلتقي هناك، إلى اللقاء..

****

عادت حنين إلى المنزل وبعد أن استحمت جلست أمام طاولة الزينة شاعرة بالتوتر والترقب، دخل حامد ووقف خلفها ينظر إليها عبر المرآة وقال مبتسمًا:

- تبدين متوترة، هل أنت خائفة؟

- قليلًا، تعرف حفلًا كبيرًا، وكثير من الناس

أخذ يمسِّد على كتفيها وعنقها محاولًا إزالة توترها وهو يقول بحنانٍ:

- كيف تخافين وأنا معك؟! كلُّ الأمور ستكون على ما يرام

أمسكت بيده تسأله:

- هل ستحبُّني هكذا دائمًا؟

أدار كرسيها وركع أمامها وأمسك بيدها وهو يقول:

- أنا لا يمكنني سوى أن أحبُّك فلا شيء له معنى في حياتي بدونك، سأحبُّك.. لنرى، سأحبُّك حتى نشيب معًا،

سأحبُّك حتى نجلس على الأريكة والأحفاد حولنا نحكي لهم كيف يكون الحب ونحن متشابكو الأيادي، سأحبُّك، سأحبُّك حتى آخر قبلة آخذها منك ذات مساء وأنام في حضنك فيكون آخر ما أراه عينيك، وآخر صوت أسمعه صوتك، وآخر ما يدخل جوفي هو ريقك.

ظلَّت تنظر إليها مبهورة ككلِّ مرة يتحدث فيها عن حبِّه لها ثمَّ ضمَّته إليها قائلة:

- حامد أحبُّك أحبُّك بحقٍّ لكنَّه يتضاءل أمام حبِّك ويشعرني بالعجز ولا...

قاطعها وهو ينظر إلى عينيها:

- يكفيني أنَّك تشعرني بحبِّي حتى لو لم تحبيني، أعلم أنَّك تحبينني، ما رأيك أن تأخذ إجازة ونسافر؟ أشعر أنِّي مدين لكِ بشهرِ عسلِ...

ضحكت في سعادةٍ وقالت ممازحة:

- فقط شهر عسل؟

رفع يديها يلثمُ راحتها وهو يقول بحبور:

- أعدك أنْ أعوضك عن كلِّ شيء، يا حبيبتي

وطبع قبلةً شغوفة على شفتيها ثمَّ قال:

- إلى أين تريدين الذهاب؟

ذكرت أول مكانٍ خطر على بالها قائلة:

- ما رأيك في باريس؟

ردَّ دون تفكير:

- حسنًا سنذهب إلى باريس

- حامد أنت لا تمزح، أرجوك قل إنك لا تمزح؟

- بالطبع لا أمزح استخرجتُ الجوازات بالفعل

- لا أصدِّق أنَّ هذا يحدث حقًّا...

- هيا سأتركك تجهزين فقط أردت رؤية عينيك متألقةً لامعةً في سعادة، هيّا فنحن لا نريد التأخّر عن الحفل.

- وهل تظن أنِّي قادرة على فعل شيء بعد هذا الخبر السار، آه يا حبيبي كم أنا سعيدة!

****

كانت جوانا أوَّلَ الواصلات من الثلاثي وقد بدت في حالةٍ أفضل. جلست على إحدى الموائد تنتظرهن عندما سمعت صوتًا لن تخطئه أبدًا وهو يقول:

- أهلًا جوانا، مرَّ وقتٌ طويلٌ

التفت إلى مصدر الصوت في سعادة حقيقية وهي تقول:

- يا إلهي، مصطفى أهذا أنت؟ لا أصدِّق أنِّي أراك..

مدَّ يده يصافحها في حرارةٍ وأبقى كفَّها بين يديه وهو يقول:

- لو كنت أعلم أنَّك ستسعدين بعودتي هكذا لعدتُ منذ زمنٍ

- أيُّها الجاحد تعلم أنَّ رؤيتك تسعدني دائمًا فأنت ابن عمي، متى عدت؟

- منذ طلاقك من ذاك الحقير، لكن طارق كان يقول إن حالتك لا تسمح أن أراك وعندما علمت بأمر الحفلة قلت لا بدَّ أنَّك أفضل حالًا الآن فاحتلتُ ودخلت فقط لأراك..

ضحكت جوانا من الإحراج وقالت:

- ما زلت طريفًا كما أنت

ابتسم لها وقال:

- وما زلت فاتنة كم أنت

سحبت يدها من يديه في هدوء وجلست وهي تحدث نفسها أنها لن تسلك هذا الطريق مجددًا جلس أمامها وقال دون مقدمات:

- جوانا تعلمين أنَّك مهجةٌ قلبي وحبُّ حياتي منذ الطفولة، وأعلم أنَّك لا ترين فيَّ سوى ابن عم وصديق لكن هذا....

قاطعته:

- مصطفى أقدر لك مشاعرك، لكنِّي قد خرجت للتو من تجربة مريرة ولست مستعدة حتى للحديث في هذه المواضيع .. أرجوك

- بل أنا من يرجوك لا تصديني هكذا، لا تكسري قلبي مرة أخرى..

- لست أصدك يا مصطفى، فقط الوقت غير مناسب وفي قلبي جرحٌ نديٌّ يقطر دمًا، ولدي طفلة لها الأولوية في حياتي

- آه، يا جوانا، طفلتك هي طفلتي يكفي أنها قطعة منك لأعشقها، بل إني أعشقها منذ الآن لأنَّك أمها. فابحثي عن حجة أخرى

- مصطفى أنت واحدٌ من أروع من قابلت، لكن مازال الوقت مبكرًا بالنسبة لي فجرحي لم يبرأ بعد.

أمسك بيدها وقال بهمسٍ:

- خذي كلَّ الوقت الذي تريدينه، ولكن ألا يمكن أن يكون العبد لله، الضعيف المتيم في حبك، الذي أمامك هو البلسم لجروحك، ألا يمكن أن أكون السعادة التي تنتظرك بعد ما عانيته، لم أفرض نفسي على أحد ولن أبدأ هذا معك ، فقط كلُّ ما أريده أن أترك الباب مواربًا، امنحيني أملًا.. دعينا نكن أصدقاء، دعي الحياة تضحك لي من خلال عينيك.

- مصطفى أنت مجنون أتعلم هذا؟

- الآن حتى عرفتِ أنِّي مجنونٌ بك

- أعرف فتياتٍ مستعداتٍ للموت من أجل نظرة رضا منك..

رفع يدها إلى شفتيه يلثمها بحرارة:

- وأنا مستعدٌ للموت مقابل نظرةَ رضا من عينيك يا أميرتي..

فكَّرت جوانا أنها اتبعت قلبها المرة السابق فإلى أين أوصلها؟ ستتبع عقلها هذه المرة وتتريث ففي النهاية مصطفى شابٌّ

يُجمِع الكلَّ على خلقه ورجاحة عقله وربما يحصل ما يتمناه وتحبُّه كما يحبُّها، هزَّت رأسها غير مصدقة أنها تفكر في الحب مجددًا، فاكتست وجهها بحمرة قانية وابتسمت بخجل فقال مصطفى في حبورٍ:

- يا إلهي، لا أصدق أني أدخل عالمك أخيرًا

أسرعت تقول:

- كصديقٍ وابن عم.

قال بسعادة:

- لا يهمُّ، المهم أنِّي عبرت البوابة إلى قلبك

وصلت سارة وحدها ثمَّ حنين وزوجها وشقيقها مازن جلسوا على ذات المائدة مع جوانا وطارق.

- قالت حنين: لن تصدقنَ ما حدث؟

جوانا:

- ماذا؟

حنين:

سنسافر شهر عسل إلى باريس

هتفت الاثنتان:

- حقًّا؟

قالت سارة وهي تختلس النظر إلى حامد:

- أنا سعيدة من أجلك، أيعقل أنَّ هذا من كدتِ تموتين كمدًا ليلة زفافك به؟

ابتسمت في سعادة وقالت:

- ربما هذا يثبت صحة ما يقال "لو اطلعت على الغيب لاخترت المكتوب"

قالت جوانا بابتسامة خجولة:

- لن تصدقن من جاء اليوم؟

ضاقت أعينهن قلقا وسألت سارة:

- لا تقولي أنَّ ذاك الحقير ظهر مجددًا

ضحكت جوانا وقالت:

- لا، ليس هو لم أراه منذ جاء إلى أبي شاكيًا بعد أن دمرنا شقته

ضحكن مجددًا وسألت حنين:

- من إذًا؟

- مصطفى ابن عمي، لقد عاد إلى البلدة.

هتفت سارة:

- مصطفى عاشقك المتيم؟؟

هزَّت رأسها في حبورٍ فقالت حنين:

- إذًا هذا سر سعادتك اليوم؟، لا أصدِّق يا جوانا أنَّك تفكرين بالحبِّ مجددًا، أم أنه لا يشفي الحبَّ القديم سوى الحبُّ الجديد.

ردَّت جوانا باستحياء:

ليس الأمر كذلك كانت مجرد زيارة ودية، ثمَّ إنَّ هناك فرق.

قالت سارة:

- طبعًا، فهذا رجلٌ حقيقي، بينما ماهر كان مجرد طفل

قالت جوانا:

- لمَ تستبقن الأحداث، أنا لم أقل أنِّي أحبُّه

ردت حنين:

ونحن لم نقل لا تحبينه، هل ثمة ما هو أجمل من الحب؟؟؟؟!

قالت سارة في سعادة حقيقية:

- إنه يوم سعدنا، شهر عسل، وحب جديد، ونجاح في العمل. ماذا نريد أكثر؟

قبل أن يقلن شيئا تعالت الموسيقى فالتفَّ الجميع إلى المسرح حيث كانت تقف صاحبة المطعم ترحب بالجميع وتشكر كلَّ من ساهم في تأسيس وافتتاح المطعم ثمَّ قالت:

- أخصُّ بالشكر مهندسات الديكور السيدتين سارة وحنين على عملهما الرائع، ونرجو من السيدة سارة الصعود إلى المنصة مشكورة.

اتَّجه الضوء إلى حيث تجلس سارة فأُسقط في يدها وشعرت بالارتباك فهي لم تعدُّ كلمة أو ما شابهها، فقامت من مكانها وصعدت إلى المنصة فصافحتها السيدة وهي تقول بفرحة غامرة:

- مهما فكرت لم أكن لأجد فكرة رومانسية مناسبة للافتتاح تفوق هذه روعة وتكون دعاية لي ولكم..

قبل أن تحاول الفهم تنحَّت السيدة جانبًا وتعالت موسيقى هادئة مع صوتٍ بدا لها مألوفًا وهو يقول:

- سيدتي الجميلة

ليظهر هشام من خلف الستار حاملًا في يده باقة ورد حمراء كبيرة وهو يكمل:

- سيدتي الجميلة

اعذريني لأني لم آتِ بالقمر لينير ليلتك

لأني لم أنسج من النجوم لآلئك

اعذريني لأني لم أنثر الورد على خطاك

فكلها تتضاءل في حضرة سحرك

اعذريني سيدتي الجميلة لأنني

في المرة الأولى دنَّست محرابك

وصل إلى حيث تقف مبهورة فتعالى هتافُ وأصوات الحضور ووضع الباقة بين يديها قال وهو ينظر إليها أمام الملأ:

سيدتي الجميلة

جئت أجدد عهودي لك

بل أتلو عهودي الجديدة

فتلك العهود لم تكن شيئًا

عهدي هو أن حبِّي لك

عهدي أني لن أفرط بك

عهدي أنَّ لا شيء سيفرقنا

وعندما جثا على ركبته أمامها، عمَّ الصمت المكان فكانت تسمع دقات قلبها كقرع الطبول، أحدهم أخذ منها الباقة فقال وهو ممسك بالخاتم:

سيدتي الجميلة

هل تقبلين الزواج بي؟

هل ستضعين خاتمي؟

هل تهدني أحلى صباحاتي؟

وتمضين معي أعذب الليالي؟

وأروع أيامي إلى الأبد؟

صرخت وهي تقفز في سعادة:

أقبل.. أقبل.. أقبل

وضع الخاتم في إصبعها وقبَّل كفها ووقف فضمته إليها وقالت:

- آه يا هشام، لا أصدِّق ما حدث.

تعالت الهتافات والتصفيقات وأضواء الكاميرات فمما لا شك فيه أنَّهم سيكونون حديث البلدة لأيام، إن لم يكن لأسابيع فقال وهو يبتعدُ بها عن الأضواء بينما هي تشير لصديقتيها وهما ترسلان لها قبلاتهما فقال وهو ينظر إليها بشوق:

- بالمناسبة اليوم هو عيد زواجنا، لا أعلم إن كنت لاحظتُ ذلك

- بالطبع لم ألاحظ ففي غيابك كلُّ شيء كان معتمًا، باهتًا بلا معنى.. انتظر ألهذا لم تعد إلى البيت؟

- يا حبيبتي لا شيء يحدث اعتباطًا، لا تعلمين كم اشتقت إليك يا ساحرتي الجميلة..

- ليس بمقدار شوقي لك، هل فعلت كلَّ هذا من أجلي؟

- فقط لتعلمي كم أحبك يا ساحرتي

- إنَّه اليوم الأجمل في حياتي

- وعدٌ مني سأجعل كلَّ يومٍ في حياتنا معًا اليوم الأجمل

****

تمَّت بحمد الله

جولدي المابو

1439 /3/10هـ

Green
Waye